سيرة

ترايسي
شمعون

ثمَن السِّلم

نوفل

ترايسي شمعون

ثمَن السِّلم

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدر عام 2013 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان.

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2013
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل - سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها - من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

إنّ الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تمثّل سوى كاتبها.

صورة الغلاف: **سليمى شريم وجورج باستاجيان**
تصميم الغلاف: **معجون**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
طباعة: **53Dots**

ر.د.م.ك.: **978-9953-26-880-4**

وفاءً لذكرى والدي داني شمعون ووالدتي باتي.

«من يُهمل الحقيقة في الأمور الصغيرة لا يمكن الوثوق به في الأمور المهمّة.»

ألبرت أينشتاين

«ثمّة أحداث عظيمة لدرجة أنّه يجب على الكاتب، إن كان مشاركًا فيها، أن يكتب بصدق بدل أن يتولّى تحويرها من خلال التلفيق.»

إرنست همينغواي

أعداء وخصوم قدامى
ينتظرون أشباحًا غريبةً
تنبعث من حيوات الماضي
ترتدي اليوم قناعًا مختلفًا
لعنات منسيّة لحكمة غابرة
لا تزال تبرز إلى العلن
ديون قديمة ترفض أن تندثر
تعيدني إلى المواجهة
حياة طويلة من العنف والألم
راكمتها من غير جدوى،
فلا شيء يلتصق ولا شيء يبقى،
كلّ شيء زال وتلاشى منذ زمن بعيد
ولكنّ الشياطين لا تنفكّ تحدّق
لأنّها، بكلّ بساطة، لا تأبه.*

مقطع من «الحبّ فقط».

* إنّ القصائد في هذا الكتاب جميعها للكاتبة ومُتَرجَمة عن الإنكليزيّة.

1

أذكر يوم جلست مع جدّي، كميل شمعون، حول طاولة الطعام، في منطقة الأشرفية التي كانت قد أصبحت في حينها غيتو مسيحيًّا. كان قد انتهى للتو من تناول طبق «ملفوف محشي» تولّت تحضيره طاهيته المخلصة جانيت، وهو طبق شهيّ كنت أرفض تناوله لأنّني كنت نباتية، حتّى في تلك الأيام. لطالما كان ينظر إليَّ بسخرية بسبب خياراتي الغذائية ثم يهزّ كتفيه في علامة لامبالاة متابعًا التركيز على طعامه. كان جدّي يتناول طعامه بطريقة منهجية وجدّية. لم يكن ثمّة مساحة للتحادث خلال الوجبات، إذ كانت الأطباق تُقدّم الواحد تلو الآخر.

ذاك اليوم، بعد الغداء، وعلى عادته، أخذ يذرع الغرفة ويداه خلف ظهره. لا تزال تلك الصورة ماثلة في مخيّلتي: كان يلقي أبياتًا من الشعر وغالبًا ما كنت أجلس بقربه مستمعة إليه. أمّا يومها؛ فقد كان الوضع مختلفًا. كان متجهّم الوجه ومكتئبًا لأنّني فاتحته خلال الغداء برغبتي في مغادرة لبنان؛ لم يكن أمامي أيّ خيار سوى الرحيل، على غرار جميع الشباب اللبناني في حينها. كنت قد عشت في لبنان طيلة سنوات الحرب منذ كنت في الرابعة عشرة، ثم تابعت دراستي الجامعية في

بريطانيا، وبعد تخرّجي اخترت العودة إلى لبنان لأكون مع العائلة. كنت في بداية العشرينات وقد فوجئت بنجاحي في إيجاد فرصة عمل، إذ تعاقدت بعض المصارف معي لإنجاز تقاريرها السنوية والقيام ببعض الأبحاث المتعلقة بالتواصل مع زبائنها.

لكنّني وجدت نفسي على حافة الهاوية وأنا أحدّق بمستقبل مجهول؛ فلا أمل بفرح أو سلام، والحل الوحيد هو الرحيل إلى مكان آخر. شعرت بحاجة إلى البحث عن حياة ما بعيدًا عن الوطن، على غرار مئات الآلاف من اللبنانيين الذين رحلوا خلال سنوات الحرب الأهلية والمذابح البغيضة.

كنت أعلم أنّ جدّي فخور بي إلى حدّ كبير، كان الأمر واضحًا، ولكن في ذاك اليوم المشؤوم شرحت له أنّني سئمت التجوال في شوارع مقفرة هربًا من قذائف الهاون ونيران القناصة، وأن المدّخرات التي جمعتها لأنشئ عملًا خاصًّا بي قد تبخّرت بين ليلة وضحاها لأنّ الليرة اللبنانية فقدت فجأة قيمتها أمام الدولار، وأنني لم أعد أقوى على العيش في عالمٍ يحكمه الكره.

إنه عام 1986، ولا تزال مختلف الفصائل في مجتمعنا المسيحي تتنازع على السلطة عن طريق انقلابات متتالية، فبعد اغتيال بشير الجميّل، تنازع رجاله على قيادة الجناح العسكري للميليشيا التي كان يرأسها، وشنّ أحد مقاتليه، سمير جعجع، الهجوم على مقاتل آخر، إيلي حبيقة، بعد قتل عدد كبير من رجاله، وذلك في إطار صراع على السلطة عصف بالمجتمع الذي قاتلوا لأجله واستمرّ لعدة أجيال تالية. بالنسبة لي، بدا حمام الدم هذا دليلًا آخر على الخيانة، يضاف إلى سلسلة طويلة من تجلّيات الخداع بين البشر.

راقبت جدّي بانتباه وهو يجول ذهابًا وإيابًا؛ لقد تغيّر. كنت أشعر بوطأة الزمن واليأس تثقل كاهليه؛ كان فكّاه مشدودين وخطواته بطيئة

ومتثاقلة. أدركت ما كان يجول بخاطره حتّى قبل أن ينبس ببنت شفة: لم يكن ذلك أفضل ما تمنّاه للأجيال الجديدة الناشئة في مجتمعٍ أسهم في بنائه.

كانت الأحداث الإقليمية قد بدّدت أحلامه المتعلّقة بوطنه وأغرقتها في دوّامة الفوضى والأذى، ليتلاشى آخر آماله في بناء وطن سيّد وحرّ ومستقلّ كان من المفترض أن يكون بحدّ ذاته رسالة في العيش المشترك والتسامح الديني، قبل أن ينتهي به الأمر عالقًا في إحدى أبشع الحروب الطائفية في تاريخ العالم.

بالكاد تكلّم جدّي. فقط تمتم: «ليس هذا ما أردته». كلمات قليلة لكنّها كانت كافية لأدرك عمق حزنه وخيبته.

لم يكن جدّي أحد زعماء البلاد فحسب بل كان زعيمًا في الطائفة المارونية كذلك. والطائفة المارونية في لبنان تتبع الكنيسة الكاثوليكية، وقد تأسّست في القرن الرابع وفق تعاليم القديس مارون، واتّسم تاريخ أبنائها بالاضطهاد وبالكفاح للبقاء. فقد نجحوا طيلة عدّة قرون في صدّ هجمات القوات الغازية من أتراكٍ ومسلمين عبر الاحتماء في جبال لبنان. هم من المكافحين الشجعان الذين اعتادوا الدفاع عن عقيدتهم فباتوا رمزًا للمقاومة والبقاء، وقد حافظوا على عاداتهم وتقاليدهم منذ نشأتهم، وارتبط اسمهم بنشوء لبنان الحديث والمستقل وتطويره والمحافظة عليه. ولطالما شكّل الارتباط بالغرب مدخلًا لبقائهم منذ تأسيسهم العلاقات المتينة مع الصليبيين مرورًا بالفرنسيين والبريطانيين، واليوم، طبعًا، الأميركيين.

عندما أبصرت النور، كان اسم جدّي معروفًا في عالم السياسة في منطقة الشرق الأوسط عمومًا وفي لبنان خصوصًا، وكان شخصية بارزة على مستوى مقاومة الاستعمار الفرنسي، وقد شارك في النضال لتحرير بلاده من قوات الانتداب الفرنسية التي أمرت، في مرحلة من المراحل،

بسجنه. حتّى إن التاريخ شاء أن يتزامن يوم خروجه من السجن مع تحرير البلاد. بعد ذلك، تولّى منصب سفير لبنان في بريطانيا من العام 1944 إلى العام 1946، ثم منصب سفير لبنان في الأمم المتحدة، قبل أن يُنتخب رئيسًا للبنان عام 1952.

ولا تزال السنوات الست التي تولّى خلالها رئاسة البلاد، منذ العام 1952 إلى العام 1958، تُعرف بـ«السنوات الذهبية» في تاريخ لبنان، شكّل خلالها، مع زوجته، جدّتي زلفا، صورة من السموّ والجمال سحرت الأمّة وأعطت لبنان وجهًا عالميًّا جديدًا من الانفتاح والثقافة.

بحلول نهاية ولايته في تموز/يوليو 1958، كان لبنان مهدّدًا باندلاع حرب أهلية، وفي ذروة الحرب الباردة، بين الغرب والاتحاد السوفياتي، اجتاحت المنطقة موجة جديدة من الحركات القومية العربية التي اتسمت بالعلمانية والاشتراكية، تجسّدت في سوريا والعراق من خلال أيديولوجيات حزب البعث. في مصر، قاد عبد الناصر، العقيد الشاب في الجيش المصري، ثورةً عام 1952، وتولى رئاسة البلاد ساعيًا إلى فرض رؤيته القومية العربية وتصديرها إلى سائر أنحاء العالم العربي. أدّى ذلك إلى اضطراب بلغ ذروته عام 1956 مع رفض جدّي قطع علاقات لبنان الدبلوماسية مع الغرب غداة أزمة قناة السويس. فقد عمد عبد الناصر، تماشيًا مع عقيدته المعادية للإمبريالية الغربية، إلى تأميم شركة قناة السويس، ما جعل منه بطلًا قوميًّا في كافة أنحاء العالم العربي. وقد استغل عبد الناصر شعبيته للضغط على الحكومة اللبنانية وحثها على الانضمام إلى الجمهورية العربية التي أُنشئت حديثًا بين مصر وسوريا. تبنّى عدد من الفصائل المسلمة في لبنان هذه الأيديولوجية الجديدة فيما سعى المسيحيون إلى الحفاظ على انحياز لبنان إلى جانب قوى الغرب. وعندما شعر جدّي باتّساع نطاق الاضطراب وبالتهديد من

نـداءات عبد الناصر، حـاول تمديد ولايـته الرئاسية، فجاء ردّ عبد الناصر من خلال التحريض على انتفاضة ضدّه، ما أدى إلى ثورة عُرفت بـ«ثورة 58». دفع تصاعد أعمال العنف في البلاد جـدّي إلى طلب المساعدة من الرئيس الأميركي أيزنهاور الذي استجاب لطلبه بإرسال الأسطول السادس الـذي رسا قبالة الساحل اللبناني. وبالفعل، أسهم الوجود الأميركي بوضع حدّ للقتال، وتنحّى جدّي عن السلطة. إلّا أنّ عملية إحباط تلك الثورة المحدودة كانت بمثابة مؤشر للموجة التالية من العنف التي اندلعت بعد ست عشرة سنة والتي شارك فيها العديد من القوى المتصارعة نفسها.

عند تخلّيه عن الرئاسة، عام 1958، أنشأ جدّي حزب «الوطنيين الأحرار»، وفي العام 1968، سمح له حزبه السياسي بالفوز بـ 11 مقعدًا من أصل 99 في المجلس النيابي خلال انتخابات 1968، ليصبح أكبر حزب مُمَثَّل في المجلس المنقسم على نفسه كما هو معروف.

في ميثاق الحزب الذي خطّه جدّي، بدا واضحًا أنّ انتماء لبنان إلى الجامعة العربية أمرٌ راسخ في رؤيته، إذ كان يرى في لبنان دولةً ذات سيادة ضمن كوكبة من الدول العربية، وهي رؤية لا يدركها الكثيرون، وتعكس عمق احترامه لطبيعة لبنان المميّزة التي تشكّل في جوهرها جسرًا بين ثقافتين، الغربية والعربية. كان جدّي يفتخر بانتمائه إلى الثقافتَين.

خلال السنوات الست عشرة التي سبقت تاريخ اندلاع الحرب الأهلية عام 1975، شهد لبنان فترة قصيرة من الهدوء النسبي، ولكنه كان مجرّد سراب في ظلّ اختلال التوازن في المنطقة، الذي كان يتفاقم مع إقدام الإسرائيليين على طرد الفلسطينيين من وطنهم. فتلك الإبادة العرقية والوطنية للشعب الفلسطيني خلّفت قـدرًا كبيرًا من الغضب والتشرّد والإذلال لدرجة أنّها شكّلت حافزًا نتج عنه الكثير من الظلم والأذى.

في مواجهة مناخ سياسي عالمي أنكر المأزق الإنساني الذي يتخبّطون فيه، شعر الفلسطينيون بأنهم مجبرون على الدفاع عن حقوقهم وحريتهم بأنفسهم.

وللأسف لم يؤدِّ لجوؤهم إلى أعمال إرهابية بشعة في دفاعهم عن حقوقهم سوى إلى عزلهم في سعيهم وإلى دفع العالم لمزيد من الاستياء والخوف منهم. والحق يُقال، وخصوصًا في هذه الحالة، إن خطأيْن لا يصنعان صوابًا، بحسب العبارة الإنجليزية، ويظلّ تاريخنا المُثقل بالحروب المتكررة أفضل شاهد على هذه الحقيقة.

منذ البداية، فاض نزف الصراع الفلسطيني الإسرائيلي إلى لبنان، واستفحل بسبب أحداث أيلول الأسود في الأردن عام 1970، عندما سعت منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات إلى إطاحة الملك حسين. وبلغت تلك المواجهات العنيفة ذروتها مع طرد جميع المقاتلين الفلسطينيين من الأردن إلى لبنان. أدّى تدفّق اللاجئين الفلسطينيين إلى ارتفاع عددهم في لبنان إذ بلغ 300 ألف لاجئ أي ما يوازي نسبة 10% من عدد السكان، أقاموا في المخيمات المنتشرة في أنحاء البلاد وفي العاصمة بيروت. ولم تكن سوى مسألة وقت قبل أن يؤدّي العمل العسكري الناشط لمنظمة التحرير الفلسطينية على الأراضي اللبنانية إلى خلخلة ميزان القوى على الأرض وإثارة الاضطرابات الداخلية في البلاد. فقد حظي مقاتلو منظمة التحرير بدعم تحالف «الحركة الوطنية» اللبنانية المؤلفة من القوميين العرب واليساريين الذين كانوا يعارضون اليمين المسيحي الماروني والحكومة الموالية للغرب. هكذا، وجد عدد كبير من اللبنانيين من جميع الأطياف، والمسيحيين خاصة، أنفسهم أمام ضرورة الدفاع عن إيمانهم بسيادة لبنان واستقلاله، وخاصة أنّ حق المسيحيين في الوجود كان قد بدأ يصبح مهدَّدًا في ظل تزايد النفوذ الفلسطيني بدعم سوري.

خلاصة القول أنّه، بحلول عام 1975، عند اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، كانت أربعة محاور رئيسية لزعزعة الاستقرار قد تبلورت خالقةً الظروف المؤاتية لانقسام الأمّة في تلك الحقبة: قيام دولة إسرائيل، النزوح الجماعي للشعب الفلسطيني من وطنه الأمّ وعسكرته، ضغوط الحرب الباردة بين روسيا والولايات المتحدة، ونشوء الحركة القومية العربية التي أسهمت بتعميق الشرخ بين المجتمعين المسيحي والمسلم في لبنان.

شاء القدر أن تكون تلك الخلفية من الصراعات العنيفة على السلطة هي المسيطرة حين أبصرت النور ولكن، على الرغم من ذلك، وحتى عام 1975، تمتّعت بطفولة هادئة ومدلّلة في كنف عائلة تستمدّ تألّقها من شخصية جدّي الساحرة والجذّابة.

تعرّف والدي داني إلى والدتي باتي في لندن. لم تكن امرأة عادية، بجمالها الأسترالي وقامتها الأمازونية. كانت عارضة أزياء بارزة ومقدمة برامج في التلفزيون البريطاني في خمسينيات القرن الماضي. في البداية، عارض جدّي كميل هذه العلاقة، حتّى إنّه أرسل جدتي زلفا إلى لندن لإقناع والدتي بالعدول عن الزواج بوالدي.

إلّا أنّ والدتي سحرت زلفا التي عادت بعدها إلى لبنان لا لمناصرة فكرة الزواج فحسب بل للدفاع بشراسة عن شخصية والدتي. وحين أدرك جدّي أنّه لن يستطيع الفوز في هذه المنازلة، عزا العلاقة الوثيقة التي ربطت باتي وزلفا إلى انتمائهما لطائفة البروتستانت!

تزوّج والداي في لندن عام 1958، وتزامنت الزيارة الأولى التي قامت بها والدتي للبنان مع اندلاع الثورة المدنية. فور وصولها، سُلّمت مسدسًا بدا بمثابة رمز لمعمودية النار التي ستعيشها لما بقي من حياتها في مجتمع يعتنق الاضطرابات والعنف. في البداية، كان مظهرها اللافت

يثير شغبًا في الشارع، ما كان يدفع جدّي دوريًّا إلى إرسال مرافقين من عناصر الشرطة لإنقاذها من الحشود في الأسواق حيث كانت تجرؤ أحيانًا على التجوّل وحدها. طيلة حياتها، ظلّت تُعتبَر غريبة، «أجنبية». ولكن، على الرغم من قيود اللغة والبيئة السائدة التي تقمع المرأة والتوقعات المحيطة بهذه المسألة، خلقت والدتي عالمها الخاص وواقعها الشخصي، فأطلقت أول وكالة لعرض الأزياء في منطقة الشرق الأوسط، وانكبّت على إدارة أعمالها بمفردها فأقامت عروض أزياء في إيران والأردن. كان ذلك نشاطًا طليعيًّا غير مسبوق في تلك الآونة. وما من شك في أنّ ثقتها الكاملة بقدراتها وذكاءها قد أرسيا في نفسي القيم الغربية المتعلّقة بالاستقلالية والمساواة مع الرجل وحرية التعبير عن الذات.

كعائلة، أمضينا أوقاتًا لا تُضاهى نسبح على الشواطئ خلال الصيف ونمارس رياضة التزلج في الجبال خلال الشتاء. كان والدي داني أبيض البشرة ووسيمًا جدًّا، يتمتّع برجولة لافتة، قوامها الإرادة القوية المصبوبة في قالب من التواضع والحنان. كان رياضيًّا، وصيادًا متعطشًا للهواء الطلق، علّمني حبّ الطبيعة في سنّ مبكرة جدًّا. كنا نمضي معظم أوقات الفراغ في ممارسة الأنشطة الرياضية، سواء في التزلج أو الغطس أو سباق السيارات الذي كان رياضته المفضّلة.

خلاصة القول، كان المجتمع اللبناني يشكّل بيئة مُحبّة للحياة واللهو، تمامًا كما هي الحال اليوم على الرغم من جميع المشاكل. بموازاة هذه الصورة المبهجة وتحت هذا الغطاء من الرفاهية، كانت طبقات من العنف والتوتر الصارخين تتراكم في العمق وتبرز دوريًّا، بحسب ما لمسته بنفسي في سنّ مبكرة. بالنسبة إليّ، لا تزال أحبّ الذكريات هي تلك التي تعود إلى الفترة القصيرة الممتدة من العام 1960 إلى العام 1967، حين امتدّ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي إلى لبنان، كم كانت

مُطمئِنة تلك الأوقـات التي قضيتها مع جدتي في منزل العائلة في السعديات، جنوبي بيروت. ذلك البيت لم يعد موجودًا اليوم، فقد دُمّر بالكامل ونهبه المقاتلون الفلسطينيون في بداية القتال.

كان المنزل يعانق الشاطئ، وفي الأيام المنعشة، كانت رائحة الملح المنبعثة من البحر تمتزج برائحة أشجار «الجهنّمية» لتملأ البيت بروائح البحر المتوسط ومناظره المُسكِرة. ومع أفول النهار وتلاشي ضوء الشمس، كان النسيم الخفيف يتسرّب عبر النوافذ الكبيرة فيرفع الستائر البيضاء الناعمة وكأنها أشرعة ترفرف في الهواء، وكان المنزل، بحدائقه الزاحفة حتّى الواجهة البحرية، والأفق الممتدّ أمامه، يبدو كأنّه يطفو فوق الأمواج.

في موسم الصيف، كان يوم الأحد هو يوم لمّ شمل العائلة المقدّس. كنا نمضي طيلة اليوم في السعديات غارقين في جمال المنزل وأمانه، وكانت جلسة الغداء تشكّل ذروة يوم الأحد. كانت جدتي تطهو أشهى الأطباق التي يتصدّرها الطبق اللبناني التقليدي، «الكبة بالصينية»، المُعَدّة من لحم الضأن المفروم والممزوج بالبرغل، والتي تؤكل مع اللبن. كان جدّي يجلس على طرف الطاولة تقابله جدّتي من الطرف الآخر. ساد ذلك التقليد منذ أيام الحرب، حين كان يتخلّله ورود الأخبار السيئة ويظلّله الحضور الدائم للحرس الشخصي حولنا.

كنت في الرابعة عشرة عندما اندلعت الحرب الأهلية، وبين عشية وضحاها، تغيّر واقع البلاد جذريًّا، ولأول مرة وجدت نفسي فجأة في مواجهة الخلافات الدينية المتأصّلة في نسيج بلدي. قبل ذلك، وعلى غـرار معظم أبناء مجتمعي، لم نكن نبدي أيّ اهتمام لهذه الأمـور، أمضينا طفولتنا وترعرعنا وارتدنا المدرسة في مجتمع مختلَط لا مكان فيه لمسائل من هذا النوع من شأنها تعقيد حياة الشباب. كان أعز

صديق لجدّي رجلًا درزيًّا شهمًا يُدعى عادل حمدان، وكان أولاده من أعز أصدقاء والديّ. في الأساس، لطالما آمن جدّي بمفهوم لبنان الكبير المتعدّد الطوائف، وقد عكس حزبه السياسي، «الأحرار»، هذا المعتقد، فضمّ محترفين من كافة الطوائف اللبنانية. ولم يحِدْ عن موقفه هذا وينحَزْ أكثر بالاتجاه المسيحي، سوى خلال سنوات الحرب، بسبب الظروف السائدة.

فتقليديًّا، لطالما تعايش أبناء منطقة الشوف من مختلف الطوائف، ولا سيما الموارنة والكاثوليك والبروتستانت والمسلمين السنّة والدروز. والشوف، تلك المنطقة التي تقع جنوبيّ العاصمة بيروت، هي موطن عائلتي وأجدادي.

كان المسلمون السنّة من منطقة إقليم الخرّوب الشوفية من أشدّ المناصرين لجدّي ولا يزال أبناؤها حتّى يومنا هذا حلفاء مخلصين لعائلتي. في ذلك الوقت، كان حسن القعقور، الذي انتُخب نائبًا على لائحة جدّي، ممثّلًا عنهم في المجلس النيابي. أمّا المجتمع الدرزي، فكان منقسمًا على نفسه، وحتى اليوم، لا يزال الانقسام قائمًا بين الجنبلاطية واليزبكية الدرزية. الجنبلاطيون هم أتباع كمال جنبلاط، مؤسّس الحزب التقدمي الاشتراكي الذي يرأسه اليوم ابنه وليد، أمّا اليزبكيون فكانوا في تلك الآونة من الشمعونيين وتمثلهم عائلة أرسلان التي كان يتزعمها فخريًّا الأمير مجيد أرسلان، والتي يرأسها حاليًّا ابنه طلال. وخلافًا للمناطق الأخرى في شمال لبنان وكسروان، التي تتميّز بانعزال أكبر وبغالبية مسيحية، لطالما كان الشوف متعدّد الطوائف بجوهره. على الأقلّ، كانت هذه هي الحال حتّى عام 1982.

بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان وبدعم ضمني من الجيش الإسرائيلي، دخلت وحدات القوات اللبنانية بقيادة سمير جعجع (القائد

المعيَّن للقوات اللبنانية في منطقة «الشوف-عاليه» في جبل لبنان في كانون الثاني/يناير 1983) إلى المناطق المسيحية في الشوف الغربي، ما أدّى الى مواجهة مع المجتمع الدرزي المحلي الذي اعتبر عناصر القوات اللبنانية دخلاء على أراضيه. ثم التهبت العداوات القديمة من جديد واستعادت زخمها عندما فرضت قوات جعجع سلطتها بالقوة على منطقة الشوف. بالنتيجة، أُزهقت أرواح عدد كبير من الأبرياء وحصلت مجازر في كلا الجانبين. تسبّبت تلك المأساة العنيفة بنزوح جماعي للسكّان المسيحيين من الشوف الذي لا يزال حتّى اليوم يعاني من التأثير الديموغرافي لهذه الأحداث.

عام 1975، تزامن اندلاع الحرب الأهلية مع حدث بدا كأنّه الشرارة التي أشعلت النار: استهداف حافلة مليئة بالفلسطينيين على أيدي مجموعة من المسلّحين المسيحيّين يطلقون على أنفسهم اسم «الكتائب»، تيمّنًا بميليشيا الجنرال فرانكو في إسبانيا. تأسّست هذه المنظمة على يد بيار الجميّل، منافسٌ سياسي معاصر لجدّي، من الجانب المسيحي. عندما اشتدّت حدة القتال، سلّم جدّي رئاسة حزب «الوطنيين الأحرار» إلى ابنه.

هكذا، تولّى والدي داني قيادة ميليشيا «النمور» فيما تولّى بشير الجميّل قيادة ميليشيا «الكتائب». ومنذ البداية، لم تكن العلاقة بين المجموعتين قائمة على رؤية واحدة متطابقة للأمّة، لأنّ البرنامج السياسي لكلّ منهما كان مختلفًا جدًّا. كان توجّه عائلتي، المستمد من رؤية جدّي، يرتكز على منظور وطني يجعلها ترفض أن تُعرَّف بحسب قيود ومعايير دينية أو جغرافية. كانت تمثّل حركة وطنية، كما يشير اسم الحزب الذي أسّسته، وبالتالي التزمت بمفهوم لبنان الموحّد الذي يشمل تعايش المسيحيين والمسلمين.

في المقابل، قامت الفلسفة السياسية الكتائبية على العقيدة الراسخة بأنّ لبنان سيكون أفضل حالًا إذا ما قُسِّم، وتولّت حكومات مستقلة رعاية شؤون قطاعيه، المسلم والمسيحي. وذلك اعتقاد لا يزال سائدًا إلى يومنا هذا، ويجد نظيره في العقيدة الصهيونية التي تؤمن بضرورة قيام مجتمعات عرقية صغيرة في منطقة الشرق الأوسط مبنيّة على أساس الهوية الدينية. فمنذ أيّام بن غوريون، أدرك الإسرائيليون أنّ بقاءهم على المدى الطويل يعتمد على هذا النوع من التقسيم والتجزئة التي ستحميهم من العزلة بوصفهم أقلّية عرقية تحيط بها قوى إسلامية وعربية معادية.

برغم ذلك، وجد حزبا «الكتائب» و«الأحرار» نفسيهما مع بداية السبعينيات أمام عدوّ مشترك اتخذ شكل مجموعات فلسطينية مقاتلة سعت، بعد طردها من الأردن على يد الملك حسين، إلى تأمين حرية التحرّك العسكري بهدف شنّ حرب ضدّ إسرائيل انطلاقًا من الأراضي اللبنانية. في البداية، خاضت الأحزاب المسيحية المعركة جنبًا إلى جنب، ولكن للأسف، مع تطوّر الحرب والفوضى، انتهى بها الأمر بالتقاتل في ما بينها.

غضّت الحكومة اللبنانية الفاسدة النظر عن العدد الهائل من الأسلحة التي كانت تتدفّق إلى البلاد عبر الحدود، ما سمح للقوى الفلسطينية بتقويض البنية التحتية الوطنية والسياسية للدولة. وبفضل تلقّيهم تدريبات عسكرية خلف «الستار الحديدي»، كان مقاتلو منظمة التحرير الفلسطينية مستعدين للقتال العنيف، وتحوّلت مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين إلى ترسانات وقلاع تتكدّس فيها الأسلحة السوفياتية الحديثة، كما باتت ملاذًا آمنًا لأنشطة الإرهاب الدولي.

فور اندلاع القتال، تهاوى عالمي الخاص، على غرار ما حصل لجميع مواطني هذا البلد. فقدت الاتصال بأصدقائي المسلمين، وحُرمت

التوجّه إلى ما بات يُعرف لاحقًا بـ«المنطقة الغربية» والمناطق المسلمة عمومًا، ويشمل هذا الجزء معظم أجزاء العاصمة وجنوب لبنان وسهل البقاع الجميل. بات من المتعذّر على المسيحيين الوصول إلى جميع هذه المناطق. في الواقع، كنت قد قضيت معظم أوقات طفولتي في المنطقة الغربية، حيث مدرستي وجميع المطاعم والمسابح والمتاجر والفنادق التي كنا نرتادها بانتظام، وتبيّن لي أنّني لم أكن أعرف الجزء المسيحي من لبنان، ما عدا مركز الأرز للتزلج حيث كنّا نمضي العديد من عطل نهاية الأسبوع.

فور بدء القتال، أُقفلت المناطق المسلمة بوجه أيّ مسيحي أراد تجنّب الخطف والقنص أو التعذيب، وأيضًا في الجانب المسيحي خشي المسلمون على حياتهم. هرب الآلاف من المسلمين والمسيحيين تاركين منازلهم وأصبحوا لاجئين في وطنهم، فاتّخذ المسيحيون من حيّ الأشرفية الفرنكوفوني مكانًا لإقامتهم، إلى جانب توزّعهم في تلال وأودية جبل لبنان التي كانت ملاذًا للموارنة على مرّ العصور. حتّى إن ذلك الترسيم الجغرافي الطائفي في بيروت اتّخذ له اسمًا فبات يُعرَف بـ«الخط الأخضر»، في إشارة إلى حزام الخضرة من أعشابٍ وأشجارٍ نمت في الشوارع والأبنية المهدومة والمهجورة في المنطقة الفاصلة بين الطرفين. وكان المصطلح الشائع للدلالة على تلك المنطقة هو «خطوط التماس»، أي خط المواجهة.

أمّا آخر رحلة لي إلى تلك المنطقة فكانت طريق العودة إلى البيت في حافلة المدرسة وسط الإطارات المشتعلة ونقاط التفتيش الفلسطينية. يومها، بالكاد وصلت سالمة إلى المنزل، وكانت تلك آخر مرة أزور فيها مدرستي إذ تعرّضت الحافلة يومها لوابل من الرصاص فأصيب السائق بالذعر وأصرّ على إنزالي عند مفترق أحد الطرق لأنّه لم يشأ المجازفة

بسلوك الطريق المفضي إلى المبنى الذي يقع فيه مكتب والدتي، لشدّة خطورة الوضع. هكذا، وجدت نفسي فجأة محاصرة في طريق مهجور يلفّه الدخان الأسود المتصاعد من الإطارات المحترقة التي تحيط بي. كنت أسمع أصوات صراخ وألمح بين الفينة والأخرى رجالًا يركضون ويحملون أسلحة. ركضت بأسرع ما أمكنني للاحتماء داخل المبنى، ولحسن الحظ، كان أحد الحرّاس لا يزال موجودًا، وهو مسلم، فاصطحبني إلى البيت ووصلت بسلام. بعد هذه الحادثة، حرصت على عدم المغامرة مجدّدًا وعدم التوجّه إلى «الجزء الآخر» من المدينة. أصبحت القطيعة مع المعتاد والمألوف كاملة ولا رجعة فيها. بعد عدّة سنوات، عندما عدت لزيارة المعالم التي طبعت طفولتي، مدرستي والمسابح والمنتجعات التي كنت أرتادها، ومن ضمنها منزل جدّي الذي دُمّر تدميرًا كاملًا، بدت لي جميعها وكأنها بقايا طفولة من نسج الخيال.

كان «الخط الأخضر» يجسّد رمزًا للخوف والغربة والمنفى يخصّ جزءًا كاملًا من حياة الفرد، كانت أول تجربة لي كمنفية في بلدي، وكان يتعيّن عليّ الانتقال إلى بيت جديد ومدرسة جديدة وأصدقاء جُدُد. أمّا الطفولة التي عرفتها واستمتعت بها فقد ولّت إلى غير رجعة، ليس بطريقة طبيعية بل بشكل عنيف. بحلول عام 1976، كان القصف المستمر قد هجّرنا جميعًا وأخرجنا من منازلنا، ولم يعد هناك مجالٌ للعودة إلى الوراء. فُرِضَ عليّ أن أكبر فجأة. ولّت أيام العيش المشترك والتبادل الذي لا يعرف الخوف، والمودّة، وحلّت مكانها مشاعر الترقّب وانعدام الثقة. في المنزل، وبين ليلة وضحاها، أصبح والدي أميرًا من أمراء الحرب، وتوالت الأيام ومعها أخبار الموت والمجازر والدمار، وغصّ المنزل بالغرباء الذين يرتدون ثياب القتال، وتحوّل المنزل إلى مركز لتخطيط العمليات العسكرية، وحلّت الكراهية في غرفة الجلوس الخاصة

بنا، وأصبح التشهير بالعدو نغمة تتردّد في كل لحظة. كانت الكراهية سهلة وعمّت الجميع بنحو طبيعي وبضراوة تثير اليوم دهشتي.

في حينها، أصبحت الحياة مقتصرة على اللونين الأسود والأبيض. كنا مسكونين بالقصص التي كانت تنكشف مع كل دورة عنف والتي كانت تعزّز مواقفنا وآراءنا. لم يعد هناك من مجال للتفاهم. أصبح كل تحرّك مبنيًّا على ردّة فعل أو على سلوك دفاعي انتقامي. في الجوهر، كانت ملحمة تتغذى من ذاتها بحيث يكون أحد الطرفين دائمًا على حق والطرف الآخر دائمًا على خطأ، في ظلّ عدم وجود أيّ مساحة مشتركة، فقط رغبة في إزالة الآخر. أصبح تعريف الخير والشر ضيّقًا وشخصيًّا. اختفت ذهنية الترفّع التي تتيح التفاوض بشأن هدنة ما: لم يبق سوى إرادة الإبادة والتدمير. أمّا خسائر العدوّ في الأرواح، فكانت تُعتبَر انتصارات تدعو الى التفاخر، فيما تُعتبَر خسائرنا إهانات تدعو لإطلاق المزيد من تصريحات الكراهية والحرب. ولم نكن نعتبر، بأي شكل من الأشكال، أنّنا متشابهون، بل على العكس، كنا ننبذ بعضنا بعضًا وينزع بعضنا عن بعض أيّ ميزة إنسانية لنستمرّ على نحو أسهل في التقاتل، ومن دون رحمة...

فجأة، برز في محيط عائلتي أفراد كشفوا عن جوانب متعطشة للدماء ويفتقرون إلى الرحمة في شخصيّاتهم. بين ليلة وضحاها، تغيّر والدي. تحوّل من مهندس مدني إلى قائد لكافة العمليات العسكرية التي ينفّذها جزء كبير من المجتمع المسيحي.

لطالما احتوى منزلنا على بنادق لأنّ والدي كان يهوى الصيد، على غرار جدّي كميل. أذكر أنّني، في صغري، كنت أتسلّل إلى داخل خزانته لأطلع أصدقائي على بنادقه الآلية المخبّأة. اليوم أدرك خطورة ما كنت أقوم به، لكنّ تلك الأسلحة كانت تثير اهتمامي وإعجابي. في الثامنة من عمري، كنت مطّلعة بما يكفي على المسائل المتعلقة بالذخيرة وحجرات

التحميل لتجنّب أيّ حادث، لكنّ مشاعر الحماسة والتشويق التي ترافق حمل السلاح كانت قوية لدرجة كانت تدفعني لانتهاك القواعد التي وضعها والدي واستعراض البنادق أمام أصدقائي من باب التسلية.

من هذه الناحية، كنت طائشة كما جميع من حولي؛ ففي البداية، كانت الحرب بمثابة لعبة بالنسبة إلينا جميعًا، لم تكن لدينا أدنى فكرة عن العواقب المدمّرة لأعمالنا على المدى الطويل، كنا نشعر فقط بالإثارة والتشويق، ونمضي غافلين عن الواقع ومنقادين وراء أنظمة عقائدية غير مسؤولة قطعًا، لست أفهم، حتّى الآن، كيف استسلمنا كلّيًّا لأوهامها. ولكن، مجدّدًا، كنّا جميعًا مفعمين بمشاعر الكراهية والانتقام وبالتالي كانت المسألة مسألة بقاء: إمّا أن تعتنق الكراهية أو تُقتَل.

خلف إرادة الحرب، كان ثمّة نقصٌ فادح في الوعي الذاتي، الفردي والجماعي. كنّا واقعين جميعًا في شرك سلسلة من الأحـداث التي صنعناها بأنفسنا. ألقينا اللوم على جميع الآخرين، فيما كان من الواضح أنّ وضعنا لم يكن سوى نتيجة اتفاق جميع الزعماء الذين شاؤوا أن تكون الفوضى حقيقة واقعة.

في ذلك الوقت، انخرط جميع الأطراف في الحرب من دون تخيّل النتيجة. كان ذلك لإشباع موجة تعطّش للدم كانت قد سيطرت على البلاد، وغـذّت جميع القرارات والخيارات المتعلقة بالقتل والتدمير الجائرين. ذلك التعطش أطال عمر المأساة لعقدين من الزمن. وما بدأ كتدبير مؤقت بالنسبة إلى كثيرين انتهى مأساةً فظيعة على المستويين الشخصي والوطني. فلا أنصاف حلول ولا منطق أو تعقّل، ولا رغبة في تجاوز العوارض للوصول إلى جذور المسألة.

فالأحداث التي بدأت عام 1975 من دون وعي، أوجدت واقعًا لا يزال يربك البلاد.

وعمومًا، خلال حقبة السبعينيات، شعرتُ بأن كافة السياسيين اللبنانيين عاجزون عن التعاطي مع الأحداث وعن منع التصعيد في المواجهات. فمنطق المصالح الذاتية كان سيّد الموقف. الفلسطينيون واليساريون يتّجهون للتصعيد من أجل بسط سيطرتهم، والمسلمون ما زالوا متردّدين في ولائهم ويقفون حائرين وممزّقين بين بلدهم وإيمانهم، مُتيحين بذلك للدول العربية الأخرى استغلال ضعفهم. في المقابل، استمر السوريون بالتلاعب بجميع الأطراف، إذ كانوا مشتركين في مفاوضات السلم بين الفصائل اللبنانية بينما يعمدون في الوقت ذاته إلى تسليح المقاتلين الفلسطينيين وتدريبهم.

كل ذلك في ظل غيابٍ كاملٍ لأيّ قاسم مشترك من شأنه الحفاظ على ثبات التركيبة. فقد كان لكل مجموعة أفكارها الخاصة حول البلد، بدءًا من القومية والاشتراكية مرورًا بالنزعة الانفصالية والتقسيم، وصولًا إلى ضمّ لبنان من قبل الفلسطينيين أو السوريين أو الإسرائيليين. كان لكلٍّ منها أنصار متحمّسون ساهموا جميعًا في تمزيق الدولة.

في الواقع، ينبغي اعتبار لبنان بمثابة تجربة في الإنسانية وبوتقة تنصهر فيها غالبية المذاهب والطوائف في هذا العالم. لفترة ما، تعايشت كافة المجموعات وازدهرت أحوالها، فالطبيعة التعدّدية للدولة هي في صميم ثروتها.

لطالما كان لبنان ولا يزال، قادرًا على تأدية دور الجسر بين مختلف ثقافات الشرق والغرب في وقت تبرز فيه الأهمية الحيوية للترابط بين الدول والميل إلى العولمة من أجل بقائنا جميعًا.

يقدّم الدستور اللبناني مزيجًا مدهشًا من التسامح الديني. ولكن، خلافًا لإسرائيل، لبنان ليس دولة دينية، فهو علماني وديني في آن واحد، ويسمح بتوازن دقيق للقوة بين مختلف المذاهب، وتنصّ الهيكلية

السياسية للدولة على تمثيل متوازن من خلال تقاسم مقاعد المجلس النيابي والمناصب الوزارية بين مختلف الطوائف والمذاهب.

مع مرور الوقت وتفاوت النموّ السكاني بين المسلمين والمسيحيين، بات الدستور هو الأساس المثالي للتعايش، والعنصر الذي يحفظ توازن الدولة ويمنعها من الانجراف المنهجي باتجاه الحرب. والأمر لا يتعلق بالقدرة على العيش معًا بل بالإرادة لتحقيق ذلك، فالمشكلة لا تكمن في تكوين الدستور بل في حماقة الأفراد الذين يعتقدون أنّهم فوقه.

للأسف، إن العقلية السياسية المستمرة حتّى اليوم ليست قائمة على الرغبة في التعايش، لا بل إن دوافعها لا تزال تنبع من المصالح الذاتية الضيقة. خلال سنوات الحرب في لبنان، كان العالم بمثابة كيانات متباينة وعناصر معزولة يمكن التأثير في كل منها بمعزل عن أيّ تبعات شاملة.

على سبيل المثال، إذا نظرنا إلى الأحداث التي بدأت عام 1917 مع وعد بلفور الذي منح اليهود الحق بإنشاء دولة إسرائيل في فلسطين، سنلاحظ كيف أنّ ذلك الخيار يستمرّ في التأثير على تاريخ العالم حتّى اليوم مع بروز الإرهاب وانتشاره.

مثالٌ آخر عن التحرّك السياسي القائم على المنفعة: الحرب الأخيرة التي قادتها الولايات المتحدة ضدّ العراق. فسلسلة الأحداث التي انطلقت منها أسهمت في تغيير المستقبل، أمّا فكرة التدخّل العسكري القابل للاحتواء فهي مغالطة كبيرة تنبثق من الفكرة الخاطئة والشائعة عن تأثير أعمال العنف والنتائج المترتبة عليها على المدى الطويل. فعلى المستوى الإنساني، من الإنصاف القول إنّه لا أحد يفوز في الحرب وسيبقى الأمر كذلك إلى الأبد.

إنّ الصورة السائدة عن الفوضى والمعاناة البشرية هي من إنتاج الصراع المسلّح. فهذه الأنواع من أعمال التدمير الانتهازية تخلّف دائمًا جروحًا عميقة لدرجة يصعب معها أن تندمل. جروحٌ تصبح مآسيَ دائمة التجدّد قائمة على الحاجة للثأر والانتقام، تسهم بتأجيج الكراهية لأجيال عدّة إلّا إذا كُسِرت الحلقة بواسطة تصميمٍ حقيقي على وضع حدّ للمعاناة ومواجهة الكراهية بالتسامح.

لنتراجع عمّا فعلناه
ولنمحُ ما رأيناه
لا مكان للاختباء
لا شيء سوى الانزلاق إلى خضمّ الارتباك
حيث يحاكي العقل الوهم
حياتنا قاتمة
وُلدتُ في الظلام
لا أذكر المكان الذي جئت منه
قبل سقوطي على الشاطئ.

مقطع من «لا مكان للاختباء».

2

عند اندلاع الحرب توقّفت عن ارتياد المدرسة ولازمت البيت طوال عام كامل، بينما كانت القذائف المدفعية والصواريخ تمرّ فوق رؤوسنا. أقمنا في شقة في الطابق الأخير من بناية معرّضة للنيران. اختارت والدتي هذه الشقة بالذات لأنّها أُعجِبت بشرفتها الواسعة المطلّة على منظر ساحر للجبال شرقًا ولبيروت غربًا، إلّا أنّه غاب عنها أنّ من شأن ذلك المنظر الجميل أن يزيد تعرّضنا للخطر وسط التبادل الدائم لإطلاق النار بين الفصائل المتحاربة.

غالبًا ما كنت أرى في الشارع رجالًا مقنّعين يلوّحون ببنادقهم ويحتمون بظلال المبنى وهم يخوضون معاركهم في شارعنا، وفي أحد الأيام، بالغت في الانحناء من الشرفة فلمحني رجل منهم وسارع إلى إطلاق رشق من بندقيّته باتجاهي. أزّت الرصاصات بالقرب من أذني فتراجعتُ بسرعة، بينما هرع والدي إلى الشرفة مطلقًا وابلًا من الشتائم على الرجل الذي تابع إطلاق النار باتجاهنا قبل أن يلوذ بالفرار مستنتجًا أنّ والدي مجنون تمامًا. فوالدي لم يكن يعرف الخوف أبدًا، في ما يتعلق بهذه المواقف. كان يفتقد أيَّ حسٍّ بالخطر. هكذا، وجد ضالّته في أرض

المعركة. وُلد قائدًا وتفتّحت مواهبه في ظلّ الأزمة. في تلك الأيام، كانت المهارات القيادية هي الشرط الأساسي للبقاء. منحت الحرب والدي وسيلة لإثبات قدراته الشخصية بحسب قول شكسبير: «يولد البعض عظماء ويبلغ البعض العظمة، أمّا بعضهم فتُفرض عليهم العظمة بالقوة». جدّي بلغ العظمة، أمّا والدي، ففُرضت عليه بالقوة.

مع ذلك، تطلّب هذا التحوّل الجذري في أسلوب الحياة تعديلًا على كافة المستويات وكان له الأثر الكبير على حياتنا. فقد تحوّلت عائلتي إلى ملكية عامة وباتت محلّ حبّ أو كراهية. كان والدي محبوبًا أو مكروهًا، وبما أنني أحمل اسمه، كنت عرضة للتحيّز نفسه أينما كنت، ولا يزال الوضع على حاله حتّى هذا اليوم؛ فبعض الأشخاص قد يضحّون بحياتهم من أجله، هو وجدّي، فيما البعض الآخر مستعدٌّ لقتلهما بكل سرور.

في أحد الأيام، مع بداية القتال، سئم والدي من طلباتي المتكررة لمرافقته خلال جولته ووافق على اصطحابي معه. كانت منطقة «عين الرمانة» المسيحية قد شهدت خلال الليلة السابقة بعض التوترات. قفز والدي داخل دبابة وتبعته. سلكنا بعض الشوارع الجانبية باتجاه خط النار، أراد والدي الاطمئنان على رجاله المرابطين خلف متراس على الخط الأخضر. سلكت الدبابة زقاقًا ثم قفز والدي منها وطلب مني أن أبقى بالقرب منه، لم أتردّد لحظة واحدة، تبعته في كل حركة، لدى تقدّمه ملتصقًا بالجدار ولدى زحفه على بطنه. لا أزال أذكر كيف كان يبتسم بعصبية وقلق متسائلًا إن كنت أجيد التعامل مع الموقف، بادرته بابتسامة على الرغم من عجزي عن إرخاء عضلات فكّي، سمعنا بعض الرشقات النارية فوق رؤوسنا فأغمضت عينيَّ لجزء من الثانية متوقّعةً أن تصيبني رصاصة. وأخيرًا بلغنا الخنادق وفوجئنا بالروح المعنوية المرتفعة لدى الرجال. كانت تلك بيئة ذكورية بامتياز، أربكتني

وأشعرتني بالصِّغَر. كانت الغرفة فارغة ومظلمة تحيط بها أكياس الرمل التي تضفي عليها جوًا من الغبار. صناديق الذخيرة استُعملت كمقاعد وطاولات، والبطانيات القديمة ملقاة على الأرض إلى جانب بقايا السندويتشات. كانت رائحة البارود والخرطوش تعبق في أرجاء المكان وتنشر رائحة معدن مميّزة، بينما تتغلغل أشعّة الشمس الساطعة من خلال ثغرات بين الأكياس لتضفي على الغرفة جوًّا من السكون. كان واضحًا أنّه مكان مخصّص للرصد والاستطلاع. اقتربت واسترقت النظر من خلال أحد الشقوق فرأيت شارعًا مقفرًا قاحلًا وغير ودّي الملامح: إسفلتٌ رماديٌ ذاب من شدة الحرارة، وأضواء إشارة مرورٍ تشير إلى الانقسام بين القطاعين المتحاربين بإيقاع ألوانها الذي ينتقل من الأخضر إلى البرتقالي ثم الأحمر مرة تلو مرة تلو مرة...

مُثقَلًا بالخوف المبطَّن، بدا الهواء ثقيلًا ومحمّلًا بسكونٍ غير مريح... فجأة، دوّى انفجار عنيف تلته أصوات ارتداد رشقات رصاص على أكياس الرمل المحيطة بنا. قفزتُ إلى الخلف مبتعدة عن نقطة المراقبة شاحبة اللون، فيما صرخ والدي مؤنبًا إيّاه لاقترابي من الجدار الخارجي.

بعد ذلك الحادث، رأى والدي أنّ من الحكمة أن يعيدني إلى المنزل قبل أن أزجّ نفسي في المزيد من المشاكل، ثم ركّب في المنزل جهازًا لاسلكيًّا وسلّمني مسؤولية تشغيله. أظن أنّها كانت وسيلة لإبقائي مشغولة في مكان آمن. كانت مهمتي تقضي بتسليم رسائل من والدي إلى جدّي وبالتواصل مع قادة الميليشيا حول مكان وجودهم، فكافة السيارات مجهّزة بمعدات لاسلكية لكن الهاتف الخلوي لم يكن متوفرًا حينذاك، وبات كل فرد معروفًا باسمه المشفّر: كوجاك، 007 وحسان وغيرها... أمّا اسمي المستعار فكان «أمّ الذهب»، كنيةٌ اكتسبتها بسبب شعري الأشقر.

في ذلك الوقت، بدت أحيانًا التغييرات التي طرأت على حياتي مذهلة لدرجة لا تصدّق. كان من الصعب التعامل مع بروز الفصائل المختلفة التي قسّمت البلاد، وكنت صغيرة جدًّا لأدرك حقيقة الانعكاسات السياسية للوضع. كان اهتمامي منصبًّا على التأقلم مع التغييرات التي عليَّ القيام بها بسبب اندلاع العنف في حياتي اليومية. الحقيقة هي أنّ معظم أصدقائي من الرجال حملوا السلاح والكثير منهم قُتلوا. كنت أقضي أيامي منهمكة بالاعتناء بالإصابات. بدا كأنّ أبواب الجحيم فُتحت على مصاريعها، وباتت المشاهد الوحشية مألوفة لدرجة تشوّهت معها حواسنا وتمّت معها إعادة تكوين مستويات احتمالنا للمعاناة والألم. تحوّل بعض الأصدقاء، من المراهقين أمثالي، إلى قنّاصة، وباتوا يخرجون من منازلهم وهم يحملون بنادق طويلة المدى لقتل أحد المارّة التعساء الذي شاء حظّه العاثر أن يكون مارًّا من الجانب الخطأ لخط التماس. كانت الحال هي نفسها من الجانب الآخر. كنا نجلس في المنزل، متوتّرين، مترقّبين نجاحهم في إتمام مهمّاتهم. حين أفكّر في مدى قسوتنا في حينها، لا يسعني سوى وصفها بالبشعة.

كانت عمليات القتل العشوائي على الهوية مستشرية على حواجز الطرق. كان المسلحون من كافة الأطراف يوقفون السيارات للتدقيق في هويّات الركّاب ومعرفة دينهم، وإن لم تكن على هواهم، يُخطف الركّاب أو يُقتلون. في فترة ما، أوقف بعض عناصرنا وليد جنبلاط، نجل الزعيم الدرزي، وسجنوه في قفص. أرادوا قتله، كانت ردّة فعل والدي عنيفة إذ تدخّل شخصيًّا وأطلق سراحه. عزّزت هذه الحادثة الصداقة الفريدة التي ظلّت تربط بينهما طوال عقودٍ من الحرب وأسهمت في عدّة مناسبات في التخفيف من حدة العنف، كما أمّنت دائمًا بابًا للمصالحة.

كان لسلوك والدي قيمته يومها، كما في أغلب الأحيان حين كان يختار السلام بدل العنف، وذلك ما ميّزه عن غيره في تلك الحرب الوحشية. ولكن، مع تقدّم الحرب، حتّى هو لم يَسلَم من التأثيرات اللاإنسانية لكلّ ذلك القتل.

تميّزت الأيام الأولى للحرب بقصف متواصل عبر المدينة، كان يطال المناطق المكتظة بالسكان. في إحدى الليالي، وخلال اختبائي في الردهة، أحصيت زهاء 3 آلاف قذيفة صاروخية. أصبحت خبيرة في تحديد الفرق بين القذائف الصادرة وتلك الواردة بمجرد الاستماع إلى صوت أزيزها المشؤوم خلال عبورها سماء المنطقة.

في الجولة الرابعة من الاقتتال، أطلق أبو حسن، أحد قادة منظمة التحرير الفلسطينية والمسؤول عن مجزرة ميونيخ التي قُتل فيها الرياضيون الإسرائيليون، أول قذيفة باتجاه شقتنا. كانت بمثابة رسالة شخصية موجّهة إلى والدي، تبعها اتصال هاتفي. مرّت القذيفة أمام أنف جدّتي التي كانت على الشرفة تلوّح بيدها لوالدتي ولي ونحن على الطريق في أسفل المبنى، إثر عودتنا من جولة تبضّع، ثم أصابت المبنى المحاذي الذي تقطنه أعزّ صديقة لي. تلك الحادثة جعلتني أدرك أنّ هذه الحرب، بسبب تورّط عائلتي المباشر بالسياسة والقتال، شخصية جدًّا على أكثر من مستوى. على مرّ السنين، أدركت هذه الحقيقة التي كلّفتني غاليًا.

لدى بلوغي سن الخامسة عشرة، خضعت لدورة تدريب عسكري لأنّني شعرت بالحاجة إلى حمايتنا، أمّي وأنا، فقد كنا وحدنا في المنزل. والدي كان دائمًا على الجبهة، ولم نكن نعرف أبدًا إن كان سيعود.

أقيم معسكر تدريب «النمور» في تلالٍ تشرف على البحر الأبيض المتوسط، المسالم بزرقته وصفائه. تابعت دورة مدتها عشرة أيام برفقة

فتاتين وأكثر من مئة رجل. كنا نعيش كالحيوانات ولم نكن نحظى سوى بقدر قليل من الطعام أو المياه العذبة. بصراحة، كانت تجربة رهيبة ولكنّني تعلّمت خلالها كيف أفكّك رشاشًا وأنزع صاعق قنبلة يدوية وأعيده إلى مكانه من دون أن أُصاب بالهلع. في النهاية، جرى استهدافنا في ثلاث شقق سكنّاها، وعشنا لسنوات طويلة كلاجئتين في منازل مهجورة ومؤقتة من دون كهرباء، إلى أن استقررنا أخيرًا شماليّ بيروت في منطقة جونيه ذات الغالبية المسيحية حيث استأنفت دراستي.

شابت ذكرياتي المدرسية صورٌ مشوّهة لأولادٍ يفاخرون بعرض غنائم حربٍ على غرار أشلاء صاروخ ورصاص وحتى أذن مقطوعة في بعض الأحيان. كان يتعيّن عليّ التعايش مع ذلك التوقف اليومي لحافلة المدرسة ليتمكّن الجميع من مشاهدة آخر الجثث المتفحّمة الملقاة على جانب الطريق.

في تلك الفترة، ركّزت الميليشيات المسيحية نشاط قواتها المسلّحة على مهمّة إزالة مخيميّ «تل الزعتر» و«الكرنتينا» للاجئين الفلسطينيين، من خلال حصار عنيف أودى بحياة 3500 شخص تقريبًا. كطفلة، سمعت قصصًا رهيبة، ولكن في تلك الأيام، لم تدخل الشفقة إلى قلبي. في تلك الأيام، كنت رهينة الالتباس الذي تخلقه الحرب حيث العدو هو الشرير، وكان لديَّ إيمان أعمى بذلك. الانتقام وتحقيق المزيد من الانتصارات كانا بمثابة حمّى مستشرية.

لم أكن أشارك في الاقتتال الدائر ولكن، في المقابل، عملت في المستشفى في جونية حيث كان يُنقل معظم الجرحى المسيحيين. في معركة «تل الزعتر»، قُتل صديق عزيز لي، اسمه فريدي، صديق آخر، جورج، فقد ساقه خلال المواجهات. كان كلاهما من العناصر الأساسية في النمور، شاركا في الحرب منذ البداية جنبًا إلى جنب مع والدي.

جداول من الدماء كانت تنساب في ممرات المستشفى، وجثثٌ ملقاة في كل الأرجاء. أمام عجز المستشفى عن تلبية الطلب على الغرف، نُصبت أسرّة مؤقّتة في الممرات، وسط نحيب الرجال والنساء والأطفال وعويلهم.. كانوا خائفين، يعتصرهم الألم. بعضهم كان وحيدًا والبعض الآخر محاطًا بأفراد عائلته الذين يفاقمون من حالة الهلع. كانت الأيام تمرّ، ولا يبدو معها أيّ تحسّن، بل بالعكس، كان الوضع يزداد سوءًا. كنت أزور الجرحى وعائلات الضحايا برفقة والدتي.

عند انتهاء الاقتتال في المخيمات، نجحت أنا وأعز صديقة لي في إقناع والدتينا باصطحابنا في جولة للاطّلاع على ما خلّفته المجازر هناك. كان الموت في كلّ مكان. في تلك المرحلة، كنت قد أصبحتُ قادرة على تمييز رائحة الجثث المتعفّنة. بينما كنت أتجوّل بين الأنقاض، طالعتني جثة متفحمة لرجل، تحوّل لون لحمه إلى اللون البني. كان يلمع تحت أشعة الشمس وكأنّه طين ينصهر في الأرض. حدّقت في وجهه، وفجأة، أدركت في قرارة نفسي أنّ شيئًا ما فيَّ انكسر إلى الأبد: ها أنا ذا، واقفة أمام الموت، وقادرة على التحديق به بحيادية وبرود، وكأنّ الروح التي قضت لا تساوي شيئًا. حين أذكر تلك اللحظات، أدرك أنّ شيئًا ما فيَّ مات في ذلك اليوم.

تابعنا جولتنا بزيارة المقبرة حيث استُخدِمَت المدافن مكبًّا تُرمى فيه الجثث وكأنّها نفايات. كانت رائحة كريهة تنبعث منها، مزيج خانق من الحلاوة والعفونة في آن، مثير للغثيان. تنشّقت ثم أمسكت بقميصي ورفعته لتغطية أنفي وفمي. وتساءلت: لمَ عساي أقوم بذلك؟ لم أهتدِ للإجابة، لكنّني رصدتُ في نفسي نوعًا من الاندفاع الذي لا يُقاوَم، ورغبة دفينة في أن أكون شجاعة. لحق بنا بعض الشباب للمشاركة في ما بدا

كأنّه لعبة شائعة في تلك الأرجاء، كانوا يهتفون متحدّين بعضهم بعضًا لمعرفة من يجرؤ منهم على فتح باب المدخل لإلقاء نظرة على الداخل.

وحين رفع أحدهم التحدي وفتح الباب، هبّت بوجوهنا رائحة أكثر نتانة. تراجعتُ إلى الخلف، ولكن، مدفوعةً بصراخ الأولاد الذين فرّوا هاربين من الذعر، انحنيت ونظرت إلى الداخل. كانت عشرات الجثث مكدّسة بعضها فوق بعض، ومن هنا وهناك أشلاء تتدّلى: أذرع وسيقان ورؤوس وأجساد مقطّعة الأوصال ومشوّهة.

كان غاندي من قال «العين بالعين ويصبح العالم كله أعمى». تلك العبارة كانت أصدق وصف للحالة التي كنا عليها في تلك الأيام. فالعنف يوّلد مزيدًا من العنف وبالتالي، كان التصعيد مستمرًا، وكانت كلّ غارة وكل عملية ثأر تغذّيان الدورة الجهنّمية لحلقة مفرغة ظلّ الوطن يدور في رحاها لحوالي عقدين من الزمن.

جاء الهجوم الكبير التالي من الفلسطينيين. مجدّدًا، كان الرّد شخصيًّا وموجّهًا هذه المرّة نحو منزل جدّي وقرية الدامور المحيطة به جنوبيَّ بيروت. خلال العملية، نهبوا القرية، قتلوا حوالى 150 شخصًا وطردوا الباقين. ضُرب الحصار حول قصر جدّي الجميل حيث ظلّ محتجزًا مع والدي لمدة عشرة أيام برفقة بعض من لجأوا إليه من أبناء القرية. أزهقت هذه المعركة عددًا كبيرًا من أرواح رجالنا، وفي النهاية، هرب جدّي ووالدي في زورق صغير عند منتصف الليل، بينما دخل المقاتلون الفلسطينيون إلى منزلنا وسرقوا جميع الممتلكات الغالية التي جمعها جدّي خلال حياته ومن ضمنها لوحات لجدتي الحبيبة الراحلة ومجموعة من بنادق الصيد التي لا تقدَّر بثمن، والتي انتهى بها الأمر بعد عدّة سنوات من ذلك في مكتب ياسر عرفات في فلسطين.

بالنسبة لي، كان أسوأ ما في الأمر أنّ البهجة والفرح قد اجتُثّا من المنزل العائلي إلى غير رجعة. مكانهما، حلّت أرضٌ محروقة تشهد على الأعمال الوحشية التي مورست في ذلك المكان الهانئ من طفولتي.. عرفت حينها أنّ الأمور لن تعود إلى ما كانت عليه أبـدًا، وأنّ عملية تفتيت أوصال عائلتي وإرثي قد بدأت فعليًا. لم تعد الحرب مجرّد مرحلة ستنقضي، فالضّرر الذي خلّفته كان يحمل نفحة الضّرر الأبدي.

كان مهجَّرو الدامور يصبّون عندي في النهاية. كنت أستقبلهم في مرفأ مدينة جونية المسيحية. هناك، كانوا يتدفّقون وهم في حالةٍ من البؤس والارتباك جرّاء الصدمة. حتّى إنّي طلبت من إدارة مدرستي مساعدتنا في نقل هـؤلاء المنكوبين الى الدير حيث يمكننا توزيع الطعام والمؤن عليهم. مجدّدًا، شعرت بأن مأساتهم مرتبطة بعائلتي ارتباطًا وثيقًا.

بحلول عام 1976، حاول أحمد الخطيب، الضابط المسلم، تنفيذ انقلاب بانشقاقه عن الجيش برفقة 2000 جندي مسلم، في حركة أطلق عليها الانقلاب الأبيض، ونتج عنها قيام «جيش لبنان العربي»، إلّا أنّ المؤسسة لم تنهَر.

شكّلت هذه الأحـداث نقطة تحوّل جـذري على مستوى علاقات سوريا بلبنان. فجأة، وبموافقة الـولايـات المتحدة ومباركة الرئيس اللبناني سليمان فرنجية، نقل الرئيس السوري حافظ الأسد بندقيته من كتفٍ إلى الكتف الأخرى. فبعد أن كان، حتّى تلك اللحظة، يساند القوميين العرب اليساريين ومنظمة التحرير الفلسطينية، عن طريق قصف القطاع المسيحي بالمدفعية الثقيلة والقصف العشوائي، انقلب لتأييد الطرف الآخر. وفي 31 أيار/مايو 1976، دخل جيشه إلى لبنان إلى جانب المسيحيين، محوّلًا لبنان فعليًا إلى محمية سورية.

بسرعة فائقة، تفوّق السوريون على حلفائهم السابقين من اشتراكيين وفلسطينيين، إلّا أنّ ذلك التفوّق كان بداية صراع طويل الأمد، من نوع جديد، يستهدف المصالح السورية وسيطرة النظام السوري على البلاد.

فحافظ الأسد لطالما آمن بتلك النظرية السورية القائلة بأنّ إنشاء لبنان واستقلاله كانا مجرّد تحريف ناتج عن الانتداب الفرنسي واتفاقية «سايكس بيكو» التي قسّمت المنطقة عشوائيًّا إلى محميتَين، إحداهما بريطانية والثانية فرنسية. كان لديه تصوّر مختلف عن لبنان يستند إلى اعتباره جزءًا لا يتجزّأ من «الهلال الخصيب» الذي يمتدّ جغرافيًّا من جبال طوروس شمالًا إلى نهر الفرات شرقًا والصحراء العربية جنوبًا والبحر الأبيض المتوسط غربًا.

حين بلغت السادسة عشرة، كانت مشاعر المرارة والحقد قد تملّكت منّي. مشاعر تفاقمت في أعقاب حادثة تعرّضت لها والدة أعز صديقة لي وهي في طريق عودتها من حفل عشاء، إذ أطلق بعض العناصر الميليشيوية المتمركزة على حاجز تفتيش طيّار، النار على سيارتها، فأصيبت بجرح بالغ تسبّب لها بشلل نصفي. كانت تلك صدمة فظيعة بالنسبة إليّ. أرهقني الشعور بمدى عبثية الحياة، وتملّكني شعور مفعم بالغضب: كيف يمكن التوفيق بين فكرتَي وجود الله، بعظمته الكلّية، ووجود هذا الكمّ الكبير من الألم والعذاب وانعدام الضمير. تمرّدت على الفكرة بكل جوارحي. لم أكن قد استوعبت بعد، وأنا أواجه تجلّيات طبيعة البشر المدمّرة، الدور الخطير لحرية الإرادة التي نتمتع بها. فهي سيف ذو حدين، يمتلك قدرة تحويل حياتنا إلى جحيم أو إلى جنة على الأرض. كنت ألوم عالمًا كفر بالله على المآسي التي أشهد يوميًّا عليها.

خلال تلك الحقبة المفعمة بالحيرة الوجودية، صُقلَت شخصيتي، ونشأتُ على فكرة أن أكون دائمًا من الناجين بأيّ ثمن. تكاتف الفلسطينيون والسوريون والشيوعيون والدروز والمنظمات السياسية الموالية للعروبة وتكتلوا ليشكلوا إعصارًا هدّد نمط عيشنا، وأجبرنا على التقهقر مسلحين بعتادنا ومعتقداتنا.

بينما كان السياسيون يمارسون ألاعيبهم القذرة، كان الموت ذاته يفتك بالمقاتلين الشبان من الطرفين، ليحصد كلّ يوم المزيد من الأزواج والأبناء والإخوة. هؤلاء قضوا في سُعار الخوف والكراهية، مدافعين عن معتقدات لم تكن سوى سراب: معتقدات وولاءات كانت تتبدّل حتّى قبل أن تبرد جثثهم. قضوا بشجاعة، افترسهم موتٌ مجّاني ومحزن...

أمّا من نجا، مثلنا، من الموت الجسدي، فقد فتك به موتٌ أشدّ ضراوة: موت الروح، ذلك الموت الخبيث الذي يسمّم الحياة بدل أن يزهقها... وكأننا آلاتٌ جُهّزت بغريزة البقاء، استمررنا مندفعين بتغذية جنون من صنع أيدينا. تصاعدت الحرب وابتلعت بدمارها البلد الصغير والعاجز.

لطّخت بصمات القتل الجماعي المتَعَمَّد أبنية الأحياء من الجهتين، واحدًا تلو الآخر. هشّمت الشظايا واجهاتها مخلّفةً آثار الموت في كلّ شارع. وعاش المواطنون في خيم وفي بيوت محروقة لا تصلها الكهرباء ولا الماء وتفتقر للبنية الأساسيةً من صرف صحّي وغيره. كان البلد يتوغّل أكثر فأكثر في أعماق بحرٍ من الظلمات. عشّشت الحرب بيننا وفينا، وكنّا نعمل على إنهائها ونغذّيها في الوقت ذاته. فكيف كان لتلك الحلقة المفرغة أن تنتهي؟

استغرقت الحرب 16 عامًا لتفضي في النهاية إلى تسوية مؤقتة وهشّة. 16 عامًا عاثت فيها خرابًا في الأرواح، إذ أنتجت جيلًا من محترفي الحرب الذين يجدون ازدهار مصالحهم في الفوضى، فيحرصون على نشرها.

بفضل الميليشيات المنتمية إلى كافة الأطراف، تحوّل عنف الهواة العَرَضي إلى جريمةٍ منظّمة، وأصبحت الاغتيالات بين المجموعات المتنافسة، ومحاولات الاستيلاء الوحشي على السلطة في الجانب الواحد، وأحيانًا ضمن إطار العائلة نفسها، بمثابة ممارسات يومية لفئة جديدة من القادة، جمعوا مكاسبهم السياسية التافهة من خلال تضليل الآخرين وتسخيرهم لدعم قضاياهم الشخصية ومُثُلهم الخاصة المتحجّرة. وبات التهريب والابتزاز والتخريب كلها سمات مجتمع يعيد توزيع ثرواته على طبقة جديدة من الانتهازيين، بينما رحل بعض أصحاب الثروات القديمة وأبناء الطبقة المثقّفة من البلاد، بعدما فقد ثروته العائلية لمصلحة المحتلّين واللصوص.

شكّلت عائلتي، على طريقتها، رمزًا لجميع خسائر الحرب ومكاسبها. فقد دُمّر بيت جدّي إلّا أنّ مكانته كقائد مخضرم وسط الصراع الفوضوي الدائر تعزّزت.

فقدنا جميع ممتلكاتنا الدنيوية لمصلحة النيران التي ابتلعتها وأيادي عناصر الميليشيات أو مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية التي نهبتها، وعشنا أشبه باللاجئين أينما حللنا، إلّا أنّ والدي ظلّ بين الرجال مَلِكًا لا يُرفض له طلب. في صميم نفسي، كنتُ أعرف أنّ الحياة لا يمكن أن تكون مقتصرة على هذا. فهنا، لم أكن قادرة على تخيّل أيّ مستقبلٍ لي. كنت أعيش من دون غد، رغم أنّ حياتي كانت كلّها لا تزال «أمامي». إذ ذاك أدركت، في أعماقي، أنّه يتعيّن علي أن أرحل حتّى يتسنّى لي العيش. كان عليّ أن أحكم على نفسي بالمنفى الاختياري. ولكنّ ما لم أكن أعيه في حينها، هو أنّ ذلك المنفى سيكون عنوان الجزء الأكبر من قصة حياتي.

لم تكن رغبتي في الرحيل وترك عائلتي وبيتي ناتجة يومًا عن الخوف من الموت، بل إنّها كانت وليدة الحاجة إلى العيش بطريقة مختلفة،

بعيدًا عن الجنون المستعر الذي أعجز عن السيطرة عليه. كانت وليدة خيار قمت به وهدفه استكشاف طريقة أخرى للعيش في العالم، طريقة متفلّتة من الأحكام المسبقة والعنف المجّاني والكراهية المستشرية. ما زلت أذكر بوضوح ذلك اليوم الذي أعلنت فيه خياري هذا، كنت بالكاد قد أتممت السادسة عشرة من عمري.

كان يومًا مشمسًا خلال إحدى الهدنات، وكنت مسترخية على شرفة بيتنا البحري شماليّ العاصمة، بين ميناء جونية المسيحي وميناء جبيل التاريخي العريق، في قرية «الصفرا»، الآمنة نسبيًّا، التي يعتاش سكّانها من صيد الأسماك.

لا أعلم من أين نبع فجأة إحساسي بأنّ عليّ أن أرحل. لم أكن قد خطّطت له. صعقني من دون سابق إنذار، واستقرّ في الواجهة وكأنّه كان هناك منذ الأزل.

توجّهت أولًا إلى أمّي وأبلغتها أنّني أريد متابعة دراستي في الخارج، وأنني أفضّل بريطانيا على غيرها في هذا الإطار.

ينبع تعلقي ببريطانيا من قصة لقاء والديّ وزواجهما هناك. ثم إنّ دراستي في لبنان، إلى ذلك الحين، كانت متقطعة وغير مرضية. شرحت لها أنني أشعر بالتعاسة في هذه البيئة. لدهشتي، وافقت والدتي على جميع الطلبات وأكّدت لي أنّها ستدافع عنها أمام والدي. وتلك قصة أخرى... ففي البداية، رفض والدي مناقشة الفكرة من أساسها. أبلغها بضرورة أن أبقى قريبة منه، وأنني سأكون بعيدة جدًّا هناك. كانت رغبته في أن أبقى معه في المنزل واضحة جدًّا بالنسبة لي، لكنّه في النهاية، بعد مناقشة الموضوع مع جدّي الذي لم يتقبّل، بدوره، الفكرة في البداية، عاد ووافق على رحيلي.

من جهتي، أنا ابنة السادسة عشرة، كانت تلك بداية مسار طويل من الرحيل المتكرّر عن الأحبّاء. كانت بداية حياة مشتَّتة بين القارات، بين وطني الأمّ والبلدان التي أقمت فيها في أوروبا ولاحقًا في أميركا. لا أدري إن كان الخيار الذي اتخذته في ذلك اليوم المشؤوم بالانفصال عن لبنان هو الصحيح، لا أعرف حتّى إن كان المرء يملك حرية الخيار أم أنّ تلك القرارات تُتّخذ على مستوى مختلف تمامًا. ما أعرفه هو أنّه بدا، في حينها، الخيار الصحيح. كان عليّ أن أرحل لأبقى على قيد الحياة أو على الأقلّ لأحافظ على ما بقي لي من كيان.

منذ تلك اللحظة وأنا أتساءل عن معنى «الوطن». بالنسبة للكثيرين منا، الوطن هو مسقط الرأس، وبالنسبة لآخرين، الوطن هو المكان الذي نبني فيه حيواتنا مع أسَرنا. بالنسبة لي، ولوقت طويل، كان الوطن يمثّل مساحة من الحنين إلى الماضي، أو ربّما حتّى من العودة إلى البراءة، ولذلك، لطالما كان وهميًّا ومستحيل التحقق.

حتّى اليوم، لا تزال العودة إلى الوراء مستحيلة. وحين أنظر اليوم إلى لبنان، أشعر بأنه لم يعد كما كان، لكنّه لا يزال كما هو في النهاية. لم يتغيّر ولكنّه يبدو مختلفًا تمامًا. الحقيقة أنّ من تغيّر هو أنا.

لدى صعودي إلى متن السفينة الصغيرة التي أقلّتني إلى قبرص، في رحلة استغرقت تسع ساعات، لم تراودني أيّ من هذه الأسئلة، لا بل على العكس، كنت مفعمة بالحماسة لأنّني سأخرج أخيرًا مما أصبح أشبه بالسجن. كنت أتوق للعيش المتحضّر. وما إن حطّت الطائرة التي استقللناها أمّي وأنا في لندن حتّى غمرني الشعور بضخامة المدينة وبواقع أنّها، مع ذلك، منتظمة. فثمّة احترام لإشارات المرور، والتيّار الكهربائي متوفّر، والماء الساخن متاح من الصنبور، والناس يستعملون وسائل النقل العام، والأفضل من كل هذا هو أنّ محالّ البقالة تزخر بالمواد الطازجة.

كانت قد مضت فترة طويلة لم أرَ فيها هذه المرافق، وأدركت الثمن الذي كنت أدفعه لكوني أعيش في لبنان. غير أنّ لكلّ شيء ثمنه، وبالنسبة لي، كان ثمن العيش في مكان متحضّر هو ما فرضه من مسافة بيني وبين عائلتي ووطني.

لم يكن من السهل أبدًا الانتقال إلى لندن، حيث عشت وحيدة في غرفة صغيرة مؤجّرة في منزل أشخاص آخرين. بدأت بارتياد مدرسة تدرّس بلغة لم أكن أجيدها، لا قراءة ولا كتابة، إذ إنّني كنت، حتّى ذلك الحين، قد تلقّيت دراستي باللغتين الفرنسية والعربية. شعرتُ بالوحدة وكافحت لكسب بعض الأصدقاء. فالدم الذي يجري في عروقي كان لا يزال زاخرًا بالشغف المُستمَدّ من تاريخي وبلدي. لفترة طويلة، كان من الصعب عليّ أن أتحدّث عن أي شيء آخر لأنّ الأحداث التي سبقت تلك المرحلة من حياتي طبعتني في الصميم. وبالنتيجة، لم يكن لديّ سوى عدد محدود من الأصدقاء من أولئك الذين لمحوا آثار الرعب الذي لا يزال كامنًا في عينيّ.

وبالنظر إلى سنوات مراهقتي، أشعر كأنّني كنت نمرًا مأسورًا في قفص، محاصرًا في حدود عالمه السريالي وغير قادر على الفرار. كنت قد تلفت منذ أن أُطلقَت الرصاصة الأولى. كنّا كلّنا، كأمّة، كذلك... كان كلّ ما عشته سابقًا يحول بيني وبين المجتمع المتحضّر الذي أحاول التأقلم فيه. كان يعزلني عنه بشكلٍ ما، ويحوّلني إلى منبوذة إلى الأبد. وذلك شعور ظلّ يلازمني طيلة حياتي. فثمّة جزء منّي يستحيل أن أتشاركه مع أحد. أعتقد أنّ معظم المحاربين القدامى يشعرون بذلك. حتّى إنه أصبح هناك اسم علميّ لتلك الحالة اليوم، إذ يطلقون عليها تسمية «اضطراب الكرب ما بعد الصدمة» (PTSD). ولكن في تلك الأيام، لم يكن ما أشعر به يحمل أيّ اسم. كان مجرّد انزعاج وجودي أجاد التعبير عنه بعض

الكتّاب، على غرار سارتر وكامو، وهم يخرجون من جنون الحرب العالمية الثانية ويحاولون استعادة حيواتهم المشظّاة والسريالية. ذانك الكاتبان كانا أفضل من عبّر عن الشرخ القائم بين ما هو دنيوي وما ينتج عن اختبار الرعب الذي يتخطّى كلّ ما هو متعارَف عليه.

ثمّة مستوى من الألم لا يمكن مشاركته مع من لم يختبره. لا أتحدث هنا عن ألم الفَقد فحسب، بل عن اختبار الجانب الأكثر ظلمة من قلوب البشر، والأكثر خِسّة من أفعالهم، ذلك الاختبار الذي لا رجوع من أوحاله. أتحدّث عن ألم من شَهِدَ على انتهاك حدود اللاإنسانية، تلك الحدود التي تشكّل نقطة اللاعودة بالنسبة لمن تجاوزها. أتحدّث عن ألمٍ تخلّفه كثرة التبصّر في حتمية مصائرنا وعبثية حيواتنا حين تكون الغزوات والحروب هي من تقودها.

لسنوات، جرّد ذلك الإدراك الحياة من معناها بالنسبة لي. ظلّلني خيال قاتم رافقني أينما حللت ومنعني، في لاوعيي، من معانقة كلّ بهجة العالم من حولي ومرحه. كنت أسيرة ما أعرفه. وعندما حان الوقت المناسب، شكّل هذا الإدراك أساس قوتي وضعفي في آن واحد، كما كان منبع أصعب عبرة استخلصتها في حياتي؛ عبرة التغلّب على انعدام الثقة والخوف ولملمة أشلاء نفسي المشتّتة.

وفي هذا السياق، بدا المنفى الطوعي الذي اخترته ضروريًّا بقدر ما شكّل تحديًّا. كان ذلك زمن تعلّم ودرس ونهلٍ، زمنًا يصلح لتصفية الحسابات مع الذات وتوضيح الصراعات المحتدمة في صدري. كانت الحرب لا تزال تعصف بلبنان، وكنت أخوض حياة مزدوجة تمزّقت بسبب ازدواجيتها بين الواقع الذي أعيشه بعيدًا عن وقع القنابل، وسط العالم المتحضّر، والواقع الآخر الذي كنت أنزلق إليه تلقائيًّا بمجرّد عودتي إلى لبنان لقضاء العطلة، الواقع الذي كان يجرفني نحو خَدَر العنف.

عند بلوغي العشرين من العمر، تصادم العالمان اللذان يتنازعانني مجدّدًا. كنت أدرس حينها في جامعة لندن وعدت إلى لبنان لقضاء عطلة الصيف، كما في كلّ عام. سوى أنني هذه المرة عدت لأجد عائلتي وقد استُهدفت مباشرة، في نزاع مسلّحٍ آخَر، نزاع قد يمثّل خيانة عظمى أعادت تشكيل صباي بشكل دراماتيكي.

استنفِر قواك
لا تقبل التخاذل
لا تقبل الاستسلام
لأفكار ومعتقدات
تقمع،
تقتل أحيانًا،
تحتل وتُحزن
تبرّر الحروب وأسيادها الضالين البائسين
الساعين للسيطرة على كنوز بائسة.

مقطع من «الساعون».

3

على الصعيد الإقليمي، بسط الفلسطينيون سيطرتهم على الجنوب، وعلى الرغم من إنشاء إسرائيل «جيش لبنان الجنوبي»، استمرّت هجمات مقاتلي منظمة التحرير ضدّ إسرائيل انطلاقًا من الأراضي اللبنانية من دون انقطاع. من ناحية أخرى، توجّهت الميليشيات المسيحية إلى إسرائيل طلبًا للسلاح بعدما اعتبرت أنّ العالم الغربي أهملها. اغتنمت قيادة مناحيم بيغن الفرصة وسارعت إلى تلبية ذلك الطلب الذي اعتبره بيغن منطلقًا لتحويل مسيحيّي لبنان إلى حلفاء طبيعيين لإسرائيل، فضلًا عن مصلحة إسرائيل في قيام دولة مسيحية شماليّ حدود إسرائيل تكون بمثابة منطقة عازلة لحماية البلاد.

مع مرور الوقت، ازداد نشاط حكومة بيغن وأصبحت متطلّبة أكثر فأكثر. مارس بيغن ضغوطًا جمّة على والدي لرفع مستوى تعاونه معه، وأمام رفض والدي الانصياع لطلبه وإرساله مذكرة يوضح فيها أنّه يتعاون فقط بما لا يتجاوز تعريض استقلال لبنان وسيادته للخطر، أرسل له رسالة مفادها أنّ الإسرائيليين «لا يستسيغون» موقفه هذا. بشكل

عفوّي، ردّ والدي عليه بقوله إنّه لم يسمع هذه العبارة منذ استعملتها الملكة فيكتوريا آخر مرة!

بعد هذه الحادثة، تدهورت علاقات الإسرائيليين مع والدي واتخذت القيادة الإسرائيلية قرار تنصيب بشير الجميل على رأس المجتمع المسيحي. للقيام بذلك، كان لا بدّ من إزاحة والدي من الصورة. كان خيارًا لا رجوع عنه، ومنعطفًا حاسمًا في تحديد مصير بشير، كما أنّه كان شرطًا ضروريًّا في إطار استراتيجية الحرب، إذ كانت إسرائيل تحتاج إلى حليف مسيحي قويّ لدعم الجناح الأيسر من جيشها استعدادًا للغزو المقبل الذي انطلق في العام 1982.

قبل سنوات خلت، في بداية القتال، وفي العام 1976 تحديدًا، كان جدّي قد حاول توحيد صفوف مختلف الفرقاء السياسيين من المسيحيين عبر إنشاء «الجبهة اللبنانية» التي من شأنها احتواؤهم تحت راية واحدة. وبحلول عام 1980، أُلحق بالجبهة جناح عسكري يجمع كافة الميليشيات المنضوية تحت لواء ما سُمّيَ «القوات اللبنانية»، إلّا أنّ هذه الهيكلية لم ترَ النور أبدًا لأنّ بشير، وحزب الكتائب الذي ينتمي إليه، أمسكا بزمام الأمور، وسخّرا ذلك الجناح لخدمة مصالحهما الخاصة، بعدما شهدت المراحل الأولى بعض التجاذبات حول الزعامة بينه وبين والدي داني، لتمتُّع كليهما بشخصية كاريزماتية.

منذ بداية الحرب، أعرب بشير الجميّل، الابن الأصغر لبيار الجميّل، عن رغبة قوية في أن يكون تجسيدًا للبنان الجديد، وأظهر طموحًا منقطع النظير لتحقيق ذلك. تسنّى لي لقاؤه عدّة مرات، ووجدته جريئًا ومندفعًا بطبيعته، شديد التصميم ودائم التأهّب، يخفي خلف عينيه السوداوين الناعمتين تصميمًا صلبًا لرجل يتمتّع برؤية واضحة وبإدراك واثقٍ لمصيره الشخصي. لم يكن شيء ليثنيه عن دأبه، عمل مثابرًا لتحقيق النجاح،

ما زاد من جاذبيته في صفوف المقاتلين المسيحيين الشباب، الذين وجدوا فيه تجسيدًا لأحلامهم في قيام دولة ذات سيادة وفي انبعاث الطائفة المارونية في لبنان من جديد.

أذكر الكثير من الأحاديث العائلية التي كنا نتبادلها حول طاولة العشاء والتي كانت تتناول إمكانية أن يتسلم بشير قيادة القوات اللبنانية. وكان والدي يردّد دائمًا في حينها أنّه لا يرغب في اكتساب اللقب ولا تهمّه السياسة كما لا رغبة لديه في تولي زمام الأمور والضلوع بمركز القيادة. في تلك الفترة تقريبًا، تفاقمت المواجهة بين الفصيلين المسيحيَّين؛ أي «الأحرار»، وهم رجال والدي، و«الكتائب»، أي رجال بشير، وبـدأت الأمـور تخرج عن نطاق السيطرة. في البداية، كانت المواجهات متقطّعة؛ وفي عدّة مناسبات كنت خلالها برفقة والدي، كان رجالنا يُستهدفون فيثور غضبًا ويتّصل فورًا ببشير طالبًا منه ضبط رجاله. ذلك التنافس على زعامة القطاع المسيحي لم يؤدِّ سوى إلى تفاقم التوتر بين الجانبين، ومع مرور الوقت، أفضت تلك العلاقة الشائكة إلى انقطاع التواصل تمامًا.

عام 1980، خلال أسبوع عيد الفصح، شنّت قوات «الكتائب» هجومًا عنيفًا ولكن غير ناجح ضدّ قوّاتنا وبيتنا. قضيت كلّ أيام العطلة في المنزل بسبب الحصار الذي ضُربَ حول منزلنا واستمرّ خمسة أيام قاطعًا عنّا جميع المؤن والإمدادات. وفي الليلة السادسة، اندلع تبادل إطلاق النار وأصيب أحد الحرّاس برصاصة في رأسه، فسحبه زملاؤه وأدخلوه إلى البيت ومدّدوه على أرض المطبخ حيث تولّيت ووالدتي مهمّة الاعتناء به، لعدم توفّر طبيب. كان الدمّ يتدفّق من جمجمته واستطعت أن أرى دماغه. لم نكن نعرف إن كان سيموت أو ينجو، كان يرتعش على الأرض. غطّينا رأسه بالبطانيات لكنّ تشنّجًا عنيفًا انتابه

فجأة وتقيّأ عليّ. أثناء ذلك، نجح أحد الرجال في التّسلل إلى الخارج طلبًا للنجدة. ارتفع عدد الجرحى، وعمل والدي بلا هوادة سعيًا لإيجاد حلّ والتوصّل إلى وقف لإطلاق النار. كان يستشيط غضبًا من بشير لأنّه سمح للتصعيد بأن يبلغ هذه النقطة. وأخيرًا، لدى التوصّل إلى وقف إطلاق النار، نقلنا الجرحى إلى مستشفى قريب، وبعد مغادرة الجميع، نظرت إلى ملابسي الملطّخة ببقايا لحم المقاتل الشاب ودماغه وبالدماء التي تخثّرت على بنطالي، ورحت أتساءل عمّا حلّ بالعالم...

في اليوم التالي، تولّى أحد الكهنة الموارنة مهمّة التوسّط بين والدي وبشير الذي حضر إلى بيتنا للمشاركة في اجتماع المصالحة، أذكره بوضوح خلال تلك الزيارة، كان مرحًا ومهذّبًا، بدا كل شيء على خير ما يرام بينه وبين والدي وكأنّ الأمور عادت إلى مجاريها.

بعد هذه الحادثة بوقت قليل، عدت إلى المدرسة في بريطانيا، وفي اليوم الأول الذي عدت فيه إلى لبنان، بعد أكثر من شهرين، عاد بشير الجميّل وشنّ هجومًا واسع النطاق على منزلنا وقريتنا. هذه المرة، ما من شيء كان يستطيع ردعه عن الاستيلاء على المنطقة المسيحية وإحكام سيطرته عليها. كان يخطّط للقيام بهذه العملية منذ الهجوم الأول، وكان يدرّب عناصر الميليشيا التابعة له، بالتعاون مع الإسرائيليين.

وقع الهجوم في السابع من شهر تموز/يوليو 1980، انقلب المسيحيون ضدّ إخوانهم المسيحيين في إحدى أسوأ المواجهات التي شهدتها الحرب اللبنانية، وأقلّها توثيقًا. أُطلق على تلك المواجهة تسمية «ليلة السكاكين الطويلة» تيمّنًا بعملية خيانة مماثلة حصلت عام 1932، قبل الحرب العالمية الثانية، حين أقدم النظام النازي على تصفية كبار قادة الفصائل في الحزب النازي وأعضاء بارزين في «كتيبة العاصفة» (S.A.)، الجناح شبه العسكري للحزب. للأسف، لم يكن العنف الطائفي

غريبًا على بشير، ففي بداية الحرب الأهلية، وبصفته المسؤول عن ميليشيا الكتائب، اعتُبر مسؤولًا عن إصدار الأمر باغتيال ابن رئيس الجمهورية الأسبق سليمان فرنجية، طوني فرنجية، مع زوجته وابنته، بينما نجا ابنه سليمان من الهجوم، وأصبح بعد ذلك زعيمًا سياسيًّا بارزًا تربطه بسوريا علاقات متينة.

ويجدر الذكر أنّه، خلال حقبة اغتيال فرنجية، كان في الفريق الذي تولى عملية الهجوم على منزل آل فرنجية لتصفيتهم في 12 حزيران/يونيو 1978، مقاتل شاب يُدعى سمير جعجع وقد أُصيب خلال العملية. بعد سنوات، شقّ ذلك المقاتل طريقه الدمويّ صعودًا الى أعلى مراتب السلطة وتبوّأ مركز قائد القوات اللبنانية، المركز ذاته الذي ناضل بشير من أجله في تلك الأيام.

وبالعودة إلى ذاك اليوم المشؤوم من تموز/يوليو 1980، شنّ بشير ورجاله هجومًا مفاجئًا واسع النطاق على منزلنا وقرية «الصفرا» المجاورة وقتلوا 300 عنصر من أنصارنا في صبيحة يوم واحد. كانوا يلقون المقاتلين من أعلى المباني ويُرْدونهم بالرصاص قبل سقوطهم على الأرض، كما فتحوا نيران رشاشاتهم وصفّوا جميع الرجال في أحواض السباحة الموجودة في المنتجع فتحوّلت هذه فعليًّا إلى حمامات من الدم.

كان والدي قد ذهب إلى العمل، وكالعادة، كنت وحدي في البيت مع والدتي وجدّتي. كنت أرتدي ثوب السباحة وأستعد للجلوس قرب الحوض حين دوّى فجأة انفجار هائل وارتطم صاروخ بالخيمة أمامي لترتدّ الشظايا باتجاه وجهي. شعرت بالدم الدافئ يسيل على خدي، وأدركت أنّ شيئًا خطيرًا يحدث، ولكن لم يكن لدينا أدنى فكرة عمّا هو. لمدة ساعتين، ظلّت القنابل تنهال علينا كالمطر وصرنا نزحف على الأرض

لتفادي النيران. في النهاية، تجمّعنا في الطابق السفلي، وكنت أسمع صراخ المقاتلين وهم يبحثون عنّا في أنحاء البيت. لحسن الحظ، كنت قد أخفيت جميع الأسلحة، فكنّا عُزّلًا عند دخولهم. لولا ذلك، لقضينا جميعًا في خضمّ موجة الجنون تلك.

أمسكوا بنا واقتادونا مسجونين تحت تهديد السلاح. خرجت بملابس ملطّخة بالدماء. مجدّدًا خسرنا كل ما نملك؛ حتّى الهرّة التي كنا نربّيها قضت في ذلك اليوم بعدما نُهبت جميع محتويات المنزل ثم دُمّر كليًّا بالديناميت. لدى اقتيادنا خارج المنزل، مررت بالقرب من رجل مُلقى على قارعة الطريق وأعضاؤه التناسلية مبتورة ومُمثَّل بها ومرميّة بالقرب منه تحت أشعة الشمس. خلال احتجازنا، قام رجال بشير باستعراضنا في إطار جولة على جميع ثكناتهم العسكرية، مصوّبين بنادقهم في مرّات عديدة. كان وجهي ينبض بسبب الجروح التي خلّفتها الشظايا عليه، وفقدت الرؤية بعيني اليسرى. توقّفت السيارة ثلاث مرات؛ أوّلًا، عند «بيت الكتائب» في قرية مجاورة حيث استُعرِضتُ مع أمّي أمام حشد من المحتفلين الذين، حالما وقع نظرهم على قميصي الذي يحمل شعار الحزب، حتّى أمسكوا بي وألقوا بي ملتصقة على الجدار وفكرة تصفيتي بالرصاص تساورهم. لكن الرجل الذي كان برفقتنا سحبني بعيدًا عنهم وتابعنا مسيرتنا إلى مركز آخر للكتائب في تلال «الصفرا». هذه المرة، كان المكان مُقفرًا، انتظرنا في السيارة لمدة نصف ساعة بينما كان الخاطفون يتداولون حول الوجهة التالية. بعد ذلك عدنا باتجاه الساحل، إلى قرية تُدعى «صربا»، حيث يقع المقر الرئيسي لـ«بيت الكتائب». ركنوا السيارة على تلة شديدة الانحدار خارج المكتب وتركونا هناك لمدة نصف ساعة أخرى، ثم تقدّم رجل منّا وأمرنا، أمّي وأنا، بأن نتبعه. قادنا إلى غرفة فارغة وواسعة حيث انتظرنا إلى حين أصبح قائد المنطقة

جاهزًا لمقابلتنا. دخلنا مكتبه؛ غرفة واسعة عادية يجلس فيها رجل بدين وقصير القامة خلف مكتب كبير من خشب البلوط. جلسنا على الكراسي المقابلة. بادرت بالقول بكلام واضح لا لبس فيه أنّ من الأفضل أن أتّصل بوالدي على هاتفه الخاص لأنّه إذا اعتقد بأننا قضينا فسيوجّه سلاحه ضدّهم ويمحوهم جميعًا. كنت أتحايل بالطبع ولكن، لسبب ما، أخذني الرجل على محمل الجدّ. وأخيرًا، وبعد عدّة محاولات، نجحنا في الاتصال بوالدي. على الرغم من أنني بالكاد كنت أسمعه، شعرت بارتياح كبير لأنّني تمكّنت من الاتصال به. سألني إن كنت بخير. طمأنته، وأبلغني بأنه في مكان ما في الجبل ولم يكن يدري متى أو كيف سيرانا. ثمّ طلب مني أن أحاول الانتقال إلى غرب بيروت أو إلى وزارة الدفاع. قلت له لا أعرف أحدًا يمكن أن نقصده في تلك المنطقة، فأنا لم أزر الجهة المسلمة منذ اندلاع الحرب، إلّا أنّها بدت الآن أكثر أمنًا لنا من تلك المسيحية. طلب مني أن أنزل في فندق ثم ساد الصمت، أدركت أنّه كان قلقًا للغاية. عندما أكمل حديثه، تمنّى لي حظًا سعيدًا وطلب مني أن أبذل أقصى ما بوسعي لتأمين سلامتنا، وللاعتناء بوالدتي، في ظلّ الظروف القائمة. انقبض قلبي وأنا أقفل الخط، لم يكن لديّ أدنى فكرة عمّا يجب فعله الآن. عدت إلى مقعدي.

طوال ذلك الوقت، لم نتلفظ أمّي وأنا بأيّ كلمة. بعد قليل، دخل كاهنان الغرفة، فهمت أنهما أتيا بصفة وسيطين. عند هذه النقطة، بتنا عبئًا على الخاطفين، كانت المذبحة لا تزال مستمرة منذ 12 ساعة، وبدأت أخبار حمّام الدم تصل إلى خارج حدود المنطقة. لو كنّا قضينا عند تفجير المنزل لبدا الأمر وكأنه حادث، لكن الأوان قد فات الآن لتصفيتنا، وأصبحنا نمثّل مشكلة. بمساعدة الكاهنين أُفرج عنا أخيرًا ونُقلنا إلى إحدى آخر ثكنات المنطقة التي كان حزبنا لا يزال يسيطر

عليها. أمضيت الليلة بكاملها دون أن يُغمض لي جفن وأنا أحاول عبثًا الاتصال بوالدي على اللاسلكي. لم أكن أدري إن كان حيًّا أو ميتًا، سمعت أنّه تراجع أكثر فأكثر باتجاه الجبال وأتلف ذخيرته خلال انسحابه، طارده الكتائب إلى منتجع «فقرا» للتزلج حيث كنا نقيم، ودمّروا الشاليه بعدما قتلوا بعض الموظّفين في الموقع، حتّى كلبنا «شادو»، من فصيلة «سان برنارد»، لم يستثنوه، ثم انطلقوا لمطاردة والدي في التلال المحيطة.

في صباح اليوم التالي، امتلأت ثكناتنا فجأة بمقاتلي الكتائب، إذ أخفق العديد من شبابنا في صدّ الهجوم. أصبح واضحًا أن بقاءنا هناك في غاية الخطورة، ولحسن الحظ، نجح نبيل، أحد أصدقاء والدي، في اجتياز نقاط التفتيش بسيارته. وهو يهمّ بالخروج، سألني إن كنت بحاجة إلى أيّ شيء، فبادرته بالقول «نعم، أريد أن أغادر هذا المكان في أسرع وقت ممكن».

ركبت سيارة نبيل مع والدتي وجدّتي ورحلنا دون أن يتنبّه إلى غيابنا أحد وسط حالة الهرج والمرج السائدة. نجحنا في الانسلال بهدوء، وأثناء توجّهنا إلى وسط المدينة، مررنا بطرقات تعجّ بالدبابات وبمقاتلي الكتائب الذين يلوّحون باللافتات. «يا له من انتصار رخيص»، قلت في نفسي. كان من المخجل بالنسبة لي أن يبتهجوا بقتل إخوانٍ لهم. شعرت بالخجل وبالأسف عليهم في آن معًا. لم يكونوا يدركون أبعاد ما يقترفون، وما كان هناك من أحد ليقول لهم إنّ أعمالهم ستؤدي في النهاية إلى زوالنا جميعًا.

قادنا نبيل إلى وزارة الدفاع. كان من الضروري بالنسبة لنا تحديد مكان والدي والحرص على تأمين عودته سالمًا. فور وصولنا، أقنعنا مسؤولًا بإرسال طوافة لإحضاره. وفي محاولة لرأب الصدع الذي اتّسع، انضمّ أمين، شقيق بشير، إلى فرقة الإنقاذ التي خرجت لإعادة والدي.

في عصر ذلك اليوم، في وزارة الدفاع، وبعد زوبعة الرعب التي كانت مفتوحة على كل الاحتمالات، اجتمع شملنا العائلي من جديد.

خلال الأسابيع القليلة الأولى التي أعقبت فرارنا، أقمنا في منزل صديقي منذ الطفولة باتريك، وحظينا بضيافة كريمة من أفراد عائلته الذين عرّضوا حياتهم للخطر باستضافتهم إيّانا والاعتناء بنا. مع مرور الوقت، تفاقم غضبي بسبب ما حدث. ظللت أسمع قصصًا رهيبة عن «ليلة السكاكين الطويلة». منها تلك المتعلقة بأحد أعضاء الحزب الأوفياء وأحد أصدقاء العائلة الذي قبض عليه الكتائب، دخلوا إلى منزله خلال نومه وعذّبوه ثم قطعوا إحدى أذنيه وأطلقوا الرصاص على ساقيه، وأخيرًا ربطوه بالسرير وزنّروه بالمتفجرات وفجّروه، بعدما أجبروا زوجته وابنته ترايسي، التي سُمّيت تيمّنًا بي، على مشاهدة إعدامه.

كلّما سمعت قصصًا مماثلة ازداد شعوري بالذنب؛ كلّ هؤلاء الناس لاقوا حتفهم لأنّهم كانوا مرتبطين بطريقة أو بأخرى بعائلتي وباسمي. ولكن أغرب ما في الأمر هو أنّه، في ذلك الوقت، عانينا وحدنا هذه المآسي؛ فالعملية، على اتساع نطاقها، انحصرت في مناطق معيّنة. وذلك يعني أنّه، بالنسبة للباقين، كان الأمر وكأنّ شيئًا لم يحدث. استمرّوا في ارتياد المسابح والحفلات. كنا نحن فقط، وبعض الأرواح البائسة التي كانت معنا، ضحايا ذلك اليوم المشؤوم، كلّ ذلك أدّى إلى تفاقم شعوري بالعزلة.

بالإضافة إلى موت ما يقارب 300 من مناصرينا، قضى حوالى 30 عاملًا مهاجرًا، معظمهم من الباكستانيين، حين أُوقفوا صفًّا واحدًا في مواجهة الحائط وأُعدموا رميًا بالرصاص، ثم دُفنت جثثهم في اليوم التالي في مقابر جماعية، قبل أن تنقل الصحافة أخبار ما ارتُكِبَ من فظائع.

كان لأعمال بشير عواقب وخيمة على المجتمع المسيحي ككلّ، فقد انتهك عُرفًا مقدّسًا، إذ كان أول من سمح بقتل مسيحيّين على أيدي إخوانهم المسيحيّين. مع مرور السنوات، أفضت «إرادة السيطرة» من خلال العنف تلك، إلى نتائج وخيمة ومأساوية بالنسبة إلى عائلتي. هجوم «الصفرا» لم يكن سوى مجرّد بداية للمسار الدموي الذي سنشهده على أيدي القوات اللبنانية.

إنّ أي منظمة هي، في المطلَق، مجرّد انعكاس لقيادتها. تلك القيادة كانت مجبولة بالدم. ولكنّ العديد من الأفراد المنتمين إلى القوات اللبنانية لم يستسلموا لعقيدة العنف التي تعتنقها، هؤلاء أصبحوا لاحقًا من أعز الأصدقاء والزملاء. في تلك الأيام، كانوا حفنة من الشبّان الذين أنصتوا إلى ضمائرهم وبذلوا قصارى جهدهم للحؤول دون المزيد من سفك الدماء والانتقام. مسعود الأشقر هو أحدهم. كان الأشقر قائدًا لمجموعة صغيرة من المقاتلين التابعين لقيادة بشير. كانوا من بين أوائل من دخلوا إلى بيت «الصفرا» بعد المجزرة. حاولوا إنقاذ بعض مقتنياتنا من الحطام وأحضروا لي ما أمكن منها، وهو ليس بالكثير، معبّرين عن مدى الاستياء الذي شعروا به وهم يجمعون بقايا صورنا العائلية المتناثرة على أرض المنزل بعد تدميره بالديناميت. كانت تلك آخر ما بقي لنا من ماضٍ امّحى وتلاشى.

وفي هذا السياق، من المهمّ أن أوضّح أنّني، حين أتحدّث عن القوات اللبنانية، فأنا أقصد بعض جوانب القيادة لا المناصرين والعناصر المنتمين إلى الميليشيا، ففي النهاية، كان هؤلاء، مثلهم مثل الآخرين، عالقين في سلسلة من الأحداث التي لا سيطرة لهم عليها. فهذه الظروف حاصرتنا جميعًا بالتساوي، وسجنتنا داخل الحدود الضيّقة لإملاءات الطموحات الفردية التي تطمح إلى كلّ شيء سوى إنقاذ البلاد.

على المستوى الشخصي، طرأ شيء ما على حياتي بعد مجزرة «الصفرا» غيّر علاقتي بطائفتي إلى الأبد. بطريقةٍ ما، تحوّلت إلى متحدّثة باسم الأموات. دُعيت إلى منزل آل فرنجية حيث أجريتُ مقابلة أدنتُ فيها أعمال بشير ورجاله. بُثّت المقابلة على عدّة محطات إذاعية في الشمال، في منطقة نفوذ الرئيس السابق فرنجية، حيث يحظى بشير بكراهية السكان قاطبة بسبب اغتيال طوني فرنجية وعائلته، وفي الجنوب، في المناطق الدرزية حيث ثمّة كره مستشرٍ للكتائب. مجدّدًا، تعرّضت حياتي للخطر. ناشدني جدّي أن أحفظ لساني لكنّني رفضت؛ كان لا بدّ لأحد من أن يقول الحقيقة، لم يكن بوسعي أن أبقى صامتة، كان يجب أن أتكلم باسم جميع من قضوا نحبهم وباسم عائلاتهم المسكينة التي عانت من لوعة خسارتهم.

خلال تلك الفترة، تدهورت علاقتي بجدّي. ففي اليوم الذي تلى محاولة بشير قتلنا نُشرت له في الصحافة صورة وهو يصافح بشير! وسرعان ما أصبح بشير ربيب جدّي. شعرت بأنّي تعرّضت للخيانة. لم أفهم سلوكه تجاهنا. هو يعقد تسوية سياسية. فقد كان همّه الأول والأخير، والذي يأتي قبل عائلته أو سلامته الشخصية، محصورًا بخلاص المجتمع المسيحي في لبنان. كانت هذه مهمّته. لا يمكن أن أصدّق أنّه كان يملك تصوّرًا دقيقًا عن حجم المذبحة التي جرت أو حجم الهجوم المباشر الذي يتعرّض له أفراد عائلته، ولكن، بشكلٍ ما، كان قد أدرك أنّه لن يستطيع التصدّي لاندفاع بشير في السيطرة على القطاع المسيحي، حتّى لو كان ذلك يعني التضحية بابنه. في تلك المرحلة، أيّ مقاومة من جانبه كانت ستؤدّي إلى مزيد من سفك الدماء في صفوف المسيحيين.

فجأة، جعلتني الصراحة التي أمارسها منبوذة لدى جزء من المسيحيين وداخل طائفتي. لم أعد أشعر بالأمان، حتّى بين الخاصّة من

قَوْمي. كانت تلك بداية مرحلة النفي القسري بالنسبة إليّ. كانت حياتي مهدّدة يوميًّا، والناس ينظرون إليّ بكراهية. كنت الضحية، ومع ذلك، كنت محطّ بُغضهم.

في أعقاب إدانتي لبشير في الصحافة المحلية، أصبحتُ مضطهدة ومُطاردة أينما توجّهت. وإن تجرّأ أيّ من أصدقائي القلائل المخلصين على الاتصال بي أو زيارتي، كان يتلقّى على الفور تهديدًا أو على الأقلّ تحذيرًا باستهداف عائلته أو أحبائه.

لم يكن أمامي أيّ خيار سوى مغادرة البلاد، لكنّه هذه المرة لم يكن رحيلًا طوعيًّا، بل كان بسبب عدم وجود مكان قد أقيم فيه وأشعر بالأمان: لا في بيروت الشرقية ولا الغربية. تعهّد بعضهم بقتلي. رحلت مجدّدًا متوجّهة إلى لندن لكن هذه المرة لم أكن أعرف متى سأعود. كنت في حالةٍ من الصدمة وأنا أحاول استئناف حياتي «الطبيعية» في الكليّة. لأكون منصفة، كانت حياتي أبعد ما تكون عن الطبيعية. وكيف لها أن تكون طبيعية؟ كنت أشاهد أصدقائي يتابعون أعمالهم كالمعتاد ومرة أخرى شعرت بأنني معاقبة في حياتي، مُستَبعدة من واقعهم، وأنا أحاول مواجهة قسوة العالم الذي جئت منه.

ظلّت روحي، طيلة سنوات المنفى القسري التي قضيتها في لندن، مُثقلة، لا تعرف مطلقًا طعم الراحة والسلام. كانت مرحلة من حياتي جهدتُ خلالها لأفهم ما حلّ بي. فالحياة التي كنت أتصوّرها لنفسي لم تكن تشبه بأيّ شكل من الأشكال تلك التي مُنيتُ بها.

لطالما اعتبرت لبنان موطني، الذي لي فيه مكان في كنف عائلتي، وحيث ستتبلور حياتي. على العكس من ذلك، جرى تدنيس كلّ شيء وتدميره، وتهشّم كل ما بقي من هويتي. بلدي كان يشتعل بنيران البغض والمجازر. عائلتي تمزّقت. أصدقائي تشتّتوا في كافة أصقاع العالم،

والعديد منهم لقوا حتفهم. من المؤكّد أن هذه الحياة لم تكن مطلقًا تلك التي تصوّرتها لنفسي؛ لم أعرف سوى الرعب والخيانة، وعشت في عالم يسيطر عليه رجال متعطشون للسلطة والنفوذ والعنف والخيانة الشخصية والسياسية. شعرت بأنّي مجرّد رصاصة فارغة، ولكن لسبب ما كان يتعيّن عليّ التغلّب على هذا الفراغ.

كنت على حافة التفكك والاكتئاب حين حالفني الحظ واهتديت إلى علاجٍ تحويليّ عميق تحدّثت عنه بالتفصيل في كتابي «باسم الوالد». كنت عاجزة عن تحمّل الألم الذي عانيته حتّى تلك المرحلة، وكان عليّ التوصّل إلى أجوبة حول ظلم الحياة قبل أن أستمرّ فيها. عُدت إلى أعماق نفسي سعيًا خلف هذه الأجوبة، وطرقت أبواب مختلف المذاهب الفلسفية، حتّى اكتشفتُ مفهوم الإيمان، وأدركت أن الأجوبة لا يمكن أن تأتي من ذهني بل لا بدّ أن تنبع من قلبي.

أدركت ما حلّ بي والحال التي أصبحت عليها: شخص ممزّق فقد القدرة على الحبّ بسبب هول تجربة الخسارة التي خاضها، وذلك النمط من العيش لم يكن سوى شكل من أشكال الانتحار. أدركت أنّني حرمت نفسي من العنصر الحيوي الذي من شأنه أن يسندني، وهو القدرة على أن أحِبّ وأن أُحَبّ مجدّدًا. كانت تلك مرحلة خارقة من حياتي: فيها، ذاب الجليد الذي كان يكسو قلبي المتحجّر، واستعدت ارتباطي بكل ما يحيط بي.

باشرت عملية إعادة جمع أشلاء روحي ببطء وتأنٍّ، وفيما كنت في السابق أحارب الله وأكره سوء الحظ الذي اكتسح حياتي، تخليت عن المقاومة وسلّمت أمري للعظيم القادر. وأدركت بشكل لا لبس فيه أن الإرادة الحرة تؤدي دورًا فعّالًا في خلق واقعنا وصقله، وأن الشرّ غير موجود جوهريًّا بحد ذاته بل يوجد فقط في الوقت الذي يُمارس فيه.

وبهذه الصفة، فهو مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالخيارات التي يتّخذها كل واحد منّا في أي وقت من الأوقات.

إن الإرادة الحرة تمثّل جانبًا من الجوانب الإلهية الموجودة فينا، يمكننا تسخيرها لخدمة الجوانب المتدنية من طبيعتنا أو الجانب الأسمى من وجودنا. الخيار دائمًا بيدنا، وما من شيء سهل المنال. بإمكاننا اختيار الشعور بأننا مترابطون ونعمل انطلاقًا من مبدأ تحمّل نتائج أعمالنا، كما بإمكاننا اختيار المسالك الأنانية ومحورية الذات معتقدين أنّ أعمالنا تخلو من أيّ عواقب وأنها مبرّرة بغض النظر عن تأثيرها.

مرارًا وتكرارًا، تعرّض إيماني لاختبار قاسٍ. ومرّت السنوات التي تلت مُثقلة بالعقبات التي فاقمت شعوري بالعزلة والحزن وصعّبت عليّ الصراع الذي كنت أخوضه بهدف تحقيق السلام الداخلي. كلّ ذلك، والاختبار الأقسى والأصعب لم يكن قد وقع بعد.

شهدت الفترة ما بين عامي 1980 و1982، تاريخ اغتياله العنيف، حكم بشير القصير الأمد. خلال تلك الفترة، قام رجال بشير بمحاولة أخرى لاغتيال والدي، عبر نصب كمين له وإطلاق النار عليه. اخترقت الرصاصة ساقه ولكنه نجح حينها في قتل المهاجمين. بعد تلك الحادثة، اضطُرّ والدي أيضًا إلى مغادرة لبنان، وجاء للعيش معنا، والدتي وأنا، في لندن. كان أشبه بالأسد المحجوز في القفص. بدا رجلًا محطَّمًا، مُثقل الروح وغير قادر على استيعاب تعثّر الحظ. بمجيئه إلى لندن، لم يكن قد رحل عن بلده فحسب بل أيضًا عن مصيره، وهو ما لم يكن قادرًا على استيعابه.

تحدثنا عن حياته وعمّا يمكن أن يفعله هناك. لم يعرف من أين يبدأ، كان في الأربعينيات وبدت خياراته محدودة، كان عاجزًا عن الاستمرار

بعيدًا عن حياته في لبنان، فاغتنم الفرصة للعودة إليها عندما قام والده كميل بخطوة مصالحة مع بشير، لكن مجرّدًا من أيّ نفوذ والميليشيا التابعة له قد حُلَّت.

في 6 حزيران/يونيو 1982، اجتاح الجيش الإسرائيلي لبنان، واشتعلت بيروت مجدّدًا. أزهقت تلك الحرب أرواح 20 ألف شخص، معظمهم من المدنيين ومن الفلسطينيين. كان مخطِّط آرييل شارون يقضي بإعادة تشكيل لبنان كدولة يسيطر عليها المسيحيون ومن شأنها عقد اتفاق سلام مع إسرائيل في إطار ما بات يُعرف باسم «اتفاق 17 أيار»، بالإضافة إلى إعادة منظمة التحرير الفلسطينية إلى الأردن، مكانها الطبيعي برأيه. لم يتحقّق أيٌّ من ذلك.

طبعًا، انتُخب بشير الجميّل، رئيسًا للجمهورية، بضغط إسرائيلي، إلّا أنّه اغتيل قبل أيام من تسلّمه مقاليد الحكم. وعلى الفور، غداة اغتياله، شنّ عناصر ميليشيا بشير حملة انتقام واسعة واقتحموا مخيّم «صبرا وشاتيلا» حيث ارتُكبت أفظع المجازر التي لا يمكن وصفها. استمر حمّام الدم 24 ساعة، تحت إشراف الجيش الإسرائيلي. خلال تلك الساعات الدموية، تعرّض السكان لجميع أشكال القتل من ذبح واغتصاب وتقطيع أوصال وسلخ. بوصول الخبر للمجتمع الدولي والصحافة، كانت جثث الضحايا قد دُفنت على عجل في مقابر جماعية. اعتُبر إيلي حبيقة مسؤولًا وحده عن مجازر «صبرا وشاتيلا». بعض الصحافيّين ادّعوا أنّه كان على سطح أحد الأبنية مع الإسرائيليين يشرف على المذبحة الدائرة في الأسفل.

حين قابلته، بعد سنوات عديدة، تكلّمنا عن هذه الاتهامات، حدّق في عينيّ وهو ينكر أنّه كان موجودًا، ثم أخبرني أنّ الرئيس أمين الجميّل كان قد استدعاه إلى القصر الجمهوري أثناء المجزرة وأنّه لم يكن في

ساحة الجريمة من قريب ولا من بعيد. ما حدث في المخيمات كان يفوق خيال أيٍّ كان.

كان لحبيقة ماضٍ حافل لم يكن بوسعه تخطّيه، وكأنّ نقابًا مُظلمًا كان يغطي روحه غير القابلة للترميم، والتي أرادها على هذا النحو. لم يكن لديه أوهام حول طبيعته وكان واعيًا تمامًا لمكامن قوّته غير الاعتيادية. وقد اعترف لي بأنّه، خلال التدريب الذي تلقّاه لدى وكالة الاستخبارات الأميركية، صُنّف عنصرًا عديم الرحمة، وخُصِّصَ بوصفه قاتلًا بالفطرة.

عام 1982، في أعقاب الاجتياح الإسرائيلي الذي انعكس ضدّ إسرائيل إلى حدّ ما وغيّر صورتها إلى الأبد، اضطرّ الفلسطينيون للانتقال إلى تونس، ولم يُقتل عرفات كما كان يأمل الإسرائيليون. انتُخب أمين الجميّل، صاحب الشخصية المختلفة تمامًا عن شخصية شقيقه بشير، رئيسًا للجمهورية، وكان من المتوقّع أن يعقد معاهدة السلام مع إسرائيل، المعروفة بـ«اتفاق 17 أيار». إلّا أنّ الاتفاق قوبل بمعارضة قوية من اللبنانيين المسلمين والعالم العربي، إذ اعتُبر بمثابة استسلامٍ مفروض، أمّا سوريا، التي عارضت بحزم ووضوح ذلك الاتفاق، فقد نجحت فعليًّا في تقويض تطبيق المعاهدة من خلال رفضها سحب قواتها من الأراضي اللبنانية.

وشكّلت عملية عسكرة المواطنين الشيعة أبرز النتائج العرضية التي أعقبت الاجتياح الإسرائيلي عام 1982. فقد كان الشيعة بغالبيتهم يعيشون في جنوب البلاد، أي إنّهم كانوا أكثر من تضرّر من الحروب المتتالية مع إسرائيل، قتلًا وتدميرًا وتهجيرًا...

في الواقع، كانت اعتداءات إسرائيل عليهم قد بدأت عام 1978 بعملية الليطاني التي نفّذتها إسرائيل بهدف تأمين منطقة عازلة لحلفائها في جيش لبنان الجنوبي. خلال تلك العملية، لاقى 2000 مواطن شيعي

حتفهم وتحوّل 250 ألف غيرهم إلى مهجّرين بعد تدمير منازلهم، ولم تكن تلك سوى بداية تشتّتهم وتهجيرهم. أمّا النتيجة الأبرز للمعاناة الرهيبة والخسائر المتكررة التي تكبّدها المجتمع الشيعي في جنوب البلاد فهي ولادة حزب الله الذي قبض على «روح العصر» (zeitgeist) وتلقّف غضب السكان الشيعة، متماهيًا مع العقيدة الدينية الإيرانية المعادية للصهيونية.

ومن سخرية القدر أن تكون إسرائيل ذاتها، بشنّها الحرب التالية على لبنان عام 2006، قد رفعت «حزب الله» إلى مصاف اللاعب الإقليمي. هكذا، تطوّرت هوية «حزب الله» من حركة وطنية محلية بالأساس إلى «مقاومة إسلامية» واسعة النطاق تحظى باعتراف شعبي عربي.

ترتّبت على قيام «حزب الله» نتائج اجتماعية واقتصادية هائلة بالنسبة إلى لبنان، منحته سلطة غير مسبوقة في البلاد. وجد الحزب نفسه تجسيدًا للمقاومة العربية الوحيدة القادرة على التصدي لإسرائيل، والدفاع عن الفلسطينيين، ومتابعة قضية إطلاق سراح الأسرى اللبنانيين في السجون الإسرائيلية، وحماية الحدود والسيادة اللبنانيتين من الاجتياحات والانتهاكات الإسرائيلية المتكررة.

مما لا شك فيه أن شرعية «حزب الله» الرئيسية تكمن في الكفاح المسلّح ضدّ إسرائيل. وإلى حين زوال التوغل الإسرائيلي في لبنان والى حين أداء الجيش عمله في تأمين سلامة الحدود على نحو كامل سيستمر «حزب الله» في العمل من خلال قدراته شبه العسكرية.

خارج ذلك الإطار، من الصعب إقناع «حزب الله» بتسليم سلاحه، خصوصًا في ظلّ الشرخ الذي وقع بين الشيعة والسنة في لبنان.

وقد باتت هذه المسألة من أشدّ المسائل إثارةً للجدل والمطروحة أمام الشعب اللبناني من كافة الأطراف ولا تزال تشكّل أساس الانقسام

السياسي الذي يفرّق البلاد، إذ من الشائع أنّ «حزب الله» هو الفريق الوحيد في البلاد الذي لم يُنزَع سلاحه، على اعتبار أنّه «مقاومة»، أمّا الواقع فهو غير ذلك. فللأسف، لا تزال معظم الأطراف في لبنان مسلحة وعلى استعداد تامٍّ للاقتتال في أي لحظة، ومواجهة بعضها بعضًا.

أراكَ تكرّرُ الأخطاء نفسها
بدل الانتقال جذريًّا
من النظر إلى الآخر كعدو
إلى معانقة الكيمياء الطاهرة
للحبّ والسلام والتسامح
والانتصار على الجهل الذي يُعميك

مقطع من «الساعون».

4

في بداية الثمانينيات، إثر الاجتياح الإسرائيلي واغتيال بشير الجميّل في الجانب المسيحي، كانت الأمور قد خرجت عن السيطرة تمامًا، والأوضاع تدهورت على نحو خطير. كانت تلك مرحلة بائسة، غرقت خلالها البلاد في دوامة من الفوضى والاقتتال الطائفي. في الجانب العسكري وعلى مستوى الميليشيات، قرّر سمير جعجع، الذي كان قد بنى لنفسه سمعة الزعيم المحتمَل الطموح، السيطرة على «القوات اللبنانية». في 15 كانون الثاني/يناير 1986، وضمن إطار عملية عسكرية داخلية عنيفة أُزهقت خلالها أرواح 600 مقاتل من أنصاره، أجبر جعجع رئيس اللجنة التنفيذية في القوات اللبنانية إيلي حبيقة على اللجوء إلى مدينة «زحلة» مع بعض رجاله.

استولى سمير جعجع على قيادة القوات اللبنانية، ومن دون أن يواجه أيّ مجابهة، طبّق عليها برنامج إعادة تنظيم عسكري جذري ووضع جميع عمليات القوات اللبنانية تحت سلطة أفراد خدموه بأمانة وتفانٍ وكانوا ينفّذون أوامره بإخلاص ومن دون جدال.

على الصعيد السياسي، كانت الجبهة اللبنانية، التي جمعت تحت مظلّتها زعماء مختلف الأحزاب السياسية، والتي كان جدّي كميل قد أسّسها وقادها، تواصل إملاء السياسة المتعلقة بالقطاع المسيحي. بصفته رئيس حزب «الوطنيين الأحرار»، كان والدي عضوًا في الجبهة اللبنانية مع سمير جعجع الذي بات يمثّل القوات اللبنانية.

وبسبب سيطرة جعجع العسكرية على القطاع، سرعان ما برز اختلاف في وجهات النظر بينه وبين والدي حول مسائل عدّة من ضمنها كيفية إدارة القطاع المسيحي الذي كان يُسمّى في حينها «المنطقة الشرقية». نشب بين الرّجلين جدال حول حدود المعاملة المنصفة للقوات داخل الجبهة. فقد طالب جعجع بالحصول على غالبية التمويل المتوفر لدى الجبهة اللبنانية لمصلحة منظمته الخاصة، أي «القوات اللبنانية»، تحت حجة أنّها الأكبر في القطاع المسيحي، وبالتالي أكثر من يستحق. كانت في موقفه ذلك إهانة لكافة الأحزاب الأخرى المكوّنة للجبهة اللبنانية، فتصدّى والدي لمزاعمه.

عام 1988، حاول أمين الجميّل خرق الدستور اللبناني والترشّح لولاية ثانية في منصب الرئاسة الأولى، على غرار ما حاول جدّي القيام به عام 1958 حين باءت محاولاته بالفشل. استغرق في المماطلة خلال العملية الانتخابية حتّى الساعة الحادية عشرة حين عمد، قبل أن يُجبَر على التنحّي، وبصفته لا يزال الرئيس، إلى تعيين خلفه، بحسب ما تقتضيه حالة الطوارئ كما نصّ عليها الدستور، وسمّى قائد الجيش العماد ميشال عون في منصب رئيس الحكومة.

تزامنًا مع هذه الأحداث، وعلى الصعيد الإقليمي، اجتمعت الدول العربية للتوصّل إلى حلّ للحرب اللبنانية من خلال ما عُرفَ باسم «اتفاق الطائف»، الذي كُلّفَت سوريا من خلاله بأداء دور محوري في مجال حفظ

السلام والأمن. يومها، نقل الملك فهد، وممثّله في لبنان رفيق الحريري، جميع أعضاء المجلس النيابي بالطائرة إلى الطائف. في الأساس، كان اتفاق الطائف من صنع رفيق الحريري، حامل الجنسية السعودية الذي أصبح لاحقًا رئيسًا للوزراء وبات أبرز شخصية سياسية على الساحة السياسية اللبنانية. والطائف هي المدينة السعودية التي كان الحريري قد حصل فيها على أول عقد لبناء فندق، وهي البادرة التي أطلقت حياته المهنية كمقاول ملياردير وأكسبته رضى الملك خالد.

أثناء وجودهم في الطائف، صدّق النوّاب اللبنانيون على الاتفاق الجديد الذي عُرف أيضًا باسم «اتفاق المصالحة الوطنية» أو «وثيقة الوفاق الوطني»، وكان اتفاقًا عُقد لتأمين أرضية صالحة لوضع حدّ للحرب الأهلية. بات اتفاق الطائف أشبه بمنتدى دولي شرعي لحلّ الأزمة اللبنانية وحظي بدعم كافة أعضاء المجتمع الدولي والدول العربية، والأهم، الولايات المتحدة الأميركية.

شمل الاتفاق ملفّات الإصلاح السياسي، إنهاء الحرب الأهلية اللبنانية وإقامة علاقات مميّزة بين لبنان وسوريا، التي من شأنها أن تصبح القوة المعيّنة لحفظ السلام. كذلك، حدّد الاتفاق جدولًا زمنيًّا لانسحاب القوات السورية من لبنان، وهو ما لم يحصل أبدًا. تمّ التوقيع على الاتفاق في 22 تشرين الأول/أكتوبر 1989 وصُدّق عليه في 4 تشرين الثاني/نوفمبر 1989.

كان الطائف أوّل اتفاق بعد ميثاق عام 1943، يعيد صياغة الدستور اللبناني ويعيد هيكلة البلاد. وكان «الميثاق الوطني» العائد لعام 1943 قد وضع دعائم حكم البلاد كدولة متعدّدة الطوائف، ووزّع المناصب الرئيسية داخل الحكومة على مختلف المذاهب على أساس التمثيل النسبي وفقًا للتعداد السكاني لعام 1932 – وهو آخر إحصاء أُجري في

لبنان، حين كان المسيحيون يمثلون 51٪ من إجمالي عدد السكان. لم تعد تلك هي الحال اليوم.

آنذاك، كان الهمّ الرئيسي هو ضمان وقف ممارسة المحسوبيات لدى مختلف الطوائف، ما يعني عدول المسيحيين عن التوجّه إلى حلفائهم الغربيين طلبًا للمساعدة، ومقاومة المجتمع المسلم لدعوة الاندماج في موجة العروبة المتنامية. إلّا أنّ كلّ ذلك لم يتحقّق. فالميثاق وُلِدَ مبتورًا، إذ كان يفتقر الى أيّ آلية من آليات التكيّف لمعالجة مسألة التركيبة السكانية المتغيّرة؛ فهجرة المسيحيين وارتفاع معدلات الولادة لدى المجتمع الإسلامي أسهما تدريجًا في تآكل التفوّق العددي للمجتمع المسيحي.

التغيير الأساسي الذي أدخله اتفاق الطائف هو انتزاع الصلاحيات التنفيذية من رئيس الجمهورية المسيحي الماروني ونقلها إلى رئيس الوزراء المسلم السنّي بصفته رئيس الحكومة، ما لم يترك للرئيس المسيحي سوى حق النقض (الفيتو). كذلك، كرّس الطائف مبدأ الطائفية من خلال زيادة عدد أعضاء مجلس النوّاب إلى 108 نائب موزّعين مناصفة بين المسلمين والمسيحيين، وأملى تشكيل حكومة موزّعة أيضًا بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين. كما دعا الاتفاق الى نزع سلاح جميع الميليشيات باستثناء «حزب الله» الذي سُمح له بالاحتفاظ بسلاحه باعتباره «مقاومة مسلّحة»، وليس ميليشيا، لمواجهة إسرائيل في الجنوب.

تزامنًا مع سير عملية الطائف، برز عنصر مهمّ آخر في إطار النزاع الإقليمي الأوسع، هو حرب الخليج الأولى، فقد غزا صدّام الكويت وهبّت الولايات المتحدة لنجدة البلد المغدور، إذ سارع الرئيس الأميركي جورج هيربرت والكر بوش إلى تسخير جميع معارفه في الشرق الأوسط

لتشكيل جبهة هدفها محاربة صدّام حسين في العراق. طبعًا، انضمّت سوريا، العدوّ للبعث العراقي، إلى تلك الجبهة. وخلال لقاء مقتضب ولكن بالغ الأهمية بين جيمس بيكر، وزير خارجية الولايات المتحدة آنذاك، والرئيس السوري حافظ الأسد، تمّ التوصّل إلى اتفاق تدخل سوريا بموجبه لبنان وفقًا للشروط الواردة في اتفاق الطائف الموضوع حديثًا حيّز التنفيذ. في المقابل، تحظى الولايات المتحدة بدعم سوريا في قوات التحالف المشارِكة في حرب الخليج الأولى ضدّ صدّام حسين. مجدّدًا، تمّت التضحية بلبنان في سبيل تلبية الطموحات السياسية الدولية التي لا تكترث سوى لمصالحها الذاتية. وبالنتيجة، احتل السوريون لبنان رسميًّا في 13 تشرين الأول/أكتوبر 1990.

في لبنان، رفض العماد عون، الذي تسلّم السلطة بعد أمين الجميّل، القبول بشروط اتفاق الطائف على أساس أنّه غير دستوري وأنّه يلغي قوة القاعدة المسيحية في البلاد، فوقف بقوة متحدّيًا الاتفاق. من جهته، كان والدي قلقًا بشأن الخطر السوري على استقلال لبنان، ورأى أن اتفاق الطائف يمثّل وسيلة لمنح سوريا غطاءً شرعيًّا للاستحواذ على البلاد. الآن، أدرك أنّه كان محقًّا في تقييمه. وقف والدي والعماد عون، الذي بات رمز المقاومة، بحزم، ضدّ تنفيذ اتفاق الطائف. آنذاك، كان العماد عون يجسّد بعض أهمّ طموحات الشعب اللبناني ورغباتهم الأساسية. تحدّث عن الديمقراطية والسلام وتغيير النظام القديم وإلغاء حكم الميليشيات وتحرير لبنان من الاحتلال الأجنبي. اصطفّ المواطنون من كافة أرجاء البلاد مستجيبين لكلامه وداعمين نداءه من أجل الوحدة الوطنية والخلاص. توافدت الحشود بأعداد كبيرة وقضت أيامًا وليالي مفترشة المساحات المحيطة بالقصر الرئاسي، وسط أجواء احتفالية مبهجة، وهي تنشد أغنيات وطنية تنادي بالتحرير.

وبدا الشعب والعماد مدفوعين بحسّ امتلاك المصير والحكم الذاتي. وبتشجيع من الدعم الشعبي، أعلن عون انطلاق «حرب التحرير» التي تهدف لتحرير الشعب اللبناني من سوريا، بينما عمد إلى طرد كلّ من لم يؤيّد قضيته، أمثال السفير الأميركي وجميع موظفي السفارة الذين هربوا من لبنان خوفًا على سلامتهم. وحتى هذا اليوم، لا يظلّ من غير المؤكّد إن كان الأميركيون قد غفروا له تصرّفاته خلال تلك الحقبة.

كنت لا أزال أعيش في لندن في تلك الأيام. بدا لي المشهد، وأنا أتأمّله من بعيد، مقلقًا، فيما كان الجميع مفتونين بخطاب العماد. فمن جهة، أعلن العماد قيام الديمقراطية وبداية عهد جديد، بينما عكست تصرفاته، من جهة أخرى، قناعة بأن السبيل الوحيد لتحقيق السلام هو من خلال العمل العسكري. أثناء ذلك، كانت عملية الطائف تسير على قدم وساق، وعمليًّا، كانت ثمّة حكومتان تحاولان إدارة البلد؛ الأولى يقودها العماد عون والثانية يدعمها اتفاق الطائف، وكلتاهما تدّعي الشرعية!

كان والدي أسير العملية برمّتها، وتركّز مجهوده على الدفاع عن لبنان ضدّ التهديد السوري. بالنسبة له، كان الوضع ميؤوسًا منه لدرجة أنّه اتصل بي في لندن ليسألني إن كان بمقدوري القيام بأي شيء. اتصلت بوزارة الخارجية البريطانية وقمت بزيارة مسؤول رفيع فيها وخرجت من الاجتماع بخلاصة رسمية مفادها أن العالم الغربي كان يدعم اتفاق الطائف وتطبيقه على نحو كامل. بدوا عازمين على تنفيذه للحدّ من نشاط العماد عون. نقلت هذه الرسالة لوالدي الذي صُعق واستشاط غضبًا متهمًا إيّاي، من دون مبرّر، بأنّني «واحدة منهم». تملّكتني الحيرة. كان واضحًا أن العماد عون ووالدي عالقان في مأزق لا سبيل للخروج منه. بعد لقائي المسؤولين البريطانيين خشيت على

سلامة والدي ولكن لم يكن بوسعي القيام بأي شيء لمساعدته، فالعماد ووالدي كانا قد عزلا نفسيهما ومناصريهما عن العالم.

بحلول كانون الثاني/يناير 1990 ازداد الوضع تدهورًا. عارضت القوات اللبنانية بقيادة سمير جعجع الجنرال عون. آنذاك، كان جعجع يؤيّد اتفاق الطائف والسوريين. ونشبت بين عون وجعجع حرب داخلية كرّست الكراهية بين المسيحيين ولا تزال إلى يومنا هذا تشكّل أساس الانقسام الحالي. في هذه الحرب، وقف والدي بثبات خلف العماد عون، لأنّه كان من عادته أن يصطفّ دائمًا إلى جانب الجيش اللبناني، فقد كان مؤمنًا بأنه يمثّل القوات المسلحة الشرعية في البلاد. في هذه الأثناء، كان السوريون ينتظرون ويتأمّلون المجتمع المسيحي وهو يدمّر نفسه، بينما اتفاق الطائف يتابع مساره في الخلفية. وفي 5 تشرين الثاني/نوفمبر 1989، انتُخب رينيه معوّض رئيسًا للجمهورية في قاعدة القليعات الجوية في شمال لبنان، بعد 409 أيّام على شغور منصب الرئاسة بانتهاء ولاية أمين الجميّل في العام 1988.

بعد 17 يومًا من انتخابه، وأثناء توجّهه إلى احتفالات عيد الاستقلال في 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1989، انفجرت سيارة مفخخة تحمل عبوة ناسفة زنتها 250 كلغ أثناء مرور موكب الرئيس المُنتخب في بيروت الغربية. قُتل الرئيس معوّض ومعه 23 شخصًا. بعد أسبوعين، تولى الرئيس إلياس الهراوي سدة الرئاسة، وفور انتخابه وقّع على التعديلات الدستورية التي تشرّع إصلاحات اتفاق الطائف.

من ناحية أخرى، سدّدت المعركة الأخيرة التي جرت بين الجنرال عون وسمير جعجع الضربة القاضية للمجتمع المسيحي. استمر القتال بلا هوادة حتّى تاريخ 13 تشرين الأول/أكتوبر 1990 بدعم من الجيش السوري، حين أجبر الرئيس الجديد إلياس الهراوي الجنرال عون على

الاستسلام. في ذلك اليوم، دخل السوريون إلى لبنان وسيطروا على جميع المناطق المسيحية بمساعدة حليفهم في القوات اللبنانية سمير جعجع.

حاصرت القوات المعادية، ومن ضمنها السوريون وسمير جعجع، والدي من جميع الجهات، إذ بسطت سيطرتها على الأرض في القطاع المسيحي. في ذلك الوقت، مُنع والدي من العودة إلى منزله في الأشرفية حيث ترك زوجته إنغريد وأختي تمارا، المولودة حديثًا. أقام في شقة عمّي دوري في الطابق الثاني من مركز «شاهين» في بعبدا.

أرسل سمير جعجع فرقة من المجرمين المسلّحين بقيادة خليل واكيم، رئيس قسم الأمن في بيروت الشرقية، لاقتحام شقة الأشرفية وترويع إنغريد وأختي تمارا الحديثة الولادة. أبقوها في الطابق السفلي من المبنى لمدة أسبوعين قبل أن يسمحوا لها بالمغادرة والانضمام إلى والدي في بعبدا. وفي ذلك العرض العنيف للعضلات إشارة إلى مدى تدهور العلاقات آنذاك بين جعجع ووالدي، وإلى المستوى العالي من الثقة بالنفس والعدوانية التي بلغتها القوات اللبنانية في تلك الأيام. كانوا يستهدفون أيّ شخص يدعم العماد عون. اقتحمت مجموعة منهم مبنى صحيفة «النهار» في حي «العكاوي» واحتلته مدة عامين، بينما احتلت مجموعة أخرى مركز «حرّاس الأرز» وأوقفوا رئيسه إتيان صقر واحتجزوه لمدة شهر.

في 13 تشرين الأول/أكتوبر، واجه العماد عون ووالدي هزيمة تامة؛ لجأ الجنرال إلى السفارة الفرنسية بينما اختار والدي البقاء في منزله. حاول الجميع تحذيره وحثّه على الرحيل ولكن من غير جدوى. مرة أخرى، اقتحمت الحرب حياتي الشخصية.

طيلة هذه الفترة، كان يستحيل عليّ الاتصال بوالدي. سرت معلومات متضاربة عن مكان وجوده. ادّعى البعض أنّه لجأ إلى منزل

القنصل الفرنسي، فيما أشارت تقارير أخرى إلى أنّه قصد قريتنا دير القمر حيث يحظى بحماية وليد جنبلاط. في تلك الفترة، كنت في واشنطن وكان قلقي يتفاقم يومًا بعد يوم، فقرّرت الاتصال بالسفير اللبناني نسيب لحود وناشدته أن يطلب من أحد حماية والدي. أكّد لي لحود أنّه تكلّم مع حكومته وأنّهم قد اتخذوا الإجراءات اللازمة لضمان سلامة والدي.

فجر 21 تشرين الأول/أكتوبر 1990، تحقّقت أسوأ مخاوفي. دخل مسلحون يرتدون بزات الجيش اللبناني المبنى الذي كان والدي يقطن فيه، في مهمّة كوماندوس محدّدة، واقتحموا الشقة وأردوه أولًا ثم إنغريد ثم قتلوا أخي الصغير طارق الذي كان في السابعة والذي هرع إلى غرفة الجلوس حاملًا مسدّسًا في محاولة شجاعة للدفاع عن والده ووالدته، ثم أردوا أخي الأصغر جوليان، الذي كان في الخامسة والذي هرب ليختبئ تحت السرير، فأمسكوه وأخرجوه وأردوه رميًا بالرصاص عن مسافة قريبة. وبأعجوبة، لم ينتبهوا لأختي الصغيرة تمارا، التي كانت لا تزال في عامها الأوّل، والتي كانت تنام بهدوء في سريرها.

بلغني الخبر في الولايات المتحدة، عبر الهاتف، في الرابعة فجرًا من اليوم نفسه. كنت برفقة فْرِد الذي سيصبح زوجي بعد ذلك. قفزت من السرير وقلبي يخفق من الرهبة لأنّ اتصالات الصباح تحمل دائمًا أخبارًا سيئة. ظننت أن والدي يحاول الاتصال بي، كان الوحيد الذي يتصل بي في ذاك الوقت، رفعت السماعة، كانت والدتي. حالما سمعت صوتها أدركت أن شيئًا ما حدث لوالدي. صرخت قائلة: «إنه والدي، أليس كذلك؟ ماذا حصل؟ مات، أليس كذلك؟» أجابت: «نعم، نعم، نعم»، ثم تابعت: «الأمر لا يقتصر عليه، لقد قضوا جميعهم: إنغريد وطارق وجوليان، جميعهم أموات». لم أصدّق. صرخت بكل جوارحي من الألم الذي مزّقني في لحظة. لم أستطع التوقف عن البكاء. استفاق فْرِد لدى

سماعه صراخي فأمسك السماعة وتكلّم مع والدتي. لم يفهم شيئًا مما كنت أقوله. وكأنّ حياتي انتهت في ذلك اليوم. فتحت محطة «سي. إن. إن» وشاهدت لقطةً ظهر فيها جثمان والدي محمولًا على النقّالة. في خضمّ اللوعة والأسى، أدركت أنني فقدت شيئًا ما إلى الأبد.

سافرت على الفور برفقة فْرِد إلى باريس ولندن حيث تشاركنا الحداد والألم مع آلاف المشيّعين. كانت أيامًا مظلمة بالنسبة للبنان ولجميع المسيحيين. في البداية، اتُهم السوريون بقتل عائلتي. إلّا أنّ طريقة تنفيذ العملية لم تكن سوريةً بطبيعتها، فالسوريون يستعملون عادة سيارات مفخخة لقتل أعدائهم السياسيين. أمّا عملية اغتيال عائلتي، فقد كانت عملية تصفية نُفِّذَت عن مسافة قريبة وبدم بارد. كانت، بطبيعتها، شبيهة بالعملية التي نفّذها بشير الجميّل ضدّ عائلة فرنجية المسيحية والتي شارك فيها سمير جعجع.

بعد الاغتيال مباشرة، سادت المجتمع المسيحي أعلى درجات التوتّر التي استمرت طوال السنوات الثلاث اللاحقة التي بقيت خلالها الحيثيات المحيطة بعملية الاغتيال غير واضحة، حتّى أدّت سلسلة من الظروف والأحداث المتعاقبة إلى كشف النقاب عن اللغز. ولكن، قبل ذلك، استسلمتُ لحالة من الحزن والاكتئاب. تركت عملي وقرّرت الانصراف إلى الكتابة، كان مشروع الكتاب يساورني منذ فترة طويلة. أجريت بعض الاتصالات في باريس وأبدت منشورات «لاتيس» رغبتها في نشر القصة.

ظهرت للكتابة فوائد علاجية لم أكن أتوقّعها. كانت المشاعر والتأمّلات والكلمات تثقل صدري منذ سنوات دون أن أدري... أفضى ذلك إلى صدور كتاب *Au nom du père* (باسم الأب) الذي نال «جائزة الحقيقة» (*Prix Vérité*) لأفضل عمل غير روائي في العام 1992 وقرأه

عدد كبير من الناس. شكّل ذلك الكتاب خطوتي الأولى في المجال العام ودفعني إلى القيام بدور سياسي متقدّم من خلال إعادة لمّ شمل العديد من مناصري والدي وأصدقاه.

إلّا أن ذلك التطّهر بالكتابة ترافق مع تدهور صحّتي بعدما استعدت ذكريات الماضي الأليم. جعلني ذلك في غاية الانفعال وسرعة التأثر. كانت روحي القلقة لم تعرف السلام بعد. فأنا لا أزال أجهل من قتل عائلتي، تتنازعني ألف فرضية حول من قد يكون الجاني...

في تلك الأثناء، في لبنان، كان عمّي قد تولّى خلافة والدي على رأس الحزب السياسي فأجرى انتخابات عامة وأصبح رئيسًا لحزب الوطنيين الأحرار ومنح نفسه صلاحيات كاملة في جميع الأمور المتعلقة بالحزب، بعدما صرف معظم الأشخاص الذين كانوا محيطين بوالدي وداعمين له. تولّى عمّي، بحكم الأمر الواقع، منصب رئيس الحزب لأكثر من عشرين سنة، وأثارت طريقة إدارته للحزب استياء عدد كبير من المحازبين الذين كانوا يحبّون والدي وشعروا بأنهم أُقصُوا بعد تولّيه زمام الأمور. لطالما كانت المنافسة شديدة بين عمّي ووالدي في حياته، أمّا بعد وفاته، فقد انتقلت المنافسة لتحلّ بين رفاقهما ومناصريهما.

عام 1993، قمت بأول زيارة لي للبنان منذ اغتيال والدي، وذلك لحضور قدّاس أقيم في ذكرى رحيل عائلتي. كان الشرق الأوسط لا يزال يغلي متأثّرًا بحرب الخليج الأولى. كانت سوريا قد أحكمت بسط هيمنتها على لبنان، وكانت تشرف على حكومة من الدمى المتحركة أبطالها بعض أمراء الحرب السابقين الذين أصبحوا وزراء في حينها. وضع اتفاق الطائف حدًّا للحرب الأهلية، وإن كان ذلك مقابل وصاية سورية، وكان يجري تطبيقه بهدف توفير الأساس الدستوري لمرحلة ما بعد الحرب عام 1990. وكما كان متوقّعًا، افتتح الطائف حقبة جديدة

في لبنان انتقلت فيها قاعدة السلطة لأول مرة من الطائفة المسيحية إلى تلك المسلمة، وما عزّز هذا الانتقال، تسمية رفيق الحريري رئيسًا للوزراء في ولاية استمرت ما يقارب عقدين من الزمن.

استفاد الحريري من علاقته المهنية مع الملك فهد، ملك المملكة العربية السعودية، لجمع ثروة في قطاع البناء. ثم انتقل لاستعمال ثروته الهائلة للتأثير على المشهد السياسي اللبناني وصياغته خلال الحرب الأهلية، من خلال تمويل مجموعات مختلفة في مراحل مختلفة من القتال. أخبرني إيلي حبيقة أنّ الحريري خصّص له مبلغ 250 ألف دولار شهريًّا عندما كان منفيًّا في زحلة إثر مرحلة الصراع على السلطة بينه وبين جعجع عام 1986.

عام 1993 كان الرئيس إلياس الهراوي المسيحي رئيسًا للجمهورية ونبيه برّي، الزعيم الشيعي وأحد أمراء الحرب السابقين، رئيسًا لمجلس النواب. أُطلق على هذه السلطة الثلاثية بين الهراوي والحريري وبرّي تسمية «الترويكا». كان الحكم منقسمًا على أُسُس طائفية انعكست على جميع مناصب الإدارة، أمّا القاسم المشترك الوحيد بين جميع هؤلاء الزعماء، فقد كان التبعية لنظام حافظ الأسد في سوريا التي باتت مادّة تندّر في كافة أنحاء البلاد: فلا قرار داخليًّا يُتَّخَذ من دون إرسال موكب سيارات الليموزين أولًا إلى دمشق. تلك التصرّفات المشينة والمهينة من نواحٍ عدّة فاقمت انعدام ثقة المواطنين بجميع زعمائهم.

في ذلك الوقت، عاش المجتمع المسيحي في ظلّ قمع شديد وذكريات الحرب الأليمة لا تزال ماثلة في حياة كل فرد؛ تفشّت الاستخبارات العسكرية اللبنانية والسورية على حدّ سواء وانتشر التنصّت على الهاتف ليطال الجميع، كما قُمع أيّ شكل من أشكال المعارضة. خلال حقبة احتلال السوريين لبنان، كان الشباب يختفون بنحو روتيني.

بعضهم احتُجز في السجون السورية حيث لا يزالون قابعين إلى يومنا هذا. مناخٌ من الخوف وانعدام الثقة خيّم على البلاد، بينما كان دويّ الانفجارات سمة منتظمة في المشهد اللبناني.

ذلك كان المشهد حين عُدت لأول مرة إلى لبنان بعد غياب طويل. هذه المرّة، قرّر فُرِد مرافقتي. عندما حطّت الطائرة، شرحت له أنني لا أضمن له عودتنا سالمين من تلك الرحلة. لم يكن لديّ أدنى تصوّر عمّا قد يحدث. عرف بعض أصدقائي بقدومي وحضروا لاستقبالي على مدرج المطار. مكثنا في شقة والدي في الأشرفية، ومن حسن حظي أنّها لم تكن المكان الذي قُتل فيه، فالجريمة كانت قد وقعت في منزل عمّي في بعبدا. لدى وصولنا إلى الشقة، أدركنا سريعًا أنّها كانت مهجورة منذ مقتل والدي، وهي تقع في المبنى نفسه الذي عشت فيه لسنوات عديدة مع جدّي الذي شغل الطابق الثاني منه، فيما أقام والدي في الطابق السادس. كانت شقة جدّي قد تحوّلت في تلك الأثناء إلى مكتب يشغله عمّي. في تلك الآونة، كان هناك، كالعادة، نقص كبير في الطاقة الكهربائية، ما أدّى إلى قيام قطاع من مزوّدي الكهرباء عن طريق المولدات بديلًا من الطاقة التي توفرها الدولة. بسبب التقنين الكهربائي، نادرًا ما كان المصعد يعمل. عمليًّا، أعتقد أن الكلمة العربية الأولى التي تعلّمها زوجي هي: «ما في أسانسير». حملنا حقائبنا وصعدنا عبر السلالم لنستقر في الشقة المظلمة. كان من الغريب بالنسبة لي أن أعود. فظاهريًّا، لم يكن شيء قد تغيّر. والجوّ لا يزال مُثقلًا بتهديد كامن. قبل التوجه إلى الفراش، دخلت إلى مكتب والدي وفتحت خزانة كبيرة: عشرون رشاشًا، معلّقة صفًا واحدًا على الحائط، أمسكت أحدها، شحنته ووضعته تحت السرير قبل أن أخلد إلى النوم. أصابت زوجي صدمة كبيرة لرؤية جانب منّي كان يجهله.

كانت تلك الرحلة بالغة الأهمية بالنسبة لي لأنّها سمحت لي باستعادة التواصل مع بعض زعماء البلاد والاستماع إلى قصصهم المتعلقة بوالدي. كان من المفترض أن أؤدّي دورًا سياسيًّا في إطار المشهد الجديد بحكم الإرث الذي كنت أحمله، لكنّ الصورة لم تكن قد اتّضحت بعد. وفي إطار جولات النقاش التي أجريتها مع مختلف الزعماء اللبنانيين، اقترح أحد أصدقائي من واشنطن أن أقابل سمير جعجع الذي كان معزولًا ومحتجزًا في مقرّه في «غدراس»، شمالي بيروت. كان موقفه ملتبسًا ولا أحد يثق به، وكان قد زار منذ مدة حافظ الأسد معزّيًا بوفاة ابنه باسل في حادث سيارة. بدا كأنّه كان يحاول التودّد مجدّدًا للسوريين إثر الاعتقال الذي تعرّض له أحد مستشاريه المقربين واعترافه أمام الأجهزة بعلاقاته مع إسرائيل، ما هدّد موقفه معهم. كذلك، كان جعجع قد قَبِل في البدء منصبًا وزاريًّا في الحكومة التي يسيطر عليها السوريون ثم عاد واعتذر عن ذلك. كان من الواضح أنّه يسعى لإمساك العصا من النصف والحفاظ على موقف وسطي، بما يتيح له طرح نفسه مرة أخرى على أنّه الزعيم المسيحي الوحيد المقبول بعد وفاة والدي ونفي ميشال عون إلى باريس.

قرّرت مقابلة جعجع شخصيًّا. لم يكن بوسعي مقابلته علنًا لأنّ أنصار عائلتي كانوا يكرهونه والعديد منهم يلقون عليه باللوم في عملية اغتيال والدي. شيء ما في داخلي دفعني لمقابلة هذا الرجل، وإن كان ذلك فقط بهدف إرضاء فضولي. بما أنّه كان يتعيّن علينا إبقاء اللقاء طيّ الكتمان، توصّلنا، زوجي وأنا، الى وسيلة لإلهاء الحارس الشخصي السابق لوالدي، الذي كان دائمًا إلى جانبي. في الواقع، كان فُرِد هو نفسه موضوع الإلهاء؛ ادّعى أنّه يحتاج لشراء شيء فيما تسلّلت إلى الخارج لأذهب إلى الموعد السرّي. قدت السيارة إلى أعلى الجبل ووصلت إلى قلعة بين التلال مخفيّة وراء كُتَلٍ من الألواح الخرسانية. عند مدخل المبنى،

لوّح لي رجال ملتحون وطلبوا مني التوقف مرتابين، ثم قادوني إلى شقة في الطابق الأرضي. استقبلني جعجع بمودّة وأرشدني إلى غرفة جلوس شرقية الطراز مزيّنة بالصلبان والرموز الدينية المتداخلة بشكل سريالي بصور دموية عن الحرب. جلست بارتباك واستمعت إليه وهو يتحدّث بإسهاب عن الأحداث التي أدّت إلى مقتل والدي. كان كلامه غير منطقي بالنسبة لي، وبدت تصريحاته غير متماسكة، ما أثار حذري على الفور. ظلّ جعجع يتحدّث عن مدى حبّه لوالدي وعن العلاقة الجيدة التي كانت تربط بينهما. كنت أعرف أنّ في ذلك كذبًا فاضحًا وفقًا لكافة التعليقات التي سمعتها من والدي عن جعجع ومن ضمنها عدم ارتياحه له وانعدام ثقته به. لم أصدّق شيئًا ممّا قال.

ولتقييم مشاعر جعجع تجاه والدي في تلك الآونة بشكل دقيق، لا بدّ من العودة الى المقابلة التي أجرتها معه مجلة «المسيرة» (العدد 26، 22 تشرين الأول/أكتوبر 1990)، والتي وردت في محضر دعوى اغتيال داني شمعون: «القوات اللبنانية حركة مقاومة... داني شمعون كان معنا يعذبنا ويتعبنا ويهلكنا. لم نحسّس الناس بمساوئه... أنا من حملت داني وجبران على ضهري، ثم جاء عون وطمّعهما. كانوا صغارًا كأشخاص ومشوا معه بقصد زيادة أرباحهم... وكأنّ السياسة ربح وتجارة. هذه الظواهر لا تستطيع حيالها شيئًا، قد تنجب ولدًا لا يكون كما تتمنّاه أن يكون، هل تقتله؟».

هذا التصريح لا يعبّر عن شعور رجل يكنّ الاحترام لمن يتحدث عنه.

بدأ صبري ينفد تدريجًا وأنا جالسة أستمع إلى تناقض تعليقاته حول والدي، بينما تابع من جهته حديثه، مستفيضًا بخطاب لاذع حول دور المسيحيين في تاريخ لبنان ودعوته الخاصة في هذا المجال. كان يشير إلى نفسه وكأنه المسيح الذي أُرسِل لتأدية مهمّة إلهية.

عند هذا الحدّ، ضقت ذرعًا ولم أعد أحتمل فقرّرت الرحيل، وعندما هممت بالخروج مدّ لي يده ليصافحني؛ حين لامست يدي راحة يده تجمّد الدم في عروقي وغمرتني مشاعر لا يمكن وصفها؛ أحسست بأنني أصافح الرجل الذي قتل والدي. لم أفهم أبدًا مصدر هذه المشاعر. في الواقع، في تلك الآونة، لم تكن قد ساورتني أبدًا فرضية أن يكون ضالعًا في هذه الجريمة. كنت مقتنعة بأن السوريين يقفون وراءها ولكن عندما تعرّفت إليه، انقلب عالمي رأسًا على عقب وسيطر عليّ ذلك الحدس المرعب بأنّه هو القاتل على الرغم من غياب أيّ أساس منطقي لهذا الشعور في ذلك الوقت.

عاد زوجي، وأدرك، حالما نظر إليّ، أنّ ثمّة سوءًا قد وقع. وحين أطلعته على حدسي لم تكن صدمته أقلّ قدرًا من صدمتي. تلك الليلة، لم يغمض لي جفن وفوق رأسي يهيم شبح جعجع وغيمة من اليأس. كنت عاجزة عن القيام بأي شيء. كيف لي أن أكشف الحقيقة؟

بعد فترة وجيزة من لقائي مع جعجع، عدت إلى باريس وحدي، فيما عاد فْرِد إلى الولايات المتحدة لمتابعة عمله. شعرت بأنني بلغت نهاية الطريق. الكتاب الذي نشرته، «باسم الأب»، والذي كان يتابع مجراه، والظهور الإعلامي الذي شغلني لفترة ما وصرفني عن الشعور بالعجز، خفّ زخمهما وانتهى.

في اليوم التالي، قبل رحلتي المقرّرة إلى واشنطن، كنت ممدّدة في حوض الاستحمام في الشقة الصغيرة التي استأجرتها على الضفة اليسرى من نهر «السين» وأنا أستمع إلى ماريا كاري وهي تنشد أغنية «بطل». تردّد صدى الكلمات في ذهني: «ثم يأتي بطل يمتلك قوة الاستمرار فتضع مخاوفك جانبًا وتُدرك أنك قادر على المضيّ قدمًا. عندما تشعر بغياب الأمل، عُد الى نفسك وكُن قويًّا وفي نهاية المطاف ستُبصر الحقيقة، أنّ

ثمّة بطلًا كامنًا في داخلك». غمرتني تلك الكلمات بإحساس عميق من التطيّر، شعرت بأن قدري يكمن في مكان آخر وبأنني أقف مجدّدًا أمام مفترق طرق. أدركت بشكل غريزي أنّ ثمّة أمورًا لا تزال عالقة في حياتي ويتعيّن عليّ مواجهتها. أحسست بأنني غير مكتملة.

في صباح ذلك اليوم، بدت رحلتي إلى مطار «شارل ديغول» مرهِقة، أمّا رحلة العودة بالطائرة إلى واشنطن فكانت طويلة ومتعبة. استقللت سيارة أجرة واتجهت إلى المنزل، ليستقبلني فْرِد طالبًا أن أتصل فورًا بلبنان.

في 27 شباط/فبراير 1994، انفجرت قنبلة في كنيسة «سيدة النجاة». كانت الحصيلة تسعة مصلّين والعديد من الجرحى. ادّعى بعض الأطراف أن العملية من صنع السوريين، ولكن أدلة أخرى، كُشف عنها النقاب لاحقًا، أشارت إلى سمير جعجع. فلطالما لجأت الميليشيا التابعة له لأساليب الترهيب، بما فيها الابتزاز والمحسوبية. وبما أنّ التفجير وقع بعد تطبيق قانون العفو العام الذي أُعلِن إثر انتهاء القتال، تمكّنت السلطات من اعتقاله. لم يثبت تورّطه في هذه المأساة على نحو قاطع، إلّا أنّ التحقيق فيها هو ما أفضى إلى انكشاف الجناة الحقيقيين المسؤولين عن اغتيال والدي. فقد أشارت الأدلّة والشهود إلى تورّط سمير جعجع المباشر في اغتيال عائلتي. نجح ضابط التحقيق، الذي صودف أنّه صديق مخلص للعائلة منذ أمد طويل، في تتبّع أثر الشخص الذي زوّد المجرمين الذين اغتالوا والـدي ببزات عسكرية للجيش اللبناني. وأدّت هذه المعلومة إلى اعتقال الشخص الذي قاد السيارة صباح عملية الاغتيال. كرّت سبحة الاعترافات بعد هذه الاعتقالات والشهادات وشكّلت أرضيّة صالحة لرفع دعوى قضائية ضدّ سمير جعجع والمطالبة باتهامه. ففي القانون اللبناني، يُعتبر المتّهم مذنبًا إلى حين إثبات براءته. كُلّف صديق العائلة العزيز، القاضي المحترم منير حنين، بكتابة لائحة الاتهام.

أدركت أنّه كان يتعيّن عليّ أن أعود فورًا إلى لبنان، وجئت فعلًا في العام 1994. عدت إلى بيروت لمتابعة التحقيق، وكان فْرِد يتردّد إلى بيروت لملازمتي كلّما استطاع. أدركت أنّ الطريق أمامي طويل وشاق، فقد مضت أربع سنوات منذ تاريخ الجريمة. في أعقاب الحرب، أغفل قانون العفو العام 11 جريمة حرب من ضمنها جريمة اغتيال عائلتي التي كانت وحشية ومروّعة جدًّا فاعتُبرت من الجرائم الشائنة.

أثناء جلوسي في مقعد الطائرة، شعرت بأنني، على الأقلّ، بدأت أخيرًا بالقيام بعمل بنّاء لكشف حقيقة الموت المأساوي الذي لحق بعائلتي.

الغضب الفخر والجشع أيضًا
تتناوب على تغذيتك
الجلاد هو أنت
وروحك تقودك لرؤية المأرب
هذا كلّ ما هو مطلوب
ترفّع عن الغضب واللوم
لا تختبئ ولا تخجل
كلّنا على نفس الأثير
نتساءل كيف نغيّر المصير

مقطع من «لا مكان للاختباء».

5

وصلت إلى لبنان قبل اعتقال جعجع بوقت قليل. أُرسلت أرتال من السيارات المصفّحة لضرب حصار حول منزله في «غدراس»، ثم وُضع قيد الاحتجاز في وزارة الدفاع، حيث بقي حتّى انتهاء مدة سجنه.

حين هبطت الطائرة على الأراضي اللبنانية انهالت عليّ وسائل الإعلام، واشتدّت التدابير الأمنية من حولي بموازاة التحضيرات الجارية لمحاكمة جعجع في قضية اغتيال عائلتي. حرصت على متابعة التحقيق بالكامل وبأدق التفاصيل. ضميريًّا، أردت التأكد من سير الأمور وفق معايير النزاهة والفعالية، ولضمان ذلك، عملت على نحو وثيق جدًّا مع زملاء ومع ضباط كبار في وزارة الدفاع.

أكثر ما أدهشني خلال تلك الفترة هو القوة الهائلة للآلة الدعائية للقوات اللبنانية وقدرتها على نشر الأكاذيب حول براءة جعجع. فما إن بدأت المحاكمة، حتّى سخّر جعجع كافة المخصّصات المالية لقسم العلاقات العامة لحزبه للعمل على تبييض صورته وتقديم نفسه كضحية للمخطط السوري في لبنان.

واستمر جعجع في الادعاء زورًا أن الأدلة التي وردت في المحضر الاتهامي للجريمة كانت مدسوسة، متّهمًا السوريين بالسعي الى الإيقاع به وتلفيق التهمة له لأسباب سياسية، ومتّهمًا إياي بأنني بيدق في لعبتهم. في الواقع، لم أكن بيدق أحد. كنت في ذلك الموقع لأنّني أردت ذلك. في الحقيقة، لم يكن ثمة موقع أودّ أن أكون فيه سوى ذلك الذي يتيح لي البحث عن حقيقة من قتل والدي وعائلتي.

ما من شكّ في أن السوريين والرئيس الحريري، رئيس الوزراء آنذاك، كانوا يريدون التخلّص من جعجع الذي أثار غضبهم حين رفض تسلّم الحقيبة التي عرضوها عليه في الحكومة الجديدة. كان يسعى لتقديم نفسه بصورة اللبناني المخلص مع أنّه كان قد قاتل منذ سنوات قليلة مضت إلى جانب السوريين لإطاحة ميشيل عون والجيش اللبناني. لم يكن من الغريب على القيادة السورية أن تكشف عنه الغطاء، وتسمح بتداول بعض الأدلة التي تدينه، وألّا تعارض اعتقاله بدل أن تستمرّ في حمايته. والحقيقة أنّ الأدلة كانت واضحة بما يكفي لفضح تورّط سمير جعجع في مقتل عائلتي. كذلك كان من النادر جدًّا مثول أيّ مجرم من مجرمي الحرب الأهلية اللبنانية أمام العدالة. نظرًا لذلك، ولأنّ العدالة كانت ستأخذ مجراها هذه المرة في لبنان، قرّرت متابعة القضية وكشف الحقيقة.

تابعتُ عملية التحقيق بالكامل، ويمكنني أن أشهد أن السوريين لم يلفّقوا التهمة لسمير جعجع. السبب الوحيد الذي سمح بكشف الأدلة هو وجود ضابط من الجيش اللبناني كان يكنّ لوالدي محبة كبيرة وعزم على اقتياد قاتليه للعدالة؛ تابع القضية بتفانٍ ومن دون كلل، ولم تكن الحقيقة لتخرج إلى النور لولا التزامه بكشفها.

منذ البداية، اعتقلت السلطات ثلاثة أشخاص، من ضمنهم سمير جعجع، وُجّهت إليهم تهمة القتل، أمّا من بقي من المتهمين، فقد فرّوا

إلى خارج البلاد. حرص جعجع شخصيًّا على ترحيل المقاتلين الذين شاركوا في الاغتيال مباشرة بعد الحادث، كما أمر بأن يُحوَّل لهم ما يلزمهم من أموال.

أُرسل معظم أفراد فرقة الاغتيال إلى البرازيل حيث مكثوا بعيدًا عن متناول الانتربول. لم تؤدِّ تصرّفات جعجع هذه إلّا إلى تفاقم ذنبه. كانت محاولة فاشلة منه لكسر سلسلة القيادة التي تربط الجريمة به.

غسان توما هو أحد هؤلاء القتلة الذين دفع لهم جعجع مبلغًا كبيرًا من المال وأُرسلوا إلى الخارج فأدينوا غيابيًّا لتورّطهم بالاغتيال. كان توما رئيس جهاز الأمن في القوات اللبنانية قبل أن ينتهي به المطاف في الولايات المتحدة، وتحديدًا في ولاية فيرجينيا، حيث يقيم ويُقال إنه يستخدم بطاقات ائتمان تسدّدها وكالة الاستخبارات الأميركية. وحين طُلب رسميًّا من الحكومة الأميركية ترحيله رفضت تسليمه. كان غسان توما مسؤولًا عن كافة المسائل الأمنية في لبنان.

طوني عبيد، عنصر آخر حُكم عليه غيابيًّا أيضًا. كان يدير شعبة الحماية والتدخّل في جهاز الأمن التابع للقوات اللبنانية، وكانت علاقة ولاء مطلق تربط بينه وبين غسان توما وسمير جعجع، فالرجلان رفيقاه منذ سنوات عدّة، شاركاه في تحمّل الشدائد والمحن منذ البداية حين كان قائد الجبهة الشمالية في القوات اللبنانية في «دير القطارة». كان ذانك الملازمان محلّ ثقة جعجع.

بالإضافة إلى ذلك، كان طوني عبيد، لسنوات عديدة، مسؤولًا عن الحماية الشخصية لجعجع قبل أن يلتحق بما سمّوه «شعبة الحماية والتدخّل».

وحين مثل أمام القضاة، أكّد فؤاد مالك، رئيس أركان القوات اللبنانية سابقًا، والذي كان شاهدًا مهمًا خلال المحاكمة، أن علاقة وثيقة

جدًّا كانت تربط بين سمير جعجع وغسان توما وطوني عبيد، وأنّ من غير الممكن أن تكون عملية كبيرة بحجم اغتيال داني شمعون، قد نُفّذَت من دون معرفة جعجع وموافقته لأنّه كان يسيطر على مختلف مكوّنات القوات اللبنانية، وجهاز الأمن على وجه الخصوص.

ثم كشفت وقائع المحاكمة بالتفصيل أن غسان توما كان مسؤولًا عن إدارة العمليات خلال المجزرة وأن طوني عبيد كان مكلفًا بتنظيم الجانب التكتيكي للقتل، كما تولى عملية تزويد وتنسيق الأعتدة والمعدات المطلوبة، فضلًا عن مهام التدريب الذي جرى في مستودعات الحوض الخامس المهجورة في مرفأ بيروت.

وكانت القوات اللبنانية، في العام 1989، خلال حربها مع عون، قد اجتاحت المقرّ العام لحزبنا السياسي في مبنى «السنا» (SNA) في الأشرفية واحتلته. ومن المُخجل والمثير للاشمئزاز أن يُكشف أثناء المحاكمة أن توما وعبيد قد خطّطا ونسّقا عملية الاغتيال وهما جالسان على مكتب والدي الكائن في ذاك المبنى بالذات!

أحمد الله لأنّني، عند دخولي إلى عالم المجرمين الكريه هذا، كنت محاطة بمجموعة من الأنصار الأوفياء الذين أهملوا حياتهم وتفرّغوا لحمايتي ولجرّ جعجع أمام العدالة. جميع هؤلاء الشباب والشابات، من مساعدي والدي الإداريين إلى الحرّاس الشخصيين والرفاق الذين لن أذكر أسماءهم لأسباب أمنية، احتشدوا حولي وساعدوني من دون قيد أو شرط، معرّضين حياتهم وحياة عائلاتهم للخطر. كان الوضع شديد الخطورة بالنسبة لنا جميعًا. وفي هذا السياق، وفّر لنا الجيش اللبناني حماية بمنحنا تراخيص لحمل الأسلحة في كل الأوقات ومن ضمنها الأسلحة الصغيرة والرشاشات. شخصيًّا، كنت معتادةً حياة الأسلحة والميليشيات، لم يكن من الصعب عليّ التكيّف مع ظروف حياتي.

ولكن، مرة أخرى، لم يأتِ التهديد من القوات السورية أو من الفصائل الفلسطينية بل من القوات اللبنانية المسيحية ومن أنصار جعجع على وجه الخصوص.

أقيمت جلسات المحاكمة العلنية الوجاهية في قصر العدل، مرة في الأسبوع، وعلى مدى سنة كاملة، ترأّسها المجلس العدلي المُمثّل بخمسة قضاة؛ اثنان من المسيحيين واثنان مسلمان وقاضٍ درزي. في حينها، كان المدعي العام هو منيف عويدات، رجل محترم من الشوف وحليف قديم لجدّي كميل شمعون. ودارت المداولات في قاعة كبيرة للمحكمة تتسع لـ400 شخص على الأقلّ.

في الجانب السياسي، حظيتُ بدعم أساسي من إميل لحود الذي كان لا يزال قائدًا للجيش في حينها ومن رفيق الحريري الذي كان رئيسًا للوزراء. ومن مفارقات تاريخ الرجلين المشترك الطويل والشائك أنّ اعتقال سمير جعجع كان أحد الأمور القليلة التي اتفقا تمامًا بخصوصها.

عام 1994، كانت بيروت لا تزال تحمل أوزار 16 سنة من الدمار والفوضى. أكوام القمامة تتكدّس وتنتصب كالجدران في الشوارع وتفوح منها الروائح الكريهة. المرافق والخدمات العامة بالكاد تعمل، والفواتير غير المدفوعة تتراكم منذ سنوات. الشوارع مدمرة ومعظم المباني لا تزال مهملة، والثقوب وأضرار التفجيرات ظاهرة على واجهاتها.

هذا بينما كانت الحكومة الجديدة الخاضعة للوصاية السورية مشغولة بخوض مختلف مشاريع إعادة الإعمار. في الجوهر، كانوا يمنحون المشاريع لمحاسيبهم وأقاربهم وشركائهم ويملأون جيوبهم بعمولات سخية. أمراء الحرب السابقون الذين تولّوا حقائب وزارية جمعوا ثروات طائلة في تلك الأيام.

الحريري كان مشغولًا بالاستحواذ على كل ما يمكنه استملاكه ومن ضمنه منطقة وسط المدينة التي صمّم لها خطة تطوير ضخمة. بدا أنّ لديه مصالح مالية في أيّ مشروع من شأنه أن يدرّ ربحًا في لبنان، بما في ذلك ملكيّة قطاع جمع القمامة وحاويات النفايات على طول الأرصفة في وسط بيروت. حتّى إنّ ثمة مكبًّا للنفايات عند طرف العاصمة أطلق عليه بعضهم تندّرًا اسم «جبل الحريري».

كانت شهيته الشديدة للأعمال فاضحة؛ لإشباعها، بسّط القوانين الضريبية وقدّم إعفاءات ضريبية للمستثمرين الأجانب. بفضل دعم البترودولارات السعودية، سرعان ما أصبح الحريري قوة اقتصادية هائلة منحته مكانة لا تُقهَر. في الوقت نفسه، أسهمت قوته المتنامية في تآكل شعبيته لدى القيادة السورية التي رأت فيه على مر السنين تهديدًا لهيمنتها.

باسم شركته، «سوليدير»، استملك الحريري مساحات واسعة من الأراضي في وسط بيروت لإعادة الإعمار والتطوير، فحصل على 250 فدانًا، أي ما يساوي زهاء ملياري دولار من العقارات لمشروعه، بفضل تنسيق مريب بين الحكومة التي يرأسها ومجلس النواب الذي كان يسيطر عليه سياسيًّا.

ذلك المشروع التنموي كان حافلًا بقصص الإخلاءات القسرية والملّاكين الذين خسروا ممتلكاتهم والعقارات المقوّمة بأقلّ من قيمتها بشكل صارخ، وحتى، في بعض الحالات، العقارات المُنتزعَة من أصحابها السابقين من خلال سلطة الاستملاك.

كانت «سوليدير» الشركة الأقوى نفوذًا في البلاد، تعمل بإشراف مجلس الإنماء والإعمار، وهي مؤسسة رسمية تابعة لمكتب رئيس الوزراء. في أيّ دولة أخرى، كانت هذه الصيغة تُعتبَر احتكارية، تشوبها

مصلحة شخصية، فمن الواضح أنّها تنطوي على تضارب في المصلحة. كان يجب تنظيمها. لكنّ ذلك ليس ضروريًّا في لبنان حيث المناصب الحكومية ليست سوى تراخيص تمنح أصحابها فرصة إساءة استخدام ثقة الجمهور.

لا بدّ من الإقرار بأن نفوذ الحريري وسيطرته المالية عبّرا عن تحوّل حاسم في ميزان القوى، انتقل بموجبه حكم البلاد من سيطرة أوليغارشية مسيحية إلى أخرى سنّية، طغى فيها وجود الحريري وثروته الطائلة على معظم العائلات السنّية التقليدية، وبشّر حكمه بانطلاق سلالة جديدة بقيادة عائلته والمقرّبين منه.

خيّم جوّ من الإحباط على البلد في التسعينيات. فقد ألقى الاحتلال السوري بثقله على الحياة العامة، على الرغم من وجود نزعة إلى تحقيق السلام. كان من المستحيل تحقيق أيّ تقدّم ذي أهمية من دون موافقة السوريين، ما أثبط عزيمة الأشخاص الآملين ببداية جديدة. ظلّ كل شيء على حاله. هي ذاتها الاصطفافات والانقسامات الكريهة، سوى أنّها قد بدأت، بالتدريج، تكتسب إطارًا مؤسّسيًّا.

كم يصعب عليّ تذكّر تلك الأيام في لبنان، حين كنت أخوض، وحيدة، حربًا قد انتهت عمليًّا بالنسبة إلى الجميع. فمبدئيًّا، كان السلام يعمّ البلد بأكمله. وحدي كنت مستمرة في خوض الحرب نفسها، الحرب التي سبق لوالدي الراحل أن خاضها مع الجيش بقيادة الجنرال عون المنفيّ اليوم في فرنسا، ضدّ ميليشيا القوات اللبنانية التابعة لجعجع. هي نفسها، ولكن هذه المرة، بدل أن تخاض في الشوارع، تدور رحاها في قاعة المحكمة.

من وجهة نظر شخصية، كنت أواجه تحدّيات كبيرة. تعرّضتُ للتجريح على عدّة مستويات من وسائل الإعلام التابعة للقوات اللبنانية

والتجييش الدعائي الذي مارسته ضدّي. فقد كان جعجع يستند إلى مجموعة لا يُستهان بها من الصحافيين تشكّل ماكينة إعلامية بملايين الدولارات، دائمة الجهوزية لتلبية أوامره ورغباته.

كان فريق دفاعه يتألف من زهاء 150 محاميًا يحضرون كافة الجلسات، معظمهم من عناصر الميليشيا السابقين الذين استبدلوا الزيّ العسكري بثوب المحاماة الأسود. ملأوا الجانب الأيمن من قاعة المحكمة فيما توافدت حشود من أنصار جعجع نُقلوا بالحافلات من قريته «بشرّي» لملء جانبي القاعة الفسيحة للمجلس العدلي، بينما جلست زوجته وأقرباؤه في الصف الأمامي.

حضرت جلسات المحاكمة أسبوعيًّا. كانت الرحلة للوصول إلى قصر العدل مغامرة بحدّ ذاتها؛ فجميع الطرقات مُغلَقة بحواجز التفتيش، وجعجع يصل إلى المحكمة في سيارة مصفّحة برفقة عشرات من الجنود المحيطين به والذين يلازمونه حتّى في قاعة المحكمة. ينتصبون كجدار من الترسانات البشرية بينه وبين الجمهور. بالكاد كان يظهر خلف الدرع البشرية، أصلع، طويل القامة، ونحيلًا. كان يجلس في ظلّهم متجهّم الوجه ومحدّقًا بمنصّة الشهود.

كنت أهاب تلك الجلسات التي كنت خلالها أستجمع كلّ ما أوتيت من قوة لولوج قاعة مفعمة بمشاعر الحقد والكراهية تجاهي. فبالنسبة لمؤيّدي جعجع، كنت أنا المحرّضة والشريرة. بمرور السنوات، كنت قد اعتدت كراهية بعض الناس لي. رغم ذلك، ورغم تعوّدي على سلوكية هؤلاء تجاهي، ظلّ الأمر يزعجني.

لم يرافقني خلال هذه الجلسات سوى زوجي وعدد محدود من الأصدقاء ومجموعة من الأنصار المخلصين، كما حضرت والدتي بعض الجلسات عندما كانت تأتي من لندن لزيارتي. كنا نجلس معًا في

الصفوف الأربعة الأمامية داخل القاعة الواسعة التي كانت تعجّ بمئات من أنصار جعجع.

أمّا عمّي ومعظم أفراد عائلتي فبقوا بمنأى عن إجراءات المحكمة. كلّف الحزب السياسي محاميَيْن شاركهما وكيلي، المحامي الأستاذ جوزف مخايل، ووكيل أختي، المحامي الأستاذ رَشاد سلامة، ووكيل والد إنغريد، المحامي الأستاذ عساف الهاشم.

استمرّت حياتي على هذا المنوال طيلة عامين وأكثر؛ مرة في الأسبوع أجلس في قاعة المحكمة للاستماع إلى مجريات المحاكمة، بينما أكافح، خلال الأيام التي تفصل بين جلسة وأخرى لردّ هجمات الدفاع. في معظم الأحيان، كان ذلك يعني التعامل مع الأضرار الناجمة عن كل جلسة، بما فيها سعي الدفاع إلى تخويف الشهود، فضلًا عن جميع الحِيَل القانونية التي كان الدفاع يلجأ إليها لتعطيل المحاكمة. في البداية، قاطعوا المحاكمة لأشهر عدّة عبر اختلاق الذرائع والمماطلات السياسية التي لا تنتهي.

كلّ ذلك أدّى إلى تأجيل متكرّر، إلّا أنّ القضية التي كان المحقق العدلي الأستاذ منير حنين قد جمعها كانت شاملة ومختصرة، ووردت في مضبطة الاتهام وقائع وقرائن دامغة لا يمكن تجنّبها أبدًا. هكذا، أخيرًا، بدأت المحاكمة.

في حالة سمير جعجع، إذا ثبت أنّه مذنب بتهمة واحدة، كاغتيال والدي مثلًا، يصبح بالإمكان تقديم أيّ تهمة أخرى في إدانته. ذلك يشمل حادثة الاغتيال التي تعرّض لها قائد مسيحي آخر في القوات اللبنانية يُدعى إلياس الزايك، وتلك التي طالت رئيس الوزراء السابق رشيد كرامي الذي لاقى حتفه في عملية دقيقة من خلال تفجير قنبلة وُضعت تحت مقعد الطائرة المروحية التي كان على متنها وانفجرت في الجوّ. وعلى

الرغم من الانفجار، حطّت المروحية على الأرض ونُقل بقية الركاب إلى المستشفى. كان عناصر القوات اللبنانية قد فجّروا القنبلة من مركب في البحر المتوسط بينما كانت المروحية تحلّق على علو منخفض.

بالعودة تاريخيًّا إلى الوراء، عبر مراجعة سجلّ سمير جعجع، يمكن القول إنّ تصفية عائلتي واغتيال آل فرنجية لم يكونا سوى بعض من الجرائم التي ارتكبها خلال ارتقائه الدموي سلّم السلطة. فقد كان ثمّة جرائم أخرى في سجلّه. في العام 1984، اتُّهم باغتيال غيث خوري، الذي كان قد شكّل له تهديدًا محتملًا في ما يتعلّق بمنصبه القيادي. قُتل خوري أثناء خروجه من منتجع على شاطئ جبيل. خلال الهجوم، أُصيبت زوجته بجروح ونُقلت الى المستشفى، إلّا أنّهم عادوا وأردوها بالرّصاص وهي على طاولة العمليات داخل المستشفى.

بين عامي 1989 و1990، خلال المواجهة مع عون، أعدمت ميليشيا القوات اللبنانية جنودًا من الجيش اللبناني بوابل من الرصاص اخترق مؤخرات رؤوسهم في منطقة نهر الموت، كما عمدوا إلى توقيف عائلات جنود الجيش اللبناني وسجنهم وتعذيبهم. وفي 1 تشرين الأول/أكتوبر 1990 هاجمت القوات اللبنانية مجموعة من المدنيين معظمهم من الجامعيين والجامعيات الذين كانوا يتظاهرون من أجل السلام. في ذلك اليوم، قتل عناصر القوات وجرحوا ما يفوق مئة شخص.

كذلك، بحسب ما ورد في وثائق الدعوى، اعترف جعجع بأنّه، في أعقاب العملية العسكرية العنيفة والمميتة التي قادها في 15 كانون الثاني/يناير 1986 ضدّ إيلي حبيقة، قبل أن يستولي على قيادة القوات اللبنانية، أمر غسان توما بمطاردة حبيقة إلى زحلة. استجابة له، كلّف توما أحد الكهنة بمهمّة تفجير المقرّ العام لأبرشية الروم الكاثوليك في زحلة. خلال الانفجار، أُصيبَ الوزير السابق ونائب رئيس مجلس النواب،

إيلي الفرزلي، الذي لا يزال وجهه يحمل ندوب هذا الانفجار الذي أودى بحياة مواطنين آخرين. فشلت محاولة اغتيال حبيقة لأنّ الانفجار وقع قبل أن يدخل المشاركون إلى الاجتماع في الموقع المعيّن. في أعقاب هذه المحاولة الفاشلة، انفجرت سيارة حبيقة في الأشرفية وقُتل سائقه.

في حادث آخر، في تشرين الأول/أكتوبر 1988، بعث جعجع برسالة شفهية عبر زميله كريم بقرادوني إلى الرئيس الأسبق أمين الجميّل يحذّره فيها ويدعوه الى البقاء بعيدًا عن السياسة ومغادرة البلاد على الفور. اتصل الجميّل بالنائب العام التمييزي القاضي جوزيف فريحة وأبلغه بالأمر طالبًا منه تدوين الحادث في محضر. في 11 تشرين الأول/ أكتوبر 1988 دوّن النائب العام في المحضر ما يلي:

«أبلغنا الرئيس الأسبق أمين الجميّل بصفة رسمية بما يلي:

«بتاريخ السادس من هذا الشهر، سمع من أمين سرّه بأنّ الأستاذ كريم بقرادوني يريد الاجتماع به في بيته فرفض هذا الأخير. ثم علم أن بقرادوني اتصل بزوجته السيدة جويس وألحّ عليها بطلب الاجتماع إليها لأمر هام جدًّا فقبلت بذلك واجتمعت به في مقر الجمعية الخيرية التي تديرها في سنّ الفيل. أبلغها الأستاذ بقرادوني رسميًّا بأن جعجع قرّر أن على الرئيس الجميّل مغادرة البلاد في غضون يومين أو ثلاثة أيام وإلا أجهز عليه وعلى عائلته وأنه، أي الأستاذ بقرادوني مكلّف بإبلاغها هذا الأمر لأنّ الرئيس الجميّل لم يقبل باستقباله لإبلاغه بالأمر... وبالنتيجة، انصاع الرئيس الجميّل للأمر إذ يبدو أنّه تأكّد من جدّية الرسالة وتصميم مرسلها، وخاف من سمير جعجع و«سمير بيخوّف» على ما قاله الشاهد بقرادوني أمام المجلس العدلي».

في الواقع، كان جعجع مقتنعًا بأن واجب جميع زعماء الجانب المسيحي يقضي بالتنسيق معه، معتبرًا أن دوره كقائد لأقوى ميليشيا

مسيحية هو بحدّ ذاته تثبيت لشرعية قيادته العسكرية للمجتمع. في الواقع، كان العداء بين والدي وجعجع قد بلغ ذروته عندما أعلن والدي ترشّحه لرئاسة الجمهورية عام 1988 من دون استشارته مسبقًا. وفي تصريح لوالدي ضدّ سمير جعجع نُشر في الصحف خلال تلك الفترة، وصفه بأنّه يكنّ له مشاعر العداء والكره ويطمح إلى تولّي منصب حاكم المنطقة الشرقية.

وكانت العلاقة بينهما قد تدهورت تدريجًا منذ وفاة جدّي كميل في العام 1987، ما ترك فراغًا في منصب قيادة «الجبهة اللبنانية». فقد اعتبر والدي أنّ العُرف يقضي بأن يتولّى هو سدّة رئاسة الجبهة لأنّ عضوًا في حزب الكتائب، أي سمير جعجع، يتولّى قيادة القوات اللبنانية.

لم يوافقه جعجع الرأي وضغط باتجاه انتخاب جورج سعادة، حائلًا دون انتخاب داني رئيسًا بدل والده، كان ذلك هو المسمار الأول الذي يُدقّ في نعش علاقتهما. بعدها، حوّلت الجبهة سياستها وانحرفت باتجاه سوريا، تحت قيادة المكتب السياسي لحزب الكتائب والقوات اللبنانية. بالنتيجة، قرّر والدي إنشاء «الجبهة اللبنانية الجديدة» التي ترأّسها والتي لم تكن موالية للسوريين، وعيّن جبران تويني، وريث صحيفة «النهار» أمينًا عامًا. تحت لواء «الجبهة اللبنانية الجديدة»، تبنّى والدي جملة من القرارات التي تعبّر عن دعمه الكامل للجنرال عون، وندّد جهارًا بسلوك القوات اللبنانية متّهمًا إيّاها بارتكاب المجازر وبالانحراف عن مبادئها. كما أوعز والدي إلى أعضاء في حزبه «الوطنيون الأحـرار»، وفي منظمّات سياسية مستقلة، للانسحاب من الجبهة اللبنانية. ثم، لدى تولّيه «الجبهة اللبنانية الجديدة»، أعلن عزمه على حلّ القوات اللبنانية كميليشيا ونقل العتاد والمعدات العسكرية إلى الجيش اللبناني.

ذُكرت هذه الأزمة السياسية في محضر المحاكمة العلنية الوجاهية وشُرحت بالتفصيل في وثيقة الحكم النهائي، وهو السجل الرسمي للدعوى؛ حيث جاء ما يلي:

«لم يقتصر الأمر على التهاجي والتراشق بالجرم السياسي المتبادل بل إن التنازع كان أعمق بكثير ومن شأنه أن يطال السيد جعجع في أعز عقائده وطموحاته. فالسيد جعجع الذي استولى بالقوة في كانون الثاني 1986 على القوات اللبنانية، عمل على ترسيخ زعامته فيها ووفّر التنظيم الهرمي المُحْكم لعناصرها وأمّن لها مصادر التمويل عن طريق الرسوم الباهظة والمختلفة التي فرضها، فبات له الرجال والسلاح والمال وبالتالي السلطة؛ كل ذلك تحت شعارات مختلفة أهمها المقاومة وأمن المجتمع المسيحي فوق كل اعتبار. وعمل على ألا ينازعه أحد على زعامة المجتمع المسيحي وأن لا ينفرد أحد من القادة المسيحيين باتخاذ أيّ قرار أو موقف بدون التشاور معه وحيازة رضاه المسبق (كما يُفهم من مدلول أقواله في المحاكمة)».

كذلك، ورد في وثيقة الحكم النهائي، بشكل لا لبس فيه، ما يلي:

«لقد بقي الأمر محتملًا بالنسبة لجعجع ما دام هذا الأخير له القوة المالية والعسكرية وبإمكانه بواسطتها أن يبقى مسيطرًا بالترغيب والترهيب على المجتمع المسيحي. ولكنّ المعطيات تبدّلت بعد الطائف وما نصّ عليه من حلّ للميليشيات».

وبحسب ما ورد في وثيقة الحكم النهائي، كان جعجع يأمل إنشاء تكتل سياسي بمواصفات محددة:

«التكتّل السياسي الذي يطمح إليه السيد جعجع لا بدّ وأن يكون بقيادته ويتعاطى فيه من يتعاطون السياسة من خلال طروحاته، لا سيما أن القادة المسيحيين كانوا إمّا ممّن يمون عليهم جعجع آنذاك (حزب

الكتائب ورئيسه) أو ممن سقطوا عسكريًّا وفقدوا حريتهم بالتعاطي في السياسة وبات ينتظرهم إمّا المحاكمة أو النفي (العماد عون) أو ممّن ابتعدوا طوعًا منذ سنوات (ريمون إده) أو ممن أُجبروا على الابتعاد (الرئيس أمين الجميّل) بأمر من جعجع نفسه وبخوف من بطشه» (إفادة الأستاذ بقرادوني ومحضر النائب العام التمييزي جوزف فريحة)».

كان من الواضح أنّه، فور إعلان انتهاء الحرب، سيُنزع سلاح الميليشيات، ما من شأنه أن يفقدها مزاياها الاستراتيجية والعسكرية. في ذلك الوقت، كان من المؤكّد أن يُعرض على الشخصيات السياسية المعتدلة، على غرار والدي، مناصب في الحكومة الجديدة. بالإضافة طبعًا إلى واقع أنّه الوريث الوحيد الشرعي لقاعدة والده الشمعونية، ما يخوّله قيادة شريحة مسيحية واسعة.

في ظل المناخ السياسي الجديد، كان من المتوقع أن يشهد عالم سمير جعجع تغييرًا جذريًّا. فبدل أن يبسط سيطرته على كامل المنطقة الشرقية، وهو الدور الذي عمل جاهدًا لتحقيقه طيلة السنوات الماضية، كان يواجه احتمال تهميشه ومنعه من تحقيق طموحاته كقائد مُطلَق. وبدا هذا الطموح واضحًا في رفضه المتصلّب الانضمام إلى الحكومات التي تشكّلت بعد اتفاق الطائف لأنّه لم يرضَ بأن يكون مجرّد شخصية أخرى في المشهد السياسي.

دفع المشهد السائد حول تراجع مكتسباته، جعجع إلى العمل سريعًا واتخاذ خطوات، قبل فوات الأوان، لفرض نفسه على البيئة السياسية الجديدة والحؤول دون تهميشه. من وجهة نظره، كان يجب الاستعجال في اتخاذ هذه التدابير قبل إعلان الدعوة الى نزع السلاح وقبل سريان مفعول قانون العفو العام المتوقع والذي يضمن منح الحصانة لجميع من ارتكبوا الجرائم قبل صدوره.

شكّلت جميع هذه الاعتبارات دافعًا قويًّا في إطار مخططاته القاضية بإزالة والدي في أسرع وقت ممكن. في ظل هذه الأوضاع، جُنّد العناصر لتنفيذ عملية الاغتيال. تلقوا تدريبات على امتداد عدّة أشهر في الحوض الخامس من مرفأ بيروت، الذي تسيطر عليه القوات اللبنانية. وبدت الحاجة الملحّة لتنفيذ تلك الخطوة واضحة في تصريحات جعجع إلى غسان توما، رئيس جهاز الأمن، خلال اجتماع تقييم عُقد في «غدراس» بعد أحداث 13 تشرين الأول/أكتوبر 1990 ودخول السوريين. وردت تلك المعلومة في التقارير الموثّقة خلال الشهادة التي أدلى بها رئيس دائرة الاستخبارات الأجنبية في القوات اللبنانية، الذي عاد وأكّد لي المعلومات شخصيًّا في تاريخ لاحق، إذ إنّه كان قد حضر الاجتماع مع غيره من رؤساء الأقسام وسمع عرضيًّا جعجع وهو يقول لتوما: «لا أريد سليمان فرنجية آخر في المنطقة»، وهو وصف لا ينطبق على أيّ شخص آخر غير داني شمعون، لأنّ سليمان فرنجية كان الناجي الوحيد في مجزرة والديه ووريث سلالة سياسية تقليدية. يشير هذا التعليق الى ضرورة قتل الأولاد الذكور في عائلتي. وقد أعقب ذلك التعليق سؤال وجّهه جعجع لتوما: «هل أدّيت العمل الذي طلبت منك تأديته؟» وكان الجواب: «أرسلت الشباب للقيام بجولة وسأعلمك بأيّ جديد فور عودتهم». ولم يكن الشباب الذين يقومون بجولة سوى عناصر مجموعة التدخّل الذين أُصدرت لهم الأوامر للقيام بجولات استطلاع في المنطقة المحيطة بمكان إقامة والدي تحضيرًا لعملية الاغتيال.

وكما اتضح لاحقًا، لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يخطط فيها جعجع لاغتيال والدي أو يأمر بذلك. فقد كانت هناك محاولة فاشلة سابقة لقتله، وكُشف عنها النقاب أثناء المحاكمة، من خلال إفادات الشهود.

في تموز/يوليو 1990، أمر جعجع أجهزة الأمن التابعة له بإعداد عملية لاغتيال داني. اتّصل عنصر من القوات اللبنانية يُدعى جورج خلاط بشخص آخر يُدعى يوسف غلاييني، كان يواجه مشاكل مالية، وسأله إن كان يريد تنفيذ العملية مقابل مبلغ كبير من المال. ولهذا الغرض، جرى اتصال بين غلاييني وجهاز الأمن في القوات اللبنانية.

ورد في وثيقة الحكم النهائي للدعوى، أنّ يوسف غلاييني «تظاهر بالقبول بعد أن كان قد أطلع مارون الخوري على الأمر وأعطى أحد ضباط الاستخبارات في الجيش اللبناني علمًا به، فطلب هذا من غلاييني المتابعة والتجاوب مع جهاز الأمن في القوات. فعاد يوسف غلاييني واجتمع بـ«رفيق الفحل» وبالمدعو «طوني العم» الذي تبيّن لغلاييني في ما بعد أنّه طوني عبيد، رئيس شعبة الحماية والتدخّل في جهاز الأمن، واصطحباه بتاريخ 1990/7/25 إلى مبنى الأمن في الكرنتينا حيث أوضح له طوني عبيد المهمّة المطلوبة منه وهي اغتيال داني شمعون ومن يكون برفقته محدّدًا له مكان المهمّة في منطقة الدكوانة – مار روكز حيث يتردّد داني شمعون للصيد والرماية. وتمّ تسليمه سيارة «رينو» مع وكالة باسمه ليستعملها في تنقلاته وليستطلع مكان التنفيذ. أبلغ غلاييني مارون الخوري بالأمر، وأعطى علمًا به المسؤول في مديرية الاستخبارات الذي طلب منه المتابعة والاتصال به. عاد غلاييني الى مركز الأمن في الكرنتينا، فجهّز له طوني عبيد ومعاونوه كمية من المتفجرات تقدّر بعشرين كيلوغرامًا وما يلزمها من أسلاك وصواعق وزوّدوه بمسدّس حربي عيار 7 ملم وكاتم للصوت، وأخفوا المتفجّرات ولواحقها في سيارة مرسيدس 280، سلموه إياها بعد أن أطلعوه على كيفية وضع المتفجرات في المكان المحدّد، ونبّهوا عليه أن يسحب البطارية التي يتم بواسطتها التفجير إذا لم يحضر داني شمعون إلى ذلك المكان، وأفهموه أن مهمته

تنتهي عند وضع البطارية والمتفجرات، وأن شخصًا آخر سيقوم بالتفجير، ووعدوه بمكافأة مالية، وعيّنوا له موعد الاغتيال في 1990/8/5. إلّا أن الغلاييني سلّم السيارة إلى مديرية الاستخبارات فقام خبير من الجيش بتفجير كمية المتفجرات بعد نقلها من السيارة الى مكان آمن. وعندما لم يعد غلاييني إلى مبنى جهاز الأمن، ألقى عناصر هذا الجهاز القبض على زوجته «فابيولا» اقتصاصًا منه، وبقيت محجوزة لديهم مدة ثلاثة أشهر ونصف الشهر، بينما تمكّن هو وأولاده بمساعدة الجيش من الهرب إلى مصر ومن ثم عاد بعد شهر ونصف الشهر».

تضافرت جميع هذه العناصر خلال جلسات التحقيق الأولى لتدعيم القضية ضدّ جعجع، ولم تنجح هيئة الدفاع في التشكيك فيها. فقد كانت عوامل الدافع والوسيلة والإرادة كلّها متوفّرة لتنفيذ هذه الجريمة الرهيبة. كلّما تقدّمت المرافعات، كان من الصعب دحض ذنب جعجع.

بالنسبة إليّ، كان من الرهيب أن أُضطَرّ للاستماع إلى تفاصيل هذه العملية، إلّا أنّني كنت مدينة لنفسي ولعائلتي بأن أعرف الحقيقة كاملة.

أعلم أنّ ألمي حقيقي
لأنّي أشعر به
غارقة في دوامتي
في أفكاري المتلاطمة
أريد أن أهدأ
حتّى أجد في المبدأ
السلام الذي سيحرّرني
من شياطيني التي تكبّلني
أريد مقارعة الجهل
العائق الحقيقي والحزين
أمام الذاكرة الثكلى والمنسيّة للسنين
لآلهتي التي وُلدَت على الأرض
وُلدتُ ابنةً للموت والحياة
أنا كتلة من أنفاسٍ استجمعتها
أودّ محاولة الاستذكار
أودّ محاولة الاستسلام
التحرّر من رعبي
الذي، كل يوم، يفتك بي

مقطع من «ألمي حقيقي».

6

كانت عملية التخلّص من ملابس والدي وأغراضه الشخصية من أكثر اللحظات إيلامًا بالنسبة إليّ، فكل غرض كان يحمل معه ذكراه وبصمات وجوده وأدلة على حياته الخاصة. قُتل وهو في السادسة والخمسين من العمر، في أوج عطائه؛ كان قويًّا، وشغوفًا ينبض بحياة عاش كل دقيقة منها حتّى الثمالة. شكّل موته مأساة لا مثيل لها، وضاعف مقتل إنغريد والأولاد من فظاعة العمل وعبثيته.

خلال عملية تنظيم ثيابه، كنت أرتّب أحد أدراجه عندما وقعت على رسالة مخبّأة في زاوية تحت جواربه أطلعه أحد الأشخاص من خلالها على نقاش دار في مكان ما في «عمشيت» بين جعجع وأنصاره حول مصير داني. يفيد مضمون الرسالة أنهم كانوا يخططون لقتله.

شكّل العثور على هذه الرسالة صدمة بالنسبة لي لأنّني أدركت أنّه كان يعلم أنّ جعجع يريد قتله. كان يتمتّع بحس كبير حول حتميّة المصير وإلّا لما تسلّح بالشجاعة التي كان يتمتّع بها خلال أسوأ أيام القتال. سمعت قصصًا كثيرة عن مآثره في ميدان المعركة، وضع نفسه دائمًا في الخط الأمامي للجبهة لحماية رجاله، تجرأ دائمًا على الذهاب حيث

يخشى الآخرون، وعرّض حياته دائمًا للخطر في سبيل إنقاذ غيره. كان بطلًا بطبيعته. وفي نهاية المطاف كلّفته البطولة حياته. ولكن بالنسبة لجندي أو لقائد، أفهم اليوم أنّه ما من وسيلة أفضل للموت إلّا أثناء أداء الواجب. خلال اللحظات العديدة التي أتأسف فيها على خياراته في ملازمة البيت في ذاك اليوم المشؤوم، أذكر أنّه قضى وهو يسجّل موقفًا... كان موقفه الأخير. أمّا أكثر ما هو معيب في تلك الجريمة فهو التصفية الوحشية التي ارتُكبت بحق زوجته وولديه، أخويّ، الذين قُتلوا معه، وهو ما يجعل من هذه الجريمة الكريهة جريمة مدبّرة مع سبق الإصرار والتصميم، وليست عملًا من أعمال الحرب.

تشكّل الرسالة التي وجدتها في الدرج اليوم إحدى وثائق المحاكمة، وهي تتضمّن تحذيرًا لوالدي بأنهم سيأتون متنكّرين ببزّات الجيش اللبناني. وفي هذا السياق، شهد أحد حرّاسه الشخصيين أنّه قبل أيام قليلة من وقوع الجريمة وبينما كان يقف معه على الشرفة، تأسف والدي على ما آلت إليه الأمور، وفي لحظة تأمّل، قال له، «سيأتون لقتلي وهم يرتدون بزات الجيش اللبناني». وهو بالضبط ما حصل.

المعلومات التالية مستقاة من ملف الدعوى المؤرخة في 24 حزيران/يونيو 1994، وهو محضر المحاكمة العلنية الوجاهية. وتستمدّ هذه المعلومات أهميتها من كونها تنطوي على نكران لما حصل في ما يخص مقتل والدي، إذ لا يزال حتّى اليوم عدد كبير من الناس يسألونني إن كنت أعرف من قتل والدي؟ وهو سؤال يدهشني لأنّ جميع المعلومات متوفّرة لكنّها مُوّهت بالجهود الدعائية التي بذلها جعجع لطمس حيثيات الجريمة. الأسوأ هو أنّه، مع مرور الوقت، شُطبت الدوافع والحقيقة الكامنة خلف جريمة اغتيال داني شمعون، أُزيلت على أيدي مؤرخين حرّفوا الوقائع في مجتمع يبدو أنّه يمجّد القتلة ويرقى بهم الى مرتبة القادة.

عدد قليل من الأشخاص قرأوا محاضر جلسات المحاكمة مع أنّ التفاصيل بحذافيرها كانت تُنشر أسبوعيًّا في جميع الصحف. في المحضر الرسمي للدعوى، ورد وصف تفصيلي للعملية، وهو جزء لا يتجزّأ من حقيقة ما حصل في ذاك اليوم المُظلم، وكما قيل: «نكران الوقائع لا يغيّرها».

في ما يلي مقطع من المحضر:

«كانت خطة الاغتيال تقضي بتولي عناصر من شعبة الحماية والتدخل التنفيذ وهم يرتدون لباس الجيش، فكُلّف المتهم جان يوسف شاهين بتأمين الألبسة من تلك التي غنمتها القوات اللبنانية عند احتلالها ثكنة الجيش في صربا.

قبل مقتل داني بثلاثة أيام، تسلّم طوني عبيد وجان شاهين وعاطف الهبر كرتونة الألبسة العسكرية ونقلوها الى مكتب جورج فغالي المقابل للمستودع بالكرنتينا (وهو موقع المقر العام).

مساء يوم السبت في 1990/10/20، اتصل المتّهم طوني عبيد برفيق سعادة وطلب منه أن يسلّم عاطف الهبر رشاشات «إنغرام» وخمسة مسدّسات حين حضوره حوالى الساعة السابعة مساءً.

وفي فجر يوم 1990/10/21 عُقد اجتماع في مكتب المتّهم جورج فغالي في مبنى شعبة الحماية والتدخّل ضمّه الى المتهمين الآخرين عاطف الهبر وكميل كرم وإيلي عقيقي وجان سميّا ونجا القدوم والياس عواد المعروف بـ«جوليانو» ورفيق سعادة. وأبلغ فغالي المجتمعين بوجوب تنفيذ المهمّة التي تدربوا من أجلها وهي اغتيال داني شمعون وفقًا للخطة الموضوعة. وكان عليهم ارتداء ثياب الجيش أثناء التنفيذ فوُزّعت عليهم الألبسة العسكرية والسلاح.

وانطلقوا من الكرنتينا الى بعبدا في ثلاث سيارات بقيادة عاطف الهبر الذي كان يضع إشارة ملازم أوّل ويحمل بيده جهاز موتورولا

– وهي ماركة تستعملها القوى الرسمية – تأكيدًا للصفة العسكرية الشرعية التي ينتحلها مع رفاقه. وهذا الجهاز كان من جملة الأعتدة التي غنمتها القوات اللبنانية عندما احتلّت مبنى المديرية العامة لقوى الأمن الداخلي بتاريخ 1990/2/4 في بداية حربها مع العماد عون، وكان قبلًا بإمرة الملازم الأول في قوى الأمن أسعد نهرا.

ولدى وصول المجموعة الى المكان المقصود، توقّف عاطف الهبر بسيارته على بعد عشرين مترًا من بنايات سنتر شاهين، وتوقفت وراءه السيارتان الباقيتان ثم تقدّم عاطف الهبر بسيارته وأوقفها أمام البناية التي يقع فيها منزل داني شمعون، ثم ترجّلت المجموعة من السيارات.

والتقى عاطف الهبر على مدخل البناية بالناطور، الشاهد نبيه عارف نخلة، فوضع يده على رقبته وأمره بأن يصعد معه بعد أن سأله عما إذا كان داني شمعون في منزله، فأجابه الناطور: لم أشاهده منذ ثلاثة أيام. وصعد برفقة عاطف الهبر كل من نجا القدوم وإيلي عواد وكانوا ينقلون رشاشات من نوع «إنغرام» ومسدّسات مع كواتم للصوت يخفونها تحت ثيابهم، بينما بقي في وضع الحماية جان سميّا وجورج فغالي على مدخل البناية وكميل كرم وفريد سعادة وإيلي عقيقي بالقرب من السيارة.

عند وصول عاطف الهبر ورفاقه الى منزل داني شمعون، وهو كناية عن شقة تقع في الطابق الخامس من البناية، طلبوا من الناطور نبيه نخلة أن يطرق الباب ففعل. فتحت الخادمة جانيت دكاش بعدما سألت عن هوية القادم، وقال لها الناطور: «افتحي يا جانيت أنا أبو جورج»، وكانت الساعة تقارب السادسة والنصف صباحًا.

عندما فتحت الشاهدة جانيت الباب وكان قد لحق بها الولدان طارق وجوليان، دخل عاطف الهبر وإيلي عواد فيما بقي نجا القدوم في

الخارج عند الباب وقد طلب من الناطور الانصراف، فنزل هذا الأخير الى غرفته الكائنة على مدخل البناية.

فور دخول عاطف الهبر سأل عن المغدور داني وإذا بهذا الأخير يدخل إلى الصالون ويسأله عما يريدون فأجابه: «فوت بدي إحكي معك كلمة».

ولما استدار داني ليجلس معه في الصالون الصغير اشتبه بأمره فاشتبك معه بالأيدي وتعاركا وهوى معه على المقعد وكان إيلي عواد قد أجبر الشاهدة جانيت والخادمة السريلانكية على الدخول الى الحمام ودفع بالولدين إلى جهة أخرى.

ولكنّ تعارك شمعون والهبر وقدوم إنغريد، زوجة داني، الى المكان وصراخ الأولاد اقتضى تسريع العملية. فاندفع نجا القدوم لمؤازرة رفيقيه في الداخل وأخذ الثلاثة يطلقون النار على داني وزوجته كما أطلقوا النار على ولديه طارق وجوليان.

تبيّن أن المغدور داني أصيب بأربعة عشر طلقًا ناريًّا من عيار 9 ملم، وأن زوجته إنغريد أُصيبت بعشر طلقات من عيار 7 ملم، وطارق أصيب بثلاث طلقات من عيار 9 ملم وجوليان بأربع طلقات من العيار ذاته».

وفي وقت لاحق تعرّف جبران التويني إلى عاطف الهبر بأنّه الغريب الذي جاء إلى منزله في «بيت مري» بزيّ ضابط برتبة ملازم في الجيش اللبناني بحجة أنّـه كان يسعى للاطمئنان على سلامته، ولكن حين استفسر التويني من ضابط أمن مُلحق باللواء الأوّل المسؤول عن منطقة المتن عن الزائر المجهول، أُفيد بأنهم لم يرسلوا أيّ ضابط إلى منزله. بعد مضيّ 36 ساعة على زيارة عاطف الهبر إلى جبران، قُتل والدي.

تعرّف التويني وحرّاسه الشخصيون بسهولة إلى صورة عاطف الهبر من بين العديد من الصور التي عُرضت عليهم، وأكّدوا أنّه الشخص الذي انتحل صفة ملازم في الجيش لزيارة مكتبه.

وجاءت شهادة فادي صعب لتأكيد هذه الأدلة، وأضاف صعب أن اسم جبران كان واردًا أيضًا على قائمة القوات اللبنانية لأسماء الأشخاص المستهدفين بعمليات اغتيال. كان مستهدفًا من جهاز الأمن في القوات بسبب موقفه المعادي لها. وأُفيد بأن عاطف الهبر ورفاقه لم يتمكنوا من مهاجمته بسبب وجود حرّاسه الشخصيين.

جهاز الاتصال اللاسلكي من نوع «موتورولا» الذي كان يحمله عاطف الهبر والذي تركه سهوًا خلفه هو دليل آخر من الأدلّة الملموسة التي برزت في المحاكمة؛ سقط الجهاز على الأريكة في الصالون الصغير أثناء العراك مع داني.

إيليا عبد النور، والد إنغريد، كان أوّل من وجد الجهاز، لأنّه أوّل من دخل الشقة، برفقة ممثّل الصليب الأحمر، جوزف خوري، بعد عملية الاغتيال، وهو الذي قاد الملازم الأول، حسين عاصي، الضابط في الجيش الذي حضر الى مسرح الجريمة، إلى الجهاز. سلّم الملازم عاصي الجهاز إلى عبدو نجيم، النقيب في الدرك ومساعد قائد مفوضية بعبدا، مقابل إيصال موقّع من قائد المفوضية الرائد روبير جبّور.

خلافًا لادّعاءات الدفاع الذي زعم أنّه قد تمّ دسّ جهاز الموتورولا في المكان لاتهام القوات اللبنانية، لم يكن هناك أيّ شكّ في وجود ذلك الجهاز منذ البداية. كان ظاهرًا بشكل جلّي على المقعد الى جانب والدي في جميع الصور المأخوذة لمسرح الجريمة ومن ضمنها تلك المروّعة التي نُشرَت في مجلة «باري ماتش» الفرنسية والتي تُظهر والدي وعلى جبينه ثقب رصاصة.

جهاز «الموتورولا» المستعمَل في الجريمة من النوع الذي تستعمله قوى الأمن الداخلي اللبناني، سرقته القوات اللبنانية من الثكنات أثناء المواجهات مع عون. وكما ذكرنا سابقًا، تعرّف أسعد نهرا، الملازم الأول

في قوى الأمن الداخلي، على الجهاز «من رقمه ومن آثار انبعاج طفيف في مفتاح الصوت وخدش في زاويته العليا».

وفقًا لملفّ الدعوى، «أكّد الملازم نهرا في إفادته الأولية بتاريخ 1990/11/7 أنّه على أثر دخول مسلّحي القوات اللبنانية إلى المقرّ العام لقيادة قوى الأمن الداخلي في 4 شباط/فبراير 1990، وضع الجهاز المذكور مع مسدّسه الأميري في خزانة داخل مستودع الأدلة الجنائية، إذ علم أن مسلحي القوات اللبنانية قد أقاموا حاجزًا على المدخل الرئيسي لمبنى المديرية العامة، وخشية من أن يستولوا على الجهاز والمسدس لدى خروجه، وضعهما في المستودع.

وفي 7 آذار/مارس 1990 عاد إلى المكتب، وبالتحديد إلى مكتب الأدلة الجنائية، ليجد الخزانة مخلوعة وجميع محتوياتها قد سُرقت. وقد أعطى النقيب عبد الساتر إفادة مماثلة، وأضاف أنّه قد نظّم تقريرًا بالواقع ورفعه، بحسب التسلسل الإداري، إلى المدير العام.

وأفاد الشاهد عيسى سركيس شاهين، التابع لجهاز الأمن في القوات، أمام المحقق العدلي، أنّه على إثر دخول القوات اللبنانية إلى مبنى المديرية العامة لقوى الأمن الداخلي، طلب منه الدكتور جبيلي، وهو مساعد رئيس جهاز الأمن في القوات غسان توما، كما طلب من غيره، أن يذهبوا الى المديرية العامة لقوى الأمن الداخلي وأن يجمعوا الأعتدة التي قد يحتاج إليها كلّ منهم في حقل اختصاصه.

وفقًا لإفادات هؤلاء الشهود وكثيرين غيرهم، ما من شكّ في أن جهاز الأمن التابع للقوات اللبنانية هو من اقتحم المديرية العامة لقوى الأمن الداخلي، واستولى خلال العملية على أجهزة موتورولا يدوية لاسلكية وثابتة.

كذلك فشل الدفاع في إثبات أنّ الأجهزة المسروقة سُلّمت إلى الجيش اللبناني. فعندما أُجبرت القوات اللبنانية على إعادة الأعتدة التي سرقتها، لم يتسلّم المؤهّل الأول ميشال نجيم من القوات أيّ جهاز اتصال يدوي، كما ورد في إفادته.

أمّا جهاز الموتورولا المذكور، الذي تعرّف إليه صاحبه ووسمه، فكان لا يزال بحيازة القوات اللبنانية في تاريخ حصول الجريمة، وتحديدًا بحيازة عاطف الهبر، لدى اقتحام المجموعة الشقة صباح الجريمة. كان ذلك أهمّ دليل في القضية يدين القوات اللبنانية ويثبت أنّها هي من ارتكبت الجريمة. فشل الدفاع في إثبات العكس خلال محاكمة دامت سنة كاملة.

حاول جعجع أن يجادل ويقدّم الحجج بقوله إنّ المجرم لا يترك دليلًا خلفه في مسرح الجريمة. كان ذلك يصحّ لو أنّ جهاز الاتصال تُرك عمدًا لا عرَضًا نتيجة عدم كفاءة المجرمين. وقد أكّد أحد الشهود، كميل كرم، أنّ عاطف الهبر حمل جهاز اتصال لاسلكي موتورولا الى ساحة الجريمة وسقط منه هناك سهوًا خلال العراك.

ثمة نقطة مهمّة أخرى حول جهاز الاتصال الموتورولا اليدوي، وردت في وثيقة الحكم، ضمن إفادة فؤاد مالك، رئيس أركان القوات اللبنانية، وهي تتعلّق بالزيارة التي قام بها لتقديم التعازي إلى عمّي دوري بعد الحادث. يومها، أخبره دوري أنّه عُثر في شقة داني على جهاز موتورولا سُرق من مقرّ المديرية العامة للأمن الداخلي عندما اقتحمته القوات اللبنانية، وطلب مساعدته في معرفة من قد يكون سرقه وتركه في ساحة الجريمة بهدف إلقاء التهمة على القوات والإيقاع بينه وبينها.

نقل مالك ذلك التساؤل إلى سمير جعجع فأجابه هذا الأخير بطريقة فظّة وجارحة، بحسب ما ورد في محضر الدعوى، «دوري شمعون

مهبول»، ثم طلب منه أن يبلغ دوري أنّ القوات اللبنانية فقدت كثيرًا من التجهيزات على جبهات القتال، وهل يترك مرتكب الجريمة الدليل في مسرحها؟

في الواقع، لم يفتح سمير جعجع أيّ تحقيق ولم يتّخذ أيّ تدبير لتوضيح موضوع جهاز الاتصال الموتورولا، رغم أنّه كان من مصلحته ومن مصلحة القوات اللبنانية أن يقوم بذلك لتبديد الشكوك التي تدور حوله وحول القوات.

أمّا المفارقة الكبرى فهي أنّه في بلد يعيش على نظريات المؤامرة، بدت الحقيقة، ما إن كُشفَ النقاب عنها، للجميع ومن ضمنهم عمّي دوري، مُقلقة لدرجة العجز عن تصديقها. فقد أعمى الكره لسوريا عيون البعض، على الرغم من أن سجل جعجع كان حافلًا بالعنف إلى حينه.

كنت أواجه ذلك النكران للوقائع يوميًّا لدى كثيرين، ما عدا من تكلّفوا عناء متابعة التحقيق أو أولئك الذين عانوا من سمير جعجع. فسجلّ الأعمال الوحشية التي كانت القوات اللبنانية قد ارتكبتها تحت قيادته، حتّى ذلك الحين، كان شبه أسطوريّ، تتخلّله الاغتيالات وتدمير القرى الواقعة في جبال الشوف والتهجير القسري للسكان، وتجارة الأسلحة، وموضوع طمر النفايات السامة في الجبال مقابل ملايين من الدولارات بين عامي 1986 و1987.

فشركة «جيلي واكس» الإيطالية كانت قد دفعت للقوات مبالغ ضخمة لتخزين منتجات ونفايات سامة في لبنان؛ أودع حوالى 16000 برميل وُضع بعضها في أحواض المرفأ، وقيل إنّها تحتوي على عشرين حاوية من المعادن الثقيلة والمبيدات السامة وغيرها من المواد الكيميائية القاتلة.

بـدأت هـذه البراميل بالتفاعل، انفجرت وتدفّقت محتوياتها، فطلبت القوات من بيار ماليشيف، وهو من أرفع خبراء البيئة في لبنان، أن يفحصها. أعلن ماليشيف أنّ البراميل تحتوي على موادَّ سامة، كما اكتشف مواقع طمر أخرى منتشرة في أنحاء البلاد. بيار صديق عزيز لي، وما زلت أذكر صدمتي وأنا أسمع منه تفاصيل تلك القصة وهو يسردها لي حول طاولة العشاء في منزلي. شاهدت بأمّ عيني آثار سرطان الجلد الذي عانى منه بسبب تعرّضه للتلوّث جراء هذه المواد السامة. بالإضافة إلى ذلك، تعرّض لضرب مُبرّح على أيدي القوات اللبنانية لأنّه أذاع هذه القصة أمام الملأ، كما سجنوه لمدة أسبوع زاعمين أنّه أدلى بشهادة كاذبة.

كانت فترة محاكمة سمير جعجع سريالية للغاية بالنسبة لي، على عدّة مستويات. في حياتي اليومية، وجدت نفسي مُحاطة دائمًا بضبّاط الاستخبارات، فضلًا عن مجموعة من أمراء الحرب السابقين الذين استمدّوا شرعيتهم من الحكومة الجديدة. كل ذلك كان جزءًا من التحقيق في جريمة اغتيال والدي ومن عملية جمع المعلومات من مصادر مختلفة. في تلك الفترة بذلت جهودًا كبيرة للتعامل مع غرابة تلك اللقاءات الكئيبة.

من بين الشخصيات التي زرتها آنذاك البطريرك مار نصر الله بطرس صفير. كان صفير من أشدّ المدافعين عن جعجع ومن أكثرهم نفوذًا. وفي هذا السياق، كانت تشوب صورة البطريرك ادّعاءات بأن سمير جعجع كان يغذّي خزينته دوريًّا من خلال تبرّعات شهرية.

في بداية المحاكمة وخلال زيارة المجاملة التي أجريتها للكاردينال صفير، حاول إقناعي بالعدول عن متابعة قضية تدين جعجع، أرادني أن أتراجع عن القضية مبرّرًا هذا الطلب بالقول إنه ليس من المستحب

مقاضاة مسيحي آخر، فبادرت بالرد: «حتّى لو كان هذا المسيحي قد قتل أخاه المسيحي؟» في الحقيقة، لم يجرِ الحديث بشكل ودّي.

علّمتني التجربة أنّ الانتهازية السياسية في لبنان تتسبّب بخدرٍ تجاه الفظاعة، وأنّها تولّد قدرة على التغاضي عن الظلم. وتلك واحدة من أسوأ نزعات الأمّة لأنّها تجعل من العنف أمرًا مقبولًا. تاريخنا حافل بالاغتيالات السياسية، فمنذ السبعينيات، تمّ تنفيذ العشرات منها بحقّ شخصيات سياسية.

وعلى الرغم من الأسى الذي نتكبّده كشعب، يبدو أنّنا نتقبّل هذا النوع من الوحشية وكأنّه جزء من الحياة اليومية. وما يفاقم من حدة الاستسلام الذي يشعر به الناس أمام هذه الجرائم هو غياب أيّ شكل من أشكال المساءلة في ما يتعلق بها، إذ غالبًا ما تظلّ الجرائم السياسية من دون حلّ، ويكبّل الخوف يدَي الباحث عن الحقيقة.

الأمّة غارقة دائمًا في الحزن والأسى على خسارة أفراد يجسّدون أيّ احتمال لتغيير الواقع؛ فإن أظهر أيّ شخص شيئًا من التفرّد والإبداع يُعتبر تهديدًا وشيكًا ومشكلةً لا حلّ لها سوى بالموت. ومن نواحٍ عدّة، يُمثل والدي داني إمكانية تغيير وسلام حقيقيين وتعايش فعلي وأخوّة في كنف أمّة واحدة غير منقسمة. لهذا السبب لم يُسمح له بالحياة.

من النادر وجود رجال على غرار والدي. وقد أكّد التاريخ، من دون شكّ، أنّ من يجرؤ على تحدّي الوضع الراهن يُقتل لا محال، وبطريقة عنيفة، على الأقلّ في لبنان.

إلّا أن لبنان لا يحتكر هذا النوع من العنف العبثي، فقد سبق أن اغتيل عظماء من بناة السلام على غرار غاندي ومارتن لوثر كينغ. كذلك، قُتل أنور السادات من مصر وإسحق رابين من إسرائيل على أيدي متطرّفين متديّنين من البلدين عارضوا مبادرات السلام التي قام

بها الرجلان، وتوقيع اتفاقات أوسلو. يبدو أنّ الكثير ممن تعهّدوا بأن يكونوا قوة مضادة للمصالح السائدة في مجتمعاتهم ينتهي بهم المطاف قتلى. ذلك هو الواقع المحزن لجنسنا البشري؛ لا نعترف بتعاليم قادتنا المستنيرين إلّا بعد أن نقتلهم.

من ناحية أخرى، باتت القدرة على استيعاب ودمج الألم في لبنان فعّالة لدرجة أنّها أصبحت فرضًا وطنيًّا. عملية لا تنطوي على أيّ تطهير نفسي. عملية تكبح قدرتنا على إدراك خطر ذلك «الضيق» الوطني الذي يصبح معه الموت مخرجًا للانتهازية السياسية. عملية فعّالة جدًّا لإزالة العوائق والمنافسين، لكنّها، في الوقت ذاته، مسؤولة عن زجّ لبنان في عصور الظلام والحكم عليه بأن يقبع هناك.

من أجل المضيّ قُدُمًا، يجب أن نلتزم بكشف مرتكبي هذه الجرائم العنيفة؛ لا يمكن أن نكتفي بأن نهزّ أكتافنا، غير مبالين، وأن نعزو الأمر إلى حتمية المصير، فكل حياة أُزهقت بفعل وحشي مماثل تشكّل رمزًا لنظام سياسي غابت عنه المساءلة والعدالة. لبناء دولة حديثة، لا بدّ من أن تصبح قيمة الحياة أولويّة، وأن يتحوّل السعي إلى الأمان ضرورة.

عندما كنت مضطرة إلى النظر باتجاه سمير جعجع على امتداد ساعات طويلة وهو جالس خلف منصّة الشهود، كنت أتساءل كم يصعب تقييم شخص قادر على ارتكاب أعمال بهذه الفظاعة. بإمكاننا دائمًا أن ننظر إلى الشخص، ولكن ماذا نرى؟ لا شيء، خصوصًا إذا كنّا عاجزين عن فهم دوافعه، وإن لم نكن نملك الجانب المظلم ذاته الذي يتملّك منه.

كان من الصعب بالنسبة إليّ أن أجد أيّ صلة تربطني بالشر الموجود أمامي، إلّا أنّ الموضوع برمّته شكّل عبرة بأن أولئك الأشخاص موجودون في العالم، تدفعهم حاجات ونزعات عنيفة للغاية.

لا أدري ماذا الذي أصبح عليه جعجع اليوم، وما إذا كانت الفترة التي أمضاها في السجن قد أسهمت بنضوجه أو سمحت له بإعادة تقويم علاقته بالسلطة. ففي تلك الأيام، لم يكن سوى نموذج حيّ لما أنتجته الآثار اللاإنسانية للحرب الفظيعة التي مزّقت الأمّة أشلاءً. تلك الحرب التي شوّهت قلوب جميع الزعماء حين أتخمتها بأوهامٍ حول قوّتهم المطلقة ووجودهم الذي لا غنى عنه. في حالة جعجع، أخذ ذلك التشويه منحًى إجراميًّا.

أحيانًا نبحث عن معنى
لنستمرّ في الحلم
عالقون في واقع ضبابي
يسوده ادّعاء أكثر مما ينبغي
أحيانًا عليكَ الاشتراك في اللعبة
حتّى تتمكّن من البقاء في الحلبة
أحيانًا ليس هناك وسيلة أخرى
حتّى تكملَ الرحلة

مقطع من «ألمي حقيقي».

7

لا بدّ من الإقرار بأنّني عشت، خلال سنوات المحاكمة بين عامي 1993 و1995، كالمنبوذة. لم أكن بأمان حتّى بين أبناء طائفتي ومجتمعي، بل على العكس من ذلك، كنت أقلّ أمانًا هناك. كنت محاطة بالحرّاس على مدار الساعة. بدا كلّ ما مررت به في السابق شاحبًا مقارنة مع الواقع الراهن لأنّني كنت وحيدة، أخوض المعركة منفردة في غياب أيّ دعم من عائلتي. مات والدي، وعمّي دوري لا يكلمني ولا يدعم جهودي لمقاضاة المجرمين الذين اقترفوا جريمة قتل والدي.

قبل بدء المحاكمة، وبناءً على طلبي، ذهب كبير المحققين، وهو شمعوني ملتزم، لزيارة عمّي دوري. اصطدم هذا الشخص الذي لم يكن يومًا من أتباع سوريا، برفض قاطع وغير مبرَّر من قبل دوري الذي صرفه بازدراء على الرغم من جلوسه معه أكثر من ساعة لعرض جميع تفاصيل الدعوى؛ وبقي عمّي متمسّكًا بنظريته السورية.

لدى انتهاء اللقاء، خرج المحقّق حائرًا وخائب الأمل؛ فهو ينتمي إلى عائلة لطالما كانت من أشدّ المخلصين لجدّي على امتداد مسيرته

السياسية، ولم يفهم رفض دوري النظر إلى الأدلة والقرائن الموضوعة نُصب عينيه.

وما زاد من حدة عزلتي هو أن جميع المحيطين بـدوري، أي أعضاء القيادة السياسية للحزب، بادروني بالنفور لا بل حتّى بالازدراء؛ تضافروا ضدّي في الصحافة وحاولوا إبطال مفعول جهودي في كل مناسبة. أجرينا عدّة محاولات بهدف التوصّل إلى المصالحة ولكنّ دوري التزم بموقف دفاعي واستمر أنصاره في اعتباري تهديدًا لشرعيته. نبذني محيطه، وجلّ ما أرادوا هو أن أغادر الساحة. في إحدى المناسبات، بعدما أعياني النزاع الدائم مع عمّي، طلبت أن أجتمع به وأبلغته بأنّني أريد أن أنضمّ إلى الحزب بصفة عضو، أنا وجميع الشباب الذين ساندوا والدي، إلّا أنّه رفض انضمامي رفضًا قاطعًا إلى الحزب الذي أنشأه جدّي والذي ترأسه والدي، وفي الصحافة أنكر أيّ صلة له بي.

كنت أقيم في المبنى الذي يقع فيه مكتب عمّي، وأمرّ يوميًّا بالقرب من حرّاسه الذين يحدّقون بي ويقتنصون دائمًا فرصة افتعال شجار مع فريق عملي. كان الوضع مزعجًا جدًّا بالنسبة إليّ وإلى الزائرين الذين يقصدونني لأنّهم كانوا عرضة للتحقيق والتدقيق بهدف إزعاجهم. كان الترهيب وانعدام الثقة يسودان علاقتنا، وخصوصًا في ما يتعلق بمحاكمة جعجع، حيث اختار عمّي الانتهازية السياسية والبقاء على الحياد. كان يخشى أن تعاديه شريحة واسعة من دائرته الانتخابية المسيحية إذا ما اتّخذ موقفًا ضدّ جعجع.

على مستوى آخر، كان الوضع صعبًا أيضًا بالنسبة إليّ، لأنّني كنت أعيش في عالم ذكوري، لا يُقبل فيه تقليديًّا سوى الرجال. فإن حضرتُ جنازة، على سبيل المثال، لم يكن من الواضح أين يمكن أن أجلس، فأنا امرأة، لكنّني أيضًا شخصية سياسية. هل أجلس بين النساء أم بين الرجال؟

الحيرة نفسها كانت تنطبق على الحفلات؛ هل أتوجّه إلى غرفة استقبال النساء، أم أقصد غرفة الجلوس لأتحدّث عن السياسة مع الرجال؟

على الرغم من الجهود التي بذلها زوجي ليزورني في لبنان كلّما استطاع، كنت في النهاية امرأة متزوجة تعيش وحدها في مجتمع تقليدي للغاية. كان من النادر أن أتلقى دعوة للخروج، وإذا ما خرجت برفقة أحد الأصدقاء، كانت تثار حولي زوبعة من الشائعات البغيضة.

في الغالب، كنت ألازم البيت مع الحرّاس والمساعدين، ونحن غارقون في دوامة من النقاشات السياسية. كان يجب علينا متابعة مجريات المحاكمة متابعة دقيقة. كانت حياة مملة وفي الوقت نفسه مرهقة للغاية، فقط ثلة من الأصدقاء وقفوا بصبر إلى جانبي، وكلما كنت أقرأ لهم بيانًا صحافيًّا جديدًا كتبته، كانت علامات اليأس ترتسم على وجوههم.

في محاولتي عيش حياة طبيعية من جهة، وبسبب حاجتي إلى الرفقة من جهة أخرى، التفتّ إلى حبّي الأول: الحيوانات. في تلك الفترة جئت بالقط «تايغر»، سيامي جميل وجدته على الطريق أثناء عودتي من بلدة زحلة في أعقاب تجمّع سياسي؛ كان من عادتي إنقاذ الحيوانات، وخلال تلك الأيام الصعبة في لبنان، لم أنقطع عن هذه الممارسة التي كانت تشعرني بالارتياح وكأنني بطريقة ما كنت أنقذ جزءًا من نفسي. أكره القسوة التي تتعرّض لها الحيوانات في لبنان، فهي، بالنسبة لي، مرادف لعدم تقدير الحياة.

في أحد الأيام، كنت في وزارة الدفاع في اجتماع مع عقيد في الجيش لمناقشة شؤون أمنية، في الغرفة المجاورة كان الجنود قد أمسكوا بنسر رائع ووضعوه مؤقتًا في إحدى غرف الاستحمام في الثكنة. خلال الاجتماع، دخل أحد الجنود وسأل العقيد عما يجب أن يفعله

بالطائر لأنّ الجميع يخافون الاقتراب منه. ناقشوا خيار قتله ونقله إلى خبير التحنيط لحشوه. أصبت بصدمة وطلبت من الجندي أن يرشدني إلى الطائر؛ كان النسر الرائع مربوطًا إلى عمود الدش بحبل من النايلون الأزرق وهو منكمش في الزاوية، تحيط به قطع من السردين المعلّب، بينما تفوح من الغرفة رائحة كريهة من السمك المتعفن.

كان الطائر يرتعد من الخوف. التفتُّ إلى زميلي وطلبت منه أن يعيرني سترته الجلدية، ارتديتها وتوجّهت نحو حوض الاستحمام. لا أذكر كثيرًا ما حدث بعد ذلك، عدا أنني أخذت أتحدّث الى النسر بهدوء وأشرح له أنني أفضل وسيلة له للخروج بأمان. كما السحر، قفز واستقر على كتفي ومنقاره قرب وجهي. باشرت بفك الرباط الذي يثبّته إلى العمود، سمح لي بالقيام بذلك وهو يراقب بانتباه من زاوية عينه. في هذه الأثناء، تجمهر العسكر في المكان، أومأت لهم بعدم إحداث أيّ ضجة أثناء خروجي بهدوء إلى الفناء الخارجي وأنا أهدّئ من روع النسر. سمح لي بفكّ الرباط عن مخلبه، وبعدما حرّرته من أغلاله، مددت ذراعي فانطلق محلقًا في السماء ودار مرّتين فوق رؤوس الحشد الذي تجمّع حولي قبل أن يرتفع عاليًا. كان مشهدًا رائعًا وهو يرتفع شيئًا فشيئًا وسط السماء الزرقاء حتّى بات نقطة بعيدة في الفضاء وتلاشى.

لا بدّ لي من الإقرار بأنه، بمعزل عن لحظة ولادة ابني، كانت تلك من أسعد لحظات حياتي؛ شعرت بقوة هذا الطائر العظيمة وهو ينطلق في الفضاء الرحب، وللحظة في ذاك اليوم انطلقت روحي أيضًا خارج سجنها. المدهش هو أن علاقتي بالجنود تغيّرت بعد ذلك الحادث؛ أظن أنهم رأوا في ما قمتُ به سحرًا وباتوا يكنّون لي مشاعر جديدة من الاحترام والاستلطاف.

ولكنّ أهمّ عملية إنقاذ بالنسبة إليّ، وهي التي تركت الأثر البالغ في حياتي وساعدتني على تحمّل قسوة حياتي اليومية وهشاشتها، كانت عملية إنقاذ ثعلب. كنت في السيارة برفقة فؤاد، حارسي الشخصي، حين لمحت من طرف عيني مجموعة من الأقفاص موضوعة إلى جانب الطريق وهي تكاد تذوب تحت أشعة الشمس الساطعة. كان في أحدها ثعلب ذهبي. دُهشت وطلبت من فؤاد أن يركن السيارة إلى جانب الطريق. في البداية كنت أنوي إطلاق سراح الثعلب ليعود إلى البرية. تفاوضت مع البائع على مبلغ باهظ ودفعت له في النهاية 200 دولار للحصول على الثعلب.

أخذت الثعلب، أو بالأحرى الثعلبة (التي سمّيتها في البدء «مايكل» تيمّنًا بـ«مايكل جي فوكس» قبل أن أُضطَرّ لتغيير اسمها إلى «ميشيل») إلى طبيب بيطري أعطاها جميع اللقاحات اللازمة وأبلغني أن قدمها مجروحة بسبب الفخ الذي كانت قد وقعت به وبالتالي لا يجوز تركها في البرية كما كنت أنوي أن أفعل.

أمام ذهول الأشخاص المقرّبين مني واقتناعهم بأنني فقدت صوابي، بنيت لها قفصًا كبيرًا وأحضرتها إلى شقتي. أدركت، وأنا أراقبها داخل القفص على الشرفة، أنّها يائسة؛ عيناها لم تعودا تلمعان. كانت صغيرة جدًّا، لكنّني شعرت باستسلامها وبرغبتها في الموت. في تلك اللحظة، لمعت في ذهني فكرة لإنقاذها. اقتربت من الثعلبة الجامحة اللعوب وهمست في أذنها أطمئنها قائلة إنّها ستكون على خير ما يرام.

بشكل مثير للدهشة، سمحت لي بحملها. نقلت الثعلبة المذعورة إلى الشرفة الخلفية ووضعتها على التراب في حوض الزهور. حالما لمست قدماها الأرض نظرت إليّ بعينيها اللوزيتين بلون العنبر وابتسمت ثم بدأت تحفر في التراب. أدركت أنّها ستكون على خير ما يرام. منذ ذاك

اليوم أصبحت ميشيل أعزّ صديقة لي، كلّما رأتني استدارت واستلقت على ظهرها وسمحت لي بمداعبة بطنها بينما تصدر أصوات الفرح وفمها مفتوح على آخره.

نجحتُ في تدريبها على قضاء حاجتها في صندوق التراب. كانت بالغة الذكاء، من المستحيل أن تنطلي عليها الحيلة نفسها مرتين، فعندما تدخل إلى البيت، وهو مكانها المفضّل، كان يستلزم الأمر ساعات طويلة وجيشًا كاملًا من المساعدين لإخراجها مجدّدًا إلى الشرفة.

بحسب الميتولوجيا الخاصة بسكّان أميركا الأصليين، ترمز طاقة الثعلب إلى المكر والقدرة على التفوّق على الأعداء من خلال الذكاء الحاد. ومن المصادفات الغريبة أن «الثعلب» كان اللقب الذي حمله جدّي كميل في العمل السياسي. أعتقد أن «ميشيل» أُرسلت لي في تلك الفترة لمساعدتي على عبور حقول الألغام التي كنت مضطرة لاجتيازها يوميًّا ومنحتني فرحة جعلتني أنسى أحيانًا همومي ووحدتي.

في تلك الأيام، كان من الصعب عليّ الاتصال بزوجي بالهاتف، كان يجب الاشتراك بخدمة الاتصالات الدولية الباهظة التكاليف. كنا نستعمل الهواتف المحمولة ولكنها لم تكن تصلح للاتصالات الدولية وتقتصر على الاتصالات المحلية؛ لكنها كانت وسيلة اتصال آمنة إذ لم تكن تكنولوجيا التنصّت على الهواتف الخلوية قد توفّرت بعد. أمّا الخطوط الأرضية، فقد كانت، بالنسبة لمن يتعاطى أيّ شكل من أشكال السياسة، مُخترَقة وتسيطر عليها أجهزة جمع المعلومات والاستخبارات السورية واللبنانية.

في التعاطي اليومي، أسهمت قلّة التواصل بيني وبين زوجي والمسافة الجغرافية والثقافية التي تفصل بيننا في زيادة الضغوط على زواجنا. كنت أمام خيار صعب للغاية: أن أبقى في لبنان وآخذ

على عاتقي إرث والـدي السياسي، أو أن أتخلّى عنه وأعـود إلى الولايات المتحدة.

أعتقد أنّ حيواتنا، في النهاية، ليست سوى سلسلة الخيارات التي نقوم بها. وعند تلك المرحلة، كان لا بدّ لي من اختيار المسار الذي ستسلكه حياتي. كان ثمة صوت في داخلي يقول لي إنه بالرغم من كل ما بقي لي في لبنان، لا بدّ من الرحيل. كان من الصعب عليّ الانصياع لذلك الصوت لأنّني في الحقيقة أردت البقاء. بدا لي أن لبنان هو أكثر مكان يحتاج إلى وجودي، لكنّني لم أنجح في إسكات قلبي الذي كان ينبئني أن بقائي يعني نهاية زواجي.

عند تلك المرحلة، بدأت أدرك أن كل ما كنت أعتقد أنني أريده هو مجرد بقايا لعملية التكييف التي بدأت منذ ولادتي في كنف عائلة شمعون. عندما كنت صغيرة اتّخذت من جدّي كميل قدوة لي، كان الخيار سهلًا بالنسبة إليّ لأنّنا كنا نتشارك الميول الثقافية نفسها. كذلك تركت جدتي زلفا الأثر البالغ في شخصيتي ولكن بطريقة رقيقة وهادئة. في تلك المرحلة من حياتي، بتّ أقدّر ميزات اللطف وكرم الروح التي تحلّت بها.

أثّرت عائلتي حتمًا على جميع طموحاتي وأهدافي في الحياة، ومن المثير للدهشة، حتّى بالنسبة لي، أنني نجحت في كسر القالب وإعادة صوغ حياتي كما هي اليوم. لم أكن أحلم يومًا بأنني سأتمكن من الانتقال من حياة مفعمة بالإنجازات الدنيوية والرضى الذاتي الى حياة التقشف والابتعاد عن الأمور الدنيوية. ومما لا شك فيه أن ضلوعي التاريخي في ممارسة اليوغا كان له الأثر الكبير في هذا التحوّل.

لكلّ واحد فينا عِبَره الخاصة التي يستخلصها من حياته الوجيزة. أمّا العبرة التي استقيتها أنا، فلا تتعلق بالمال والشهرة، بل تدور حول

السلطة، وتحديدًا حول استيعاب طبيعة السلطة الحقيقية. ولدتُ في عالم زاخر بالمظاهر السطحية للسلطة؛ عالم تجد فيه سلطةً للبيع وسلطة أخرى للتأجير وسلطة قائمة بحدّ ذاتها.

إنّ مفهوم السلطة في لبنان مضلّل تمامًا، ويقتصر تعريفه على السعي الى انتزاع الاعتراف بالوجود، وهو أمرٌ غالبًا ما يتمّ بالقوة. ولكن في جميع الحالات تقريبًا، هو يجسّد حسًّا منحرفًا تجاه تحقيق الشهرة بهدف الوصول إلى الامتيازات. في هذا البلد، كما هي الحال في البلدان الأخرى، الامتيازات هي نتاج السلطة. إنّها المعيار الذي يحدّد النجاح وهدف من يبحث عنه.

لبنان هو إحدى دول العالم الثالث حيث تفتقر حقوق الفرد إلى دعائم نظام اجتماعي وقانوني تضمن لها تحقيق العدالة والمساواة. جميع من فيه واقعون تحت رحمة التسلسل الهرمي الإقطاعي والأبوي، وبالتالي ينبع سعي بعضهم لامتلاك السلطة من غريزة البقاء وخوفًا من الإحساس بالعجز.

هكذا، يُصبح السعي لامتلاك السلطة والامتيازات والفردية محرّكات للأمّة بأسرها، ويبدو كافّة الزعماء على استعداد دائم لخوض حرب بعضهم ضدّ بعض لضمان جزء من السلطة لأنفسهم واكتساب الفوائد الجانبية مثل الثروة والمكانة الاجتماعية. ولأنّ السلطة غالبًا ما تكون الحافز الرئيسي للإنجاز السياسي، يصبح عدد المُثُل النبيلة التي تنطوي عليها الطبيعة التنافسية والمدمّرة للسياسة اللبنانية محدودًا جدًّا؛ فالسياسة اللبنانية تتمحور في الغالب حول تعظيم الذات والحفاظ عليها.

عملت جاهدة، طوال تلك الفترة التي قضيتها في لبنان، لأفهم تبعات وآثار قابلية السلطة للفساد. وعلى غرار معظم الناس، وقفت عند

منظور محدود جدًّا للسلطة، بوصفها شيئًا خارجًا عن الذات ومرتبطًا بالمظاهر. اليوم، مع مرور الوقت واكتسابي رؤية أوضح، توصّلت إلى تحديد السلطة الحقيقة على أنّها القوة الداخلية والأصالة. وتتحقق السلطة الحقيقية بنسبة معاكسة لنفسها. بمعنى آخر، كلّما سعينا إلى السلطة استبدّ بنا الضعف؛ وكلما تجنّبنا السلطة الخارجية بكل زخارفها شعرنا بأمان أكبر من دونها وازدادت قوتنا لممارستها.

بمجرّد التخلي عن الجشع الذي يترافق مع السعي إلى السلطة، نتحرّر ونعطي من دون أن نتوقع أيّ مكافأة بالمقابل، وبالتالي، تتحرّر الأعمال من المصالح الشخصية وتصبح أصيلة بحد ذاتها. يجب ألا تتمحور دوافعنا حول ذواتنا وألّا تكون أنانية، بل أن تنبع من الاهتمام بالمصلحة العامة لا من منطلقات تمجيد الذات.

بالنسبة لي، لم يعن لي السعي إلى السلطة لمجرّد الحصول عليها شيئًا، حتّى إن المكافآت التي تعد بها لم تفتح شهيّتي عليها. طبعًا، لم يكن ذلك الموقف نموذجيًّا في البيئة التي أتحرّك فيها، وبالتأكيد لم يكن نزعة أتشاركها مع أيّ سياسيٍّ في لبنان. فلبنان يشكّل سياسيًّا بيئة لا تعرف الرحمة، يحاول كل شخص فيها فرض آرائه على الآخرين والدفاع عن موقفه بأيّ طريقة ممكنة.

كلّما طال مكوثي في هذه البيئة، كنت أختبر وجهًا جديدًا لعلاقتي بهذه الطبيعة الشاذة للسلطة. أدركت أنّها لا تتعدّى كونها شكلًا من أشكال العبودية لقضية خاسرة. السلطة هي الوهم الذي تحرّكه الأنا والذي يسمّم حالة الاكتفاء لأنّه يُبقي المرء محتجزًا في حالة مزمنة من الاستياء من الوجود.

ولم يأتِ إدراك ضرورة التخلي عن التعلّق بالسلطة من دون ثمن؛ ألا وهوِ انسحابي الكامل من الساحة السياسية. وجب عليّ صمّ أذنيَّ عن

نداءات المحيطين بي الذين كانوا يدفعونني لاستكمال معارك والدي. شكّل قراري ذلك مصدر خيبة كبيرة لعدد كبير من الأشخاص الذين لا يزالون حتّى اليوم يجهدون في الحفاظ على ذكراه حيّة. في تلك المرحلة من حياتي، أدركت ببساطة أنّه لم يعد بإمكاني أن أستمر في الادّعاء أنّني من يتوقعونه، بسبب عوامل الوراثة، فيما أنا لا أعرف الكثير عن نفسي.

نتيجة لذلك، وجب عليّ تغيير بعض العادات السيئة وإعادة هيكلة نفسي بطريقة أكثر تواضعًا والقبول بأن تناقص السلطة يترافق مع تراجع في الامتيازات. كنت قد استفدت على نحو تلقائي من جميع الامتيازات التي أمدّني إرثي بها؛ إرسال المبعوثين لملاقاتي في المطار، حرّاس شخصيين، التعرّف إليّ فورًا، مكانة اسمي، النفاذ إلى أعلى مراتب الحكومة. لكن، في داخلي، كنت أدرك أنّه حان وقت التخلي عن جميع هذه القيود.

لسنوات عدّة، عنى ذلك القيام بتعديلات على طبيعة «الأنا» التي لطالما قادتني، لكنّه كان شيئًا أردت القيام به. أصبحت أكثر احتراسًا من دوافعي وردود فعلي، وسعيت جاهدة لأكون أكثر أمانة تجاه غرائزي وميولي الخاصة. كانت عملية تدريجية تطلبّت منّي مصالحة عميقة مع الذات. وأثناء تلك المرحلة من التحوّل على المستوى الشخصي، بات من الواضح أنني لم أكن مستعدة بعد لتحمّل المسؤوليات والأعباء السياسية التي يفرضها عليّ إرثي العائلي. شعرت بأنّه لا يزال أمامي الكثير لتعلّمه.

بدأت أولًا بتجديد التزامي بزواجي؛ ثم قاومت إغراءات المشاركة في الانتخابات النيابية على الرغم من الضغوط الكبيرة التي كانت تحثّني على المضيّ قدمًا في هذا الطريق تزامنًا مع ازدياد حدة المواجهة داخل عائلتي بين أنصار والدي وأنصار عمّي. إلّا أنّني كنت سأخاطر بشق صفوف عائلتي لو قبلت خوض معركة انتخابات عام 1995 في الشوف،

وهي دائرة جدّي الانتخابية. آنذاك، انتُخب عمّي رئيسًا لبلدية «دير القمر» في تلك الدائرة.

خلال مجريات المحاكمة، حملت بطفلي، ووفقًا للوعد الذي قطعته على زوجي، كان عليّ العودة إلى الولايات المتحدة لألد هناك. كنت أدرك أن ذلك هو أكثر ما سيبقيني بعيدًا عن لبنان، ولكنني كنت مقتنعة كذلك بأنه السبيل الوحيد لتفادي أيّ انقسام في عائلتي على ضوء موقف عمّي العدواني وغير الداعم.

حان وقت الرحيل ومغادرة الساحة السياسية، وغمرتني مشاعر الحزن بل وحتى الذنب، فقد شعرت بأنني خذلت البعض، ولكنني أدركت أيضًا أن ذلك ليس سوى صوت الأنا البغيض الذي يبرز مجدّدًا ويغذّي الشعور الزائف بأنّ عليّ أن أؤدّي دور الوصية. استمر شعوري بأنّني أتجاهل قدري، ولكنني أدركت أن القدر غير مرتبط بالإرادة ولكنه أيضًا نتاج الظروف، وهذه الأخيرة لم تكن مؤاتية في حينها.

كان قرار الرحيل صعبًا للغاية على المحيطين بي الذين ربطوا نجاحهم بإنجازاتي؛ أدركوا أنّها نهاية الطريق بالنسبة إليهم وأنه يجب عليهم تحديد احتياجاتهم الخاصة بمعزل عن الأحلام التي تقاسمناها ورسمناها لتكون هدف حياتنا.

غادرتُ بيروت قبل صدور الحكم على جعجع في دعوى الجريمة، بعد أن حدّد لي الطبيب آخر مهلة للسفر جوًا إذا أردت أن يولد ابني في الولايات المتحدة. كذلك، كان من الخطر على حياتي أن أبقى في بيروت لأنّ عددًا كبيرًا من أنصار جعجع سيثورون غضبًا إذا ما وُجد قائدهم مذنبًا لدى صدور الحكم.

عُدت مجدّدًا الى واشنطن يغمرني شعور غامض بعدم الرضى لأنّني عرفت أنّه، بطريقة أو بأخرى، لم تنتهِ قصتي مع لبنان بعد. أمّا الجانب

الإيجابي الوحيد لكلّ ذلك، عدا عن حملي بطفلي، فهو تلك الآثار التخفيفية التي تمنح المرأة الحامل الحق ببعض التصرفات الغريبة، وكان أحدها إصراري على نقل حيواناتي الأليفة معي الى الولايات المتحدة. معظم النساء الحوامل يطلبن الفريز، أمّا أنا فطلبت أن يرافقني هرّي وثعلبتي. ومن البديهي ألا يرفض زوجي هذا الطلب. وبالفعل، حضر إلى لبنان بكل محبة لإحضارهما، فيما انتظرت عودته في باريس. لم تكن مهمته سهلة، بل تخللتها الكثير من التعقيدات الإدارية ولكنه نجح في النهاية بإصدار الأوراق والتصاريح المطلوبة وعدنا معًا الى الولايات المتحدة ومعنا هرّ وثعلبة برية. المدهش هو أنّ موظفي الجمارك كانوا مذهولين بالثعلب لدرجة أنهم سمحوا لنا بالدخول من دون أيّ عائق وسط تعابير الفرح.

عُدت مُتعَبة ومُنهَكة، من الناحيتين الجسدية والعاطفية، بسبب حملي والإجهاد النفسي الذي عانيته خلال المحاكمة. كان عليّ في حينها التعامل مع الصدمة الثقافية الكبيرة المتمثّلة في محاولة التوفيق بين الطابع السريالي لحياتي والصراعات في لبنان وبين حياة الضواحي في أميركا والأمومة. في الجوهر، كان عليّ البدء من نقطة الصفر.

أمّا بالنسبة لـ«ميشيل» الثعلبة، فقد عاشت معنا في البيت في ضواحي واشنطن حيث بنى لها زوجي وجارًا فخمًا داخل المرأب. حين لا تكون في قفصها، كنا نتركها في الساحة وهي مربوطة بسلك طويل. وفي أحد أيام الخريف تخلّصت من قيدها وهربت. كان نداء الطبيعة لها قويًّا للغاية، حزنت جدًّا لكنّني رضخت للقدر وشعرت نوعًا ما بالارتياح لأنّ الفرصة سنحت لها للعثور على منزلها الخاص في غابات ميريلاند الجميلة والمحميّة.

لم أرها مجدّدًا سوى في الربيع الذي تلى. يومها، اتصل بي جاري قائلًا إن ثمة ثعلبًا في فناء منزلي. فورًا، تناولت قطعة لحم من الثلاجة

وهرعت إلى الحديقة يغمرني فرح عارم. وفوجئت بالثعلبة، «ميشيل»، تقف أمامي. بالكاد عرفتها لأنّها أصبحت برّية. رميت لها قطعة اللحم فأمسكت بها وركضت في الاتجاه المعاكس على الشرفة. تبعتها بدافع الفضول، إلى المكان الذي قصدته، لأراها تتشارك طعامها مع جروين صغيرين!

لم تكتفِ «ميشيل» بالعودة إلى البيت بل أحضرت معها جرويها! كانت تلك هدية رائعة. أحيانًا، كنت أجلس بالقرب منها في الفناء الخارجي وأراقبها وهي تُرضّع جرويها بينما أتشارك معها فرحة الأمومة وأنا أحمل بين ذراعيّ طفلي، «ليكس»، الذي سمّيته كذلك، أي القانون، تيمّنًا بولادته أثناء المحاكمة.

في أحد الأيام، بعدما كَبُرَ الجروان بقدر كافٍ، رحلت العائلة كلها، بعد أن كان جميع من في حيّنا قد بدأوا يحبّونها ويقدمون لها الطعام. في نهاية المطاف، كنا أنا و«ميشيل» قد تجاوزنا المِحَن وسنوات المعاناة في لبنان معًا ونجحنا في الهجرة إلى الولايات المتحدة معًا.

عند انتهاء المحاكمة في لبنان، اعتُبر جعجع مذنبًا بالإجماع، وأصدر القضاة الستة حكمًا بالإعدام، خُفّف إلى السجن مدى الحياة مع الأشغال الشاقة؛ لكن لم يُطبَّق أيٌّ من الحكمين بل بقي جعجع مسجونًا في وزارة الدفاع.

وبقي احتجازه محور جهود منظمة العفو الدولية، التي كانت تسعى دائمًا لإدانة ظروف سجنه، فهي لم تدرك أن وزارة الدفاع هي أكثر الأمكنة أمانًا بالنسبة له؛ أمّا الخيار الآخر فكان سجن «رومية» الجحيمي الذي تعمّ فيه الفوضى وحيث الظروف المعيشية دون المستوى الإنساني، وبالتالي كان من المؤكّد أنّه سيُقتل هناك.

بعد صدور الحكم، تلقّيتُ العديد من مكالمات التهنئة، لكنّني لم أكن أشعر باحتفالية اللحظة؛ فقد كانت تلك بالنسبة إليّ مجرّد تصفية حساب تتيح لي إغلاق فصلٍ من حياتي. شعرت بأنّني أنجزت ما كنت قد عقدت العزم على تحقيقه، كما شعرت بأنني حظيت ببعض السلام الداخلي في ما يتعلّق بمقتل والدي لأنّني أدّيت واجبي كابنة من خلال كشف النقاب عن هوية من اغتالوه، وسوّيت ميزان العدالة في مقتل عائلتي الوحشي.

على عكس جميع الاغتيالات التي نُسبَت لمجهول في تاريخ لبنان، تمّ حلّ لغز هذه الجريمة. وذلك فقط لأنّه صودف أن اصطفّت المتطلبات السياسية، للمرة الأولى، إلى جانب الحقيقة. كذلك، كانت مشاركتي الشخصية محورية في الحرص على استكمال العملية. ها قد تمّ حلّ جريمة اغتيال عائلتي وأصبح المجرم في السجن. الآن، أصبح بإمكان أرواح المغدورين أن ترقد بسلام.

بعدما تخطيت هذه الحقبة، تبيّن لي أن المرحلة الانتقالية في حياتي أصعب مما تصوّرت لأنّني اضطررت لمواجهة تعديل كبير فيها. فقد أدركت أن كل ما كان مهمًا في حياتي إلى حينه تلاشى ووجب عليّ استكشاف هويتي بمعزل عن كوني ابنة داني شمعون وحفيدة كميل شمعون. وبكل صدق، أدركت للمرة الأولى أنني لا أملك أدنى فكرة عن كيفية القيام بذلك.

أرض الألم
أرض الأحزان
أرض البهجة
أرض الغد
أيّ أرض أنتِ؟
أرض الكوابيس والأحلام
أرض التطرّف والأوهام
ومن هنا، إلى أين نتّجه؟
أعمق فأعمق في مستنقع الاستياء والخوف؟
هل من حقيقة جديدة قد نتصوّرها؟
عقلية جديدة قد نعتنقها؟
أنستطيع أن ننظر بعضنا إلى بعض بمنظار جديد؟
أم أن أمتنا أكثر انحرافًا من أن تحقق إنجازًا؟
ماذا فعلنا؟ أسأل ليكون المستقبل أقلّ ظلامًا

مقطع من «مسار من دون هدف».

8

بعد سجن «جعجع» عام 1995، عشت بين بيروت وواشنطن. وعلى الرغم من استمرار ارتباطي بالأحداث والأصدقاء في لبنان، حاولت أن لا أشارك بأيّ شيء. كنت أزور لبنان في الصيف ومرتين فقط خلال السنة، وكان حضور القدّاس التأبيني لوالدي في تشرين الأول/أكتوبر من كلّ عام يشكّل توتّرًا نفسيًّا فائقًا بالنسبة لي، بسبب موقف عمّي تجاهي. لم أشعر قطّ أنّي محلّ ترحيب في تلك المناسبة التي كان التوتر يبلغ خلالها ذروته بين أنصاره وأنصار والدي.

إلى جانب مسؤولية اعتنائي بطفلي، كان عليّ التعامل مع 20 سنة من التوتر المتراكم، ما ترك أثرًا سلبيًّا بالغًا على صحتي وأنهكني جسديًّا. في تلك الفترة، كنت أعتبر نفسي محظوظة لو شعرت بأنني بصحة جيدة يومًا واحدًا في الشهر، أمّا بقية الأيام، فبالكاد كنت أجرجر نفسي لأتدبّر أموري.

شيئًا فشيئًا، بدأ حضور لبنان في حياتي يتلاشى بفعل المسافة التي تفصلنا، لكنّني ظللت أنهار كلّما سمعت أخبار الوطن، خصوصًا تلك المتعلقة باغتيال أشخاص عرفتهم. فويلات الحرب كانت لا تزال

تطال بعض الأفراد ومن ضمنهم إيلي حبيقة ومايك نصّار الذي كنت قد بعته أحد ممتلكات جدّي في دير القمر؛ كان لدى كليهما عدد كبير من الأعداء.

تلقّى حبيقة تدريبه في البدء على أيدي الإسرائيليين عندما كان متمركزًا في جنوب لبنان، ثم انتقل إلى المعسكر الآخر وأصبح حليفًا للسوريين، بمساعدة الرئيس رفيق الحريري الذي أدّى دورًا محوريًّا في خلق الروابط بينه وبين النظام السوري من خلال صداقته مع عبد الحليم خدام، نائب الرئيس السوري من العام 1984 إلى العام 2005. كان التحالف الذي نشأ بين حبيقة والسوريين ناتجًا عن اقتناع راسخ لديه بأن السبيل الوحيد لخلاص المسيحيين في لبنان يكون من خلال التحالف مع الطائفة العلوية والنظام في سوريا. ولكنّ مواقفه المؤيّدة للسوريين دفعت جعجع إلى إطاحته عام 1986، وهو أمر مثير للسخرية لأنّ جعجع نفسه سهّل دخول السوريين الى القطاع المسيحي في لبنان بعد أربع سنوات، وتحديدًا في 13 تشرين الأول/أكتوبر 1990، حين باشروا باحتلال لبنان.

قُتل حبيقة بانفجار سيارة مفخّخة خارج منزله في 24 كانون الثاني/يناير 2002، أي بعد مرور حوالى 22 سنة على مجازر مخيّم صبرا وشاتيلا، التي باتت مرادفًا لاسمه. حصل الاغتيال قبل الموعد المقرَّر لإدلائه بشهادته أمام محكمة «لاهاي»، حول تورّط آرييل شارون في عمليات الإبادة الجماعية التي وقعت في مخيم «صبرا وشاتيلا».

على الرغم من محاولات حبيقة التكيّف مع الحياة بعد الحرب والعمل وزيرًا في الحكومة، لم ينجح في إخفاء تاريخه الدموي أو واقعه كحليف للنظام السوري. لا بل اعتمد هالة من الغطرسة المتحدية. كان دائمًا أنيق الملبس والهندام ومحاطًا بسرب من الحرّاس الشخصيين المخلصين،

يحب اقتناء مختلف أنواع الألعاب الباهظة الخاصة بالكبار؛ من المراكب السريعة التي تكلّف عدّة ملايين من الدولارات صيفًا إلى أدوات التزلج على الثلج شتاءً. ولكن خلف مظاهر استعراض الثروة تلك، كان فريسة شعور بالاستسلام والتخلي، وكأنه كان يعرف أن أيامه معدودة.

كان ضحية للحرب كأيّ شخص آخر. الحرب ذاتها التي شوّهت عقول جميع هؤلاء الشبّان وغذّت أسوأ ما لديهم من ميول وشجّعت توجهاتهم نحو حياة مليئة بالعنف والفوضى كما منحتهم شعورًا زائفًا بالأهمية، كلّف العديد منهم حياتهم. إنه القدر الذي لا مفرّ منه. المرء يحصد ما زرعه، ولسوء الحظ، لا يزال هذا البلد تحت رحمة البذور التي زُرعت آنذاك.

أمّا مايك نصار، فقد كان الضحية التالية؛ إذ قُتل بعد اغتيال حبيقة بفترة قصيرة. كانت ثروة مايك تُقدّر بما يفوق مئة مليون دولار، وكان ثالث أكبر مستثمر في «سوليدير». بلغت قيمة أسهمه زهاء 25 مليون دولار في حينها.

نشأت علاقتي مع مايك نصار عندما قرر في مرحلة ما الترشح للانتخابات النيابية عن دائرة الشوف، معقل عائلتي. أراد شراء منزل جدّي في مدينة دير القمر سعيًا لتحقيق تطلعاته السياسية الخاصة. وافقت على بيعه العقار لأنّني كنت بحاجة إلى المال بعد تكبّدي جميع النفقات المرتبطة بالمحاكمة. أثارت العملية ضجة كبيرة في المنطقة بسبب ارتباطه السابق بالقوات اللبنانية على الرغم من أنّه كان في تلك الفترة قد أصبح على «قائمة الاغتيالات» الخاصة بهم. في العام 1991، سجن جعجع نصار لعدة أشهر متّهمًا إيّاه باختلاس أموال من الميليشيا خلال صفقة بيعت خلالها أسلحة القوات اللبنانية إلى كرواتيا خلال حرب البلقان.

شعر الناس بأنني خنت إرث جدّي حين بعت منزله لمايك. إلّا أن ما لا يدركه معظم الناس هو أن جدّي لم يعش أبدًا في دير القمر، كان المنزل مهملًا ومهجورًا عندما ورثته لأنّ جدّي لم يكن راضيًا عن البناء.

في الواقع، يبدو أن ذلك المنزل كان فألًا سيئًا على الجميع. فقد نقل جدّي كميل ملكيته لوالدي الذي قُتل بوحشية مع زوجته إنغريد وشقيقيّ طارق وجوليان، ثم بعد فترة قصيرة من شراء مايك له تمّت تصفيته مع زوجته ماري نويل في البرازيل. أُرديا بمسدّس، من مسافة قريبة، في محطة للوقود. خلّف كل من داني ومايك ابنتين نجتا من المجزرة.

بعد عملية اغتياله، نقلت الصحيفة اللبنانية الناطقة بالإنكليزية «ذي دايلي ستار» عن لسان أعضاء في القوات اللبنانية أن مايك نصار ربما قُتل على أيدي أعضاء سابقين من الحزب المُنحَلّ ممّن لا يزالون يقيمون في البرازيل ومن المقرّبين من رئيسهم السابق سمير جعجع، الذي كان لا يزال في السجن آنذاك.

في سياق متّصل، رجّحت بعض التكهنات أن يكون الإسرائيليون مسؤولين عن الاغتيال لأنّه كان من المقرَّر أن يكون مايك هو الشاهد الثالث في محاكمة رئيس الوزراء الإسرائيلي آرييل شارون المتَّهم بجرائم حرب. ومن المعروف أن الشهود الثلاثة قُتلوا في ظروف غامضة في العام 2002. كذلك، قضى جان غانم، وهو مساعد آخر لحبيقة، في حادث ليلة رأس السنة، إثر اصطدام سيارته بشجرة.

أجّلت المحكمة البلجيكية إصدار القرار النهائي في محاكمة شارون على الجرائم التي يُزعم أنّه اقترفها. لم تُعرف أسباب التأجيل ولكن من المحتمل أن يكون قتل الشهود المتوقّع إدلاؤهم بشهادات هو أحد العوامل التي أسهمت في صدور هذا القرار.

لدى سماعي هذه القصص، عادت بي الذاكرة إلى أهوال الحرب والثمن الذي دفعناه جميعًا خلال سنوات الجنون هذه. كانت ست سنوات قد مرّت على المحاكمة. عام 2001، كنا نعيش في واشنطن. بلغ ابني السادسة بتاريخ 11 أيلول/سبتمبر، في ذلك اليوم المشؤوم للهجمات الإرهابية المروّعة في الولايات المتحدة. مجدّدًا شعرت بأن الحرب لا تمهل، لحقت بي إلى أميركا.

في ذلك اليوم، أصيبت واشنطن بصدمة ودبّت فيها حالة من الفوضى. اتصل بي الأصدقاء من أنحاء المدينة وقد أصابهم الذعر بعد أن اضطر العديد منهم إلى ترك سياراتهم وقطع مسافات طويلة مشيًا على الأقدام للعودة إلى منازلهم، باتجاه مستقبل مجهول.

ما كان بوسعنا سوى الانتظار لنعرف ماذا سيحصل. وكأنّ الزمن أعادني مجدّدًا إلى أيام الحرب. كنت أعرف هذا الإرهاب جيدًا. البلد برمّته كان تحت وطأة الصدمة، واعتقد الجميع فعليًّا أنّها بداية حرب إرهابية سيطول أمدها من خلال هجمات لا أحد يعرف مصدرها.

أمّا الصدمة التي عانيت منها ذاك الصباح، فهي شبيهة بما كنت أختبره يوميًّا لسنوات عدّة؛ منظر الأشخاص الذين يقفزون من النوافذ في مبنى «مركز التجارة العالمي» كان بمثابة استعادة بالنسبة لي للهجوم الذي تعرّض له منزلنا على شاطئ «الصفرا» عندما كان الأشخاص يُدفعون من شرفات الفندق الشاهقة وتطلق عليهم النار قبل أن يسقطوا على الأرض.

بدا أن طاعون نزاعات الشرق الأوسط انتشر ليطال أميركا في نهاية المطاف. تزلزل العالم وبدأت ترتسم في الأفق ملامح خط جديد، أفق مفعم بالخوف وبخطر الانتقام. أدركت أنّه لا يمكن توسّم أي خير في ما سيأتي لاحقًا.

لفترة وجيزة، سنحت الفرصة لأميركا لتغيّر المستقبل جذريًّا من خلال خلق مساحة بين الفعل وردّة الفعل، ولكن سرعان ما أُقفل الباب بوجه هذه الفرصة مع الإجراءات والتحضيرات التي باشر الجمهوريون المحافظون الجُدُد بتنفيذها في البلاد استعدادًا لمرحلة الحرب المقبلة. ولأول مرة، دعا هؤلاء إلى استخدام قوة أميركا الاقتصادية والعسكرية بطريقة هجومية لإطاحة الأعداء وتعزيز الديمقراطية في الدول الأخرى.

وخلال الفترة القصيرة التي تعاطف خلالها العالم بأجمعه مع الولايات المتحدة، كانت ملامح جديدة تبرز لأميركا، حقبة من النشاط العسكري القائم بالمحصّلة على الانتقام. عرفت من تجربتي خلال سنوات القتال في لبنان أن الانتقام هو وقود الحرب المسؤول عن تأجيج المشاكل إلى درجة لا يبقى معها أيّ سبيل للعودة إلى الوراء أو للتعافي.

في تلك الأيام، كان أيّ كلام ضدّ الحرب يُعتبَر خيانة. ففي أعقاب هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وفي غضون أيام معدودة، كانت إدارة الرئيس جورج بوش قد وضعت خطاب الإرهاب ومصطلح محور الشرّ قيد التداول، وسارعت على الفور إلى إعداد الأرضية لشنّ إحدى أقلّ الحروب فائدة في التاريخ الحديث.

راقبتُ بذهول وذعر تحوّل الأمم المتحدة إلى منتدى لتسويق الحرب ضدّ العراق، كما راقبت برعب الانتقادات العنيفة التي وُجّهت لأعضاء مجلس الشيوخ لدفعهم الى التصويت على شنّ حملة عسكرية أحادية الجانب. لم أصدّق أنّهم سيستسلمون للترهيب في وقت تظاهر خلاله الالآف ضدّ الحرب وامتلأت شوارع العواصم الكبرى في العالم بالتظاهرات الحاشدة.

لم يكن ذلك أحد مظاهر الديمقراطية ولكنّه كان التطبيق الواضح لما بات يُعرف بـ«عقيدة بوش»، وهو مصطلح استعمله نائب الرئيس ديك

تشيني في خطاب ألقاه في حزيران/يونيو 2003 جاء فيه «إن كان من أحد في العالم اليوم يشكّ في جدية عقيدة بوش، أودّ أن أدعوه الى النظر بمصير حركة طالبان في أفغانستان ونظام صدّام حسين في العراق».

واقع الحال هو أنّ عقيدة بوش التي صمّمها المحافظون الجُدُد غيّرت فعليًّا صورة أميركا في العالم أجمع، وبدت هذه الصورة بعيدة كل البعد عن صورتها في اليوم الحاسم من العام 1944 خلال الحرب العالمية الثانية حين كانت قد أنقذت العالم الحرّ من القبضة الحديدية للفاشية.

من خلال إطلاق عملية «حرية العراق»، باتت الولايات المتحدة ملتزمة بشن حروب وقائية منحتها تفويضًا مطلقًا لإطاحة أنظمة أجنبية كانت تمثّل تهديدًا محتملًا أو متوقّعًا لأمنها حتّى لو لم يكن ذلك التهديد فوريًّا.

وشكّلت نظرة الهيمنة الثقافية في تصدير الديمقراطية إلى جميع أنحاء العالم، وخصوصًا في الشرق الأوسط، حجر الزاوية في السياسة الخارجية الجديدة للولايات المتحدة، باعتبارها الاستراتيجية المناسِبة لمحاربة الإرهاب وتحقيق المصالح العسكرية والاقتصادية الأميركية.

من المنصف اليوم الإقرار بفشل هذه الاستراتيجية في تحقيق النتائج المتوخاة لأنّ الولايات المتحدة خسرت معظم نفوذها السياسي في العراق أمام تزايد السيطرة الإيرانية. وبالنسبة للعراق، يبدو أن إدارة بوش أخطأت أيضًا في تقويم الحجم الديموغرافي الذي يشكّل عادة عنصرًا حيويًّا للديمقراطية، بما أنّ الشيعة يمثلون 65% من عدد السكان بينما يمثّل السنّة 35% فقط من إجمالي سكان العراق.

ومن سخرية القدر أن تكون الولايات المتحدة قد كرّرت الخطأ في التقدير نفسه في فلسطين حين انتصرت حركة «حماس» المسلحة

والناشطة ضدّ إسرائيل والمسؤولة عن العديد من «الهجمات الإرهابية»، في الانتخابات النيابية لعام 2006. فمن الواضح أن الحركة عكست إرادة الشعب بينما مهّدت الديمقراطية الطريق أمامها للسيطرة على السلطة الفلسطينية في قطاع غزّة.

فبعد ذلك الانتصار المعبّر، وخلال مقابلة في البيت الأبيض، أجاب الرئيس جورج بوش عن أسئلة أحد الصحافيين بالقول إنه، على الرغم من تأييد الولايات المتحدة للديمقراطية، لا يجب عليها القبول دائمًا بنتائجها. ويعكس هذا التصريح التناقض الكامن بين ممارسة الديمقراطية وتحمّل نتائج الانتخابات التي تمليها، ويجسّد المأزق الذي وقعت فيه أميركا في محاولة تطبيق عقيدة بوش.

تراجعت شعبية أميركا إلى أدنى مستوياتها في تلك الحقبة، ولأوّل مرة في التاريخ شعر الأميركيون الذين يسافرون الى الخارج بالحرج من موقف بلادهم.

خلال تلك السنوات، فقدت الأمل بأيّ مستقبل قريب. يئست من حالة العالم، وسلّمت بعدم جدوى كل الموت الذي سينتجه ذلك المسار.

عدا عن الفشل الذريع لسياسة أميركا الخارجية، انتشرت داخليًّا في أنحائها ثقافة الخوف والشر، وبرز التمييز العنصري كأهمّ مكوّن لها. كنت قد شهدت كل هذا من قبل، لذلك، سرعان ما أدركت أنّها ليست سوى أدوات لتبرير استعمال القوة على نحو تعسّفي. بعد أشهر قليلة، فُرضت القيود على الحريات المدنية وأُلغي الحق بالخصوصية واستُبيح في فضيحة التنصّت على الهاتف التي صدمت جميع الأميركيين. في النهاية، كان الإرهاب، مع كل تبعاته، بما فيها سوء استعمال النفوذ، قد لحق بي إلى الولايات المتحدة، وبدا أنّه لم يعد ثمة مكان آمن على هذه

الأرض. بالنسبة لحاملي البطاقة الخضراء، كانت تلك حقبة مرعبة شهدت عمليات ترحيل بالجملة. هكذا، أخضعوا الأمّة من خلال التخويف.

عدا عن مأساة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كان عام 2001 قاسيًا للغاية بالنسبة لي شخصيًّا بسبب وفاة والدتي في شباط/فبراير من العام نفسه. توفيت في لندن بسبب المضاعفات المرتبطة بداء السكّري. وعلى غرار الأحداث المؤثرة السابقة في حياتي، كان موتها عنيفًا جدًّا ومروّعًا؛ بدت عليها علامات الاعتلال العصبي الشديد وتعطلت الدورة الدموية في قدميها وساقيها. ومع اقتراب الفصل الأخير من حياتها أُجريت لها عدّة عمليات تمرير فاشلة في أطرافها بلغت ذروتها بعمليات بتر متعاقبة لأعضائها؛ فخسرت أولًا بعض أصابع قدميها ثم قدمها، ثم الجزء الأسفل من ساقها وأخيرًا فخذها. حذّرني الطبيب قائلًا إنهم يطلقون على هذه الحالة تسمية «الموت إربًا إربًا»! كان من الرهيب مراقبتها وهي تتقطّع أجزاءً حتّى الموت فيما الغرغرينا تنهش تدريجًا خلاياها السليمة.

في النهاية، أصيبت بجلطة دموية جراء بتر الأطراف، ما أدى إلى انسداد رئوي هائل، ونجح الأطباء في إنعاشها. وصلت قبل هذه اللحظة بقليل وشهدت موتها. كان جسدها غامقًا كخشب الأبنوس وهو ممدّد ولا حياة فيه. نجحوا في إعادتها جزئيًّا إلى الحياة ولكنّ السواد والفراغ سكنا في عينيها. كانت محتجزة في مكان ما في الداخل تتألم. استمر جسدها المقوّس ينازع مدة عشرين ساعة قبل أن تسلم الروح على الرغم من المسكّنات القوية التي أعطاها إياها الأطباء والتي كانت كافية، على ما زعموا، لتسكين آلام فيل.

كان من الرهيب مراقبتها وهي تتألم بهذا الشكل وهي مسجونة في هذه المساحة من النسيان والعذاب، كانت تنتصب تكرارًا في سريرها

وكأنها تدفع الشياطين بعيدًا. لا أعرف ما كانت تراه أو تشعر به لأنّها لم تكن موجودة فعليًّا؛ بل كانت كأنها محتجزة في مكان وسطي بين الحياة والموت. مهما تكن المعركة التي كانت تستعر داخل روحها فهي لم تكن سهلة. لم تؤمن والدتي يومًا بقوة أكبر من قوتها، لم تكن المسألة جزءًا من يومياتها لأنّها كانت تعشق الحياة لدرجة عدم الاكتراث بالآخرة.

لدى اقتراب النهاية، لم أعد أحتمل منظر عذابها وأخذت أحدّق بالممرضة التي كانت تعطيها المورفين، أدركت أنّها لم تكن سوى ملاك الموت. بقيت إلى جانبها حتّى النهاية، أو البداية، بحسب ما قد يعتبرها كل شخص. وأخيرًا، عندما تجاوزت هذه العتبة حدّقت بجسدها الذي لا حياة فيه، بالكاد كان يمكن التعرّف إليها. تلاشت قوتها وروعتها ولم يبقَ سوى إنسان يُشبه أيّ إنسان آخر عند الموت. بعد موتها الجسدي، جلست إلى جانبها في الغرفة لمدة ساعة شعرت خلالها بحب عارم يغمرني ويحرّرني من ألمي ولوعتي لفراقها.

عند بداية مرضها، عقدت العزم على البقاء إلى جانبها وتصحيح جميع الأخطاء التي شابت علاقتنا. ناضلنا معًا لاستيعاب الضغوط التي فرضتها علينا سنوات الحرب. لكونها دخيلة منذ البداية، شعرت والدتي بأنها تعرّضت للتخلي التام والخيانة عندما تركها والدي من أجل امرأة أخرى. شكّل هذا الواقع ضغطًا كبيرًا على علاقتنا تزامنًا مع تداعي العالم من حولنا.

في شبابها، كانت والدتي من أجمل جميلات جيلها. وتمثّل مسيرتها المهنية، من عارضة أزياء في الخمسينيات إلى ممثلة سينمائية وشخصية تلفزيونية، خير شاهد على روعة جمالها وشخصيتها المرحة. لذلك، كان من الصعب مراقبة الأشهر الأخيرة من حياتها لأنّها فقدت تدريجًا أيّ رغبة بالحياة.

بتر ساقها جعلها معاقة جسديًّا، وهو برأيي أمر لا طاقة لها على احتماله ولم تستطع التعامل معه. مرّ وقت فاق فيه التأمين على ساقيها مبلغ مليون جنيه، وفي النهاية، ها هي تراقب التشوّه اللاحق بهما. إن لمن مفارقات الحياة أن يخسر المرء أولًا أكثر ما يثمّنه في هذه الحياة. كانت تلك عبرة مهمّة بالنسبة لي، حول تعلّقنا بكلّ ما هو عابر.

بوفاتها، طُويت صفحة وانتهى فصل من حياتي. موتها العنيف دفعني إلى التفكير بالسبب الذي جعل حياتي مشحونة بالفظائع. ما هو الالتزام الذي عقدته عند ولادتي لأشهد مواقف متطرّفة في ألمها كهذه؟

قُتل والدي وعائلتي، عدد كبير من أصدقائي لاقوا حتفهم، وقُطِّعت والدتي إربًا حتّى الموت. شهدت أكثر مما لي طاقة على احتماله؛ ما من شك في أن العنف المتطرّف جزء لا يتجزّأ مما خبرته في هذه الحياة.

لدى انتهاء مراسم جنازتها في لندن، عُدت إلى واشنطن وأنا غير مدركة لمدى الغضب الكامن في صدري. قرّرت على الفور تحسين المنظر الطبيعي لملكيتنا، فكلّفت بعض عمّال قطع الأشجار بقص 13 شجرة بلوط قديمة. أثناء عملهم المتواصل، كنت أسمع صوت المناشير تقص تلك الأشجار العظيمة التي أخذت تهوي على الأرض. وفي لحظة ما، هرعت إلى الخارج لأراها تسقط بقوة فأدركت فداحة أعمالي والتجديف الذي تسبّب به غضبي العارم.

أدركت أنّه كما تقطّعت أوصال أمّي، كذلك كنت أقطع أوصال تلك الأشجار. كنت أعبّر عن نار الألم والغضب التي كانت تتأجّج في صدري من خلال تلك التضحية البدائية. فهمت معنى القوة التي تحرّك الحاجة إلى التدمير بدفع من المعاناة والحزن واللوعة والضياع. سقطت جاثية على ركبتيّ وبكيت حرقة على أمّي وعلى الأشجار التي قضت بسبب ظلم الحياة وقلة وعيي.

في أعقاب هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وترهيب الجمرة الخبيثة، وقنّاص «بلتواي» في الحي المجاور الذي أزهق عشر أرواح خلال ثلاثة أسابيع، عرفت أنّه يتعيّن عليّ الرحيل. خلال بضعة أشهر، بعنا منزلنا وانتقلنا إلى فلوريدا بعيدًا عن العاصمة الأميركية وكل ما تمثّله. لم أشأ أن أكون جزءًا من هذا العالم بعد اليوم. رأيت ما يكفي ولم أعد أحتمل الانقلابات الدرامية في الأحداث وما ينتج عنها.

وصلنا إلى فلوريدا عام 2002 مع بداية حرب الخليج الثانية. مجدّدًا شاهدت القنابل تنهمر كالطاعون، وبكيت على موت الأبرياء، إلّا أنني، هذه المرة، لم أكن معنيّة مباشرة. وكأنّ صفحة طويت في حياتي.

لأول مرة، كنت أملك الخيار. فبإمكاني أن أعيش حياة عادية إذا أردت. كان هناك تطوّر في قدري وربما، لأول مرة، كانت ثمة مسافة بيني وبين المجازر. أعرف أن الأمر يبدو كنوع من الأنانية، لكنّني لم أكن أقرّر شنّ الحرب؛ كنت فقط أختار الابتعاد عنها قدر الإمكان.

في الواقع، كنت طيلة حياتي ضحية مجتمع تفاعلي. منطلق الحرب برمّته يرتكز على مبدأ التفاعلية وردّة الفعل؛ ذلك هو تعريف الانتقام؛ هو ردّة فعل تعاكس فعلًا سابقًا وتساويه. ولهذا السبب تشكّل مظاهر الانتقام الخطوط الرئيسية في نظام السببية الذي يوقع الأفراد بالنهاية في فخّ العنف ودوامة العقاب اللذين يتعاظمان ويتكاثران وحدهما. ويأتي الانتقام دائمًا على شكل ردّة فعل تصبح بذرة فعل آخر أكثر سوءًا. غالبًا ما نسمع مقولة «باطلان لا يفضيان الى صواب»، ومع ذلك، تظلّ تلك هي الوسيلة المفضّلة التي يعتمدها المتقاتلون، فئاتٍ كانوا أو دولًا.

في تشرين الثاني/نوفمبر من العام 2004، تلقّيت مكالمة هاتفية من أحد الشبّان الذين أحبّوا والدي كثيرًا. أطلعني على خيبة الأمل التي أصابته، هو والعديد من زملائه، غداة تسلّم عمّي مقاليد الحزب السياسي.

قرّرت التوجّه إلى لبنان للتحقّق عن كثب. عند وصولي فوجئت بمدى الانقسام القائم بين قياديّي الحزب. كانت صدمة بالنسبة لي لأنّ جميع الأشخاص الذين كانوا قد اعتبروا قدومي إلى لبنان في العام 1994 تهديدًا وأعربوا عن استخفافهم بي، طلبوا فجأة مساعدتي لتلطيف حدّة ما اعتبروه سوء إدارة للحزب من قِبَل عمّي.

حضرت اجتماعًا موسّعًا شارك فيه كبار المسؤولين في الحزب الذين بادروا إلى إطلاعي على مواقف عمّي وتصلّبه في عدّة مسائل. شرحوا لي أنّه طرد بعض الأعضاء الأوفياء من دون سبب وجيه، وأنه عيّن منذ البداية، مساعدًا له، شخصًا لا يحظى بثقة أحدٍ منهم، واعتمد منذ تعيينه في منصبه سياسة التمييز ضدّ جميع أنصار والدي الذي كان قد طرده ذات يوم من الحزب بسبب ارتباطه الوثيق بالقوات اللبنانية.

كذلك، اعتبر هؤلاء المسؤولين أنّ عمّي انتهج مسارًا سياسيًّا شخصيًّا لا يليق بمكانته حين انتُخب رئيسًا لبلدية قرية أجداده، بينما كان الجميع يتوقّع أن يحتل منصب وزير في الحكومة. في الواقع، أكّدوا أن معظم مواقفه وخياراته حجّمت إلى حدّ كبير المكانة العامة للحزب وحدّدت نطاق عملها في الساحة السياسية الوطنية العامة.

خلاصة القول هي أنّ هؤلاء الأشخاص الذين كانوا مخلصين لوالدي شعروا بأن عمّي استولى على الحزب، ورفض إجراء انتخابات، فحوّل الحزب الى ملكية خاصة، وباشر بإزاحة كل من يعارضه الرأي بأي شكل من الأشكال. من المهمّ أن نفهم أن هؤلاء الأشخاص قاتلوا وخاطروا بأرواحهم باسم عائلة شمعون، ولذلك لم يفهموا كيف يمكن أن يعاملهم دوري بهذه الطريقة بعد كل التضحيات التي بذلوها.

كذلك، أبلغوني بأن عمّي باع مبنى مركز القيادة في «السنا» SNA مقابل 1.4 مليون دولار، وهو مبلغ كبير، وأنه وضع كافة الأموال التي

تعود للحزب في حسابه الخاص ثم استثمرها في شركة إعادة تدوير يملك حصصًا فيها، في هيوستن في ولاية تكساس، وقد أعلنت هذه الشركة إفلاسها بعد فترة قصيرة ولم تُسترَدّ الأموال أو تسدّد للحزب. سمعت الكثير من الشكاوى ولمست الكثير من الاستياء.

بعد عدّة جلسات عقدتُها معهم للتحقق من صحة كلامهم وادعاءاتهم، قرّرت الاجتماع بعمّي لأستمع إلى روايته للأحداث. قابلته مرتين وفي كل مرة كانت النتيجة المتوقَّعة هي نفسها؛ لم يكن مستعدًا للاستماع إلى أيّ شيء أقوله وبقي متمسّكًا بمواقفه. نفى شكاواهم ونعتهم بـ«حفنة من الحمقى»، وبكلام آخر أقلّ تهذيبًا. وعندما ذكرت إحساسهم بالخيانة وحبّهم لداني أجابني بأنّ عليّ أن أدرك أنّ والدي لم يعد له صلة بأي أحد أو أي شيء.

تركت الاجتماع وأنا أهزّ رأسي من الحيرة وأطلعت الآخرين على الوضع. ذاك اليوم، صدمتني قساوة ما قاله عمّي عن والدي. عند هذه المرحلة من حياتي، دفعتني المواجهة الشخصية معه حول هذه الاتهامات من جهة، والدعم الواضح للحرس القديم في الحزب من جهة أخرى، إلى التفكير بالعودة إلى الحلبة السياسية. شعرت بأنّ كبار الأعضاء في الحزب يحثّونني على مساعدتهم في تنصيبي مكان عمّي في قيادة التنظيم. من دون شك، كان هناك عرض واضح مطروح على الطاولة.

كان موعدًا مع القدر شكّل بالنسبة لي فرصة لأنتقل إلى الدور الذي وُلدت وتربيت لتولّيه على ما يظهر. بعدها، عُقد اجتماع موسّع حضره مئات من أنصار والدي، جاؤوا للتعبير عن ولائهم وميلهم لهذا الخيار.

ولكن، قبل التزامي بالمضيّ قدمًا في هذا الطريق، وبما أنّني كنت خارج البلاد لبضع سنوات، أردت استكشاف رأي وردّة فعل بعض القادة

إزاء عودتي. في تلك الفترة، كان المناخ السياسي في البلاد مضطربًا، يفاقم اضطرابه ازدياد واضح للعداء بين الحكومة الموالية لسوريا ورئيس الوزراء رفيق الحريري منذ وفاة الرئيس حافظ الأسد في العام 2000.

تولّى بشّار، ابن حافظ الأسد، سدّة الرئاسة ونجح في استبعاد المقرّبين من والده. وبنتيجة إعادة الهيكلة الداخلية لسماسرة النفوذ السوري في سوريا ولبنان لمصلحة بشار وإخوته، اعتمد النظام نكهة علوية متأصّلة وتوتّرت المشاعر إزاء الحريري السنّي ومؤيديه السعوديين من الوهابيين السنّة. هكذا، تحالفت الأقلّيّة العلويّة مع الشيعة في لبنان واستفادت من هذه الصلة للتحالف مع إيران.

في العام 2004، بلغت العلاقة بين الرئيس الحريري ورئيس الجمهورية آنذاك إميل لحود ذروة التوتر حين سعى هذا الأخير الى تمديد ولايته الرئاسية عن طريق ترتيب إعادة انتخابه بطريقة غير دستورية، بدعم وتشجيع من النظام السوري. وأثار عدم تعاون الحريري وعزوفه عن دعم التمديد استياء وغضب القيادة السورية.

كان الحريري ولحود مختلفين تمامًا. كان لحود مرشّحًا موالِيًا لسوريا، يتميّز بنزعة للكبت والرزانة اكتسبها من الانضباط العسكري. كان يتجنّب الإسراف ويفتخر بصرامته الشخصية التي تميّزه. في المقابل، صُقلت شخصية الحريري في قصور المملكة العربية السعودية، فكان تجسيدًا للفخامة والبذخ والترف. كان يجذب العظمة والثروة ويتنقل في دائرة من الامتيازات والاستحقاقات. كان لا بدّ أن يختلفا.

اعتبر لحود نفسه ضمانة للحدّ من شهية الحريري الهائلة في مجال الأعمال وعقد الصفقات. من جهته، اعتبر الحريري نفسه مهندس نهضة لبنان المالية ونجمها. اتهم لحود الحريري بالفساد، فيما اتهم الحريري لحود بالتبعية والتفاهة.

في تلك الآونـة، كانت المواجهة بين الرجلين تظلّل الساحة السياسية. قرّرت زيارة وليد جنبلاط، زعيم الطائفة الدرزية، والرئيس رفيق الحريري، الذي لم ألتق به مجدّدًا منذ إجراءات المحاكمة حين مدّ لي يد المساعدة.

استقبلني جنبلاط في منزله في بيروت. بدا خائب الأمل عمومًا، ونقل لي الإحساس بعدم جدوى الانخراط في السياسة اللبنانية. في تلك الفترة، كان هو أيضًا على خلاف مع النظام السوري، في ما يتعلق بإعادة انتخاب رئيس الجمهورية.

في حياتي، لم أره متعبًا إلى هذا الحدّ، تتملّكه المرارة بسبب السياسة. لم أعرف كيف أفسّر كلماته بالضبط، لأنّ وليد متقلّب ومزاجه وتصرفاته تتبدّل باستمرار. ولكنّ الأهم هو أنّني تلقّيت منه شحنة هائلة من الحزن.

مزاج الرئيس الحريري لم يكن أفضل حالًا كما بدا لي حين قصدته لاحقًا، ولكن على خلاف جنبلاط كان أكثر تجاوبًا. منذ انتهاء الحرب، يشير الناس إلى فراغ في القيادة من الجانب المسيحي. عندما زرت الحريري لم تكن هناك شخصية مسيحية قوية في القيادة؛ جعجع كان في السجن وعون منفيًّا في فرنسا. لم يترك عمّي أيّ علامة فارقة في الساحة السياسية مفضّلًا الاكتفاء بأن يكون رئيس بلدية دير القمر.

في سياق الخصومة المستشرية بينه وبين الرئيس لحود، رأى الحريري فيَّ محاورًا مسيحيًّا محتملًا وغير منحاز، وأعجبته نيّتي دخول المعترك السياسي.

كانت قد مرّت فترة طويلة منذ آخر مرّة جلسنا فيها معًا وتحدّثنا. بدا متعبًا وشديد القلق وأمضى معظم الوقت خلال اجتماعنا وهو يشتكي من التعب ومن العراقيل والجهد الذي يكابده في التعامل السياسي.

بدا كأنّه عالق في فخّ يعجز عن الخلاص منه ومن خيبة الأمل التي ينطوي عليها.

من جهته، لاحظ ذاك اليوم أنني أبدو أفضل من المرة السابقة التي تقابلنا فيها، حين كنت أرزح تحت ضغوط جمّة.

حين نظرت إليه وسط مظاهر الثراء والرفاهية، رأيت رجلًا أصابه اليأس والقنوط، وكأنّ بساط الحياة ينسحب من تحت قدميه، يشبه الرجل الذي كانه والدي قبل وفاته؛ للمفارقة، اغتيل الحريري بعد ثلاثة أشهر. بطريقة ما، أعتقد أن الحريري ووالدي كانا يستشعران اقتراب أجلهما. غادرت الاجتماع وأنا مقتنعة بأنّ قرار عودتي يعود لي وحدي.

لا يسعني إلّا أن أتساءل
لماذا نجهد لتحقيق المزيد
فيما لا يبقى لنا
سوى ما بدأنا به الطريق
ليس ثمة ربح أو خسارة
فقط انتصارات وتهاليل وهمية
مساعٍ تبتلع الوقت
وجهدٌ يُبذل عبثًا
وكلّ ما يهم
هو رؤية وجهك ربّي
وجهك السرمدي الأبدي الكلّي
من سحيق الزمان والمكان
كيف أسائل حياتي المتواضعة
والأجوبة موجودة هنا
في فعل العيش ببساطة
حيث الموت نفسه يُغفر في النهاية
لا يسعني سوى أن أعيش يومياتي بوعي وأمانة
لتكون حياتي صلاة رسمية

مقتطفات من «صلاة رسمية».

9

بعد ذلك الوقت الذي قضيته في بيروت واللقاءات التي عقدتها مع أعضاء الحزب لمناقشة الخيارات المتعلقة بالتنظيم وبعمّي، تركت البلاد وأنا مقتنعة بوجوب عودتي للاستقرار في لبنان. لكن فور وصولي إلى الولايات المتحدة أحسست بالعبء المترتب على هذا الالتزام.

ما من شك في أنّ ثمّة مفترقات طرق تتخلّل حياة كلٍّ منّا. كان ذلك أحدها. فقد كان الموقف يضمّ جميع العناصر اللازمة لي لأتخذ قرار تغيير حياتي. كان زوجي فْرِد مستعدًّا لدرس الفكرة رغم تحفظّه على انتقالنا إلى لبنان. ناقشنا تبعات هذا الانتقال بالنسبة لعمله وعائلته في الولايات المتحدة وابننا، واتفقنا على أن يكون الانتقال تدريجيًّا على امتداد سنة كاملة؛ أنتقل أنا أولًا لأستقرّ، ثم يلحق بي فْرِد مع ابننا ليكس.

إذًا، ما الذي جرى؟

ولماذا لم يتحقّق شيء من كل ذلك؟ اليوم، وأنا أكتب، تبدو الصورة أوضح بالنسبة لي وأفهم أكثر لما لم أقم بتلك الخطوة الجذرية.

كانت اعتباراتي آنذاك عملية للغاية. واقعيًّا، كان المطلوب مني في النهاية هو تشتيت العائلة. كنت أشاهد النمط ذاته يتكرّر في لبنان، وخصوصًا في الجانب المسيحي حيث تتكاثر العداوات بهدف السيطرة على الإرث ضمن العائلة الواحدة. تلك النزعة المركزية التي تتوسّع في النهاية لتبسط حلقات الانشقاق التي تشوبها على الساحات المجتمعية والوطنية الأوسع ما خلق انقسامات لا نهاية لها؛ وذلك أشبه بمرض ينخر عظام الأمّة برمّتها.

بينما كنت أدرس تأثير ومسؤولية أعمالي الخاصة نشبَت مواجهات متفرقة بين شباب من أنصار عمّي وآخرين من أنصار والدي. ساورتني رؤية فظيعة لدماء تُراق بين أبناء العائلة الواحدة حول هذا التصدّع المحتمل، وهو أمر غير مقبول على الإطلاق. بكل صدق، لم أرغب في التورّط بهذا الأمر. كان أمامي خياران: الخيار الأول يقضي بالعودة إلى لبنان ومواجهة عمّي مع كل ما يترتّب على تلك الخطوة والأعمال الانتقامية المحتملة التي قد تنشأ عنها. والخيار الثاني يقضي بأن أنسحب من الساحة فأنزع فتيل الفتنة.

وعلى الرغم من شعوري بالالتزام تجاه أولئك الذين ناشدوني إحداث التغيير الذي يتوقون إليه، كنت قلقة بشأن النتائج. اكتشفتُ أنني لا أستسيغ السلطة. كنت قد قطعت في وعيي الشخصي شوطًا أبعد من أن أكون جزءًا من ذلك... تمكّنت من تصوّر ما سيترتّب على هذا النوع من السلوك. فكل من اختار طريق العنف لتحقيق طموحه الشخصي خسر في ميدان الحياة، ولم يكن بمقدوري السماح بتكرار المآسي العديمة الفائدة مرة أخرى.

خلال فترات الاضطراب الداخلي هذه، كنت أستعيد بعض الروابط الغريبة، وحضرتني صورة جدتي «زلفا» بشكل واضح؛ أدركت في صميم

قلبي أنّها لم تكن لترضى بنهاية كهذه. وذلك فضلًا عن أنني شخصيًّا كنت مقتنعة بأن منافسة عمّي على رئاسة الحزب ليست بالأمر الصائب عائليًّا. هكذا، سلكت الدرب المعاكس لطبيعة الأشياء، ففي النهاية، مهما يكن، عمّي هو خَلَف جدّي وهو الأكبر سنًا. اتصلت به هاتفيًّا؛ بدا قلقًا في بداية المكالمة قبل أن يعرف موقفي. قلت له بكلام واضح لا يقبل أيّ لبس إنني لن أتحدّاه ولن أواجهه وإنني أنسحب من أيّ نشاط سياسي ضدّه.

أشعره كلامي بالارتياح، ثم انتشر الخبر بسرعة البرق.

بالنسبة إليّ، كلّفني ذلك الاتصال غاليًا، لأنّ أعضاء الحزب الذين علّقوا آمالهم عليّ أصيبوا بخيبة أمل. شعرت بأنّ خياري بدّد أحلامهم.

اليوم، أدركُ كم كان من الصعب عليهم تقبّل قراري. لكنّني كنت مقتنعة أيضًا بأنّ قرار عدم تغذية النزاع حرّرهم بطريقة ما. كان الأمر أشبه بقطع حبل السرّة الذي يربطهم بعائلتي، ما دفع عددًا كبيرًا منهم إلى متابعة حياتهم؛ فمنهم من عدل عن السياسة كليًّا وتفرّغ لحياته المهنية ليصبح طبيبًا أو محاميًا أو مهندسًا، ومنهم من دفعه قلبه وروحه إلى السعي لاستبدال مكانة والدي بغيره، فاتّجه بشكل طبيعي نحو العماد ميشال عون لأنّه شعر بأنه يمثّل الخط السياسي نفسه الذي سلكه والدي والمبني على الأخلاقيات الوطنية ومكافحة الفساد. وبالفعل، سرعان ما عاد العماد عون إلى لبنان وجذب جميع المناصرين الذين أهملهم عمّي أو نبذهم.

إنّه النمط المعتاد في لبنان، حيث يضع الكثيرون مصيرهم في أيدي قلّة من الناس. نمط أثبت، للأسف، كم أنّه مضلّل وخاطئ، إذ عزّز، على مدى عقود في لبنان، وجود طبقة حاكمة فاسدة أخلاقيًّا، كما غذّى ثقافة عبادة الأشخاص بحيث تكتظّ الشوارع بصور القادة، وتُشهر

أسماؤهم كالأسلحة. إنّها ثقافة عبادة البطل وإهانته في الوقت ذاته، وهي لا تشجّع المرء على تحمّل مسؤولية قدره. كل جيل يقع في شرك النمط نفسه من التبعية، بينما تسهم البنية الطبقية الجامدة والمقيِّدة في تعزيز تداول ذلك الإرث.

في إطار نظام التبعية الإقطاعية السياسية ذلك، يكافح كل عنصر للحفاظ على تعثّر الآخر، ويستمرّ الزعماء في تبنّي الخيارات استنادًا إلى إخلاص أتباعِهم، بينما يستمر الناس في رفع زعمائهم الى مراتب بطولية غير واقعية. من المؤسف أن تكون تلك هي نقطة الضعف التي تجعل الزعماء عرضة للاغتيال؛ فهم أيقونات ما إن تدمّرها حتّى ينهار كليًّا التيار السياسي المبني على شخصها.

لسنوات عدّة، كنت نتاج ذلك التفويض الإقطاعي التقليدي الضيّق، وصُقِلت هويتي على صورته. فبصفتي ابنة شهيد راحل، وجَب عليّ التكيّف مع خطّه وتبنّي دوره وإلا تلاشى كل ما دافع عنه. لذلك السبب، كان من الصعب ومن المربك للغاية بالنسبة إليّ أن أنسحب. شعرت بذنب كبير لأنّني تنكّرت لإرثي.

في البداية، سعيت إلى تسوية الأمور مع عمّي. فأنا قد أكون خسرت فرصة الضلوع بدور سياسي في لبنان، لكنّني على الأقلّ، ربحت عائلة، فبعدما فقدت جميع أفراد عائلتي الضيقة، كان من الصعب عليّ أن أستمر بالشعور بالغربة وسط المحيط العائلي الأوسع. أردت أن أنقذ ذلك الرابط على الأقلّ.

وبهدف إعادة اللحمة، دعوت عمّي للإقامة عندي مدة أسبوع خلال زيارته المرتقبة للولايات المتحدة؛ فلبّى الدعوة وبدا كأن التوتر قد زال، وحاولنا المضيّ قدمًا. ولكن مع مرور الوقت، خفّ الاتصال بيننا تدريجًا وبات يأتي أحيانًا إلى أميركا من دون أن يعلمني، بل أعلم

بزيارته من آخرين... بدت تصرّفاته بمثابة تجاهل تام أو سلوك متعمَّد لاستبعادي. أحزنني ذلك. بدا كأنه ارتاح لابتعادي عن طريقه. حاولت تخطّي ذلك ومنحه ما يريد.

أدرك اليوم أنّ التوقيت مهمّ وأنّ علينا أن نثق بخياراتنا شرط أن نكون قد اتخذناها بنزاهة. ننظر إلى حياتنا من منظور جزئي ونبني مفاهيمنا استنادًا إلى الجزء الصغير الذي يتسنّى لنا رؤيته. في تلك الفترة، كان عليّ الاستفادة من خياراتي إلى أقصى حدّ، وحاولت أن أضع جانبًا جميع الروابط التي تشدّني إلى لبنان لأعيد التركيز على حياتي في الولايات المتحدة. لكن الأمر كان مستحيلًا.

يوم عيد «فالنتاين» في العام 2005، اغتيل رئيس الوزراء رفيق الحريري في انفجار سيارة مروّع هزّ البلاد برمّتها. تذكّرت مدى قلقه حين تقابلنا قبل أشهر قليلة. حزنت عليه كالجميع، وعرفت أن الاغتيال سيشكّل مفترق طرق حاسمًا بالنسبة للبنان. وبالفعل أسهمت التبعات الطويلة المدى لهذا الانفجار بإعادة رسم المشهد السياسي اللبناني لسنوات عدّة، وبات لبنان مذ حينها في قبضة القوى المسيطرة الساعية لتغيير مظهر المنطقة برمّتها. فبعد أحداث 11 أيلول/سبتمبر، ومع انطلاق عملية «حرية العراق» أُعيد رسم خريطة الشرق الأوسط بناءً على معايير مختلفة، ومن خلال صورة العالم التي روّج لها المحافظون الجُدُد في الولايات المتحدة. وبات اللاعبون المحليون، مجتمعين، ومن ضمنهم رفيق الحريري وإميل لحود وحزب الله وبشار الأسد، مجرد عناصر بائسين في عملية إعادة ترتيب سعت إلى استقطاب الآراء والانتماءات بين نقيضين، «محور الاعتدال» يقابله «محور الشرّ».

في مقال نشره في صحيفة «نيويورك تايمز»، بتاريخ 5 آذار/مارس 2007، تحت عنوان «إعادة التوجيه، هل يستفيد أعداؤنا من السياسة

الجديدة للإدارة في مجال الحرب على الإرهاب؟»، يقول سيمور هيرش، الحائز جائزة «بوليتزر»: أفادت وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس في شهادة أدلت بها أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس النواب بأنّ «ثمّة اصطفافًا استراتيجيًّا جديدًا في الشرق الأوسط يفصل بين الإصلاحيين والمتطرفين»؛ وبعد أن أشارت إلى أنّ الدول السنّية تمثّل مراكز اعتدال بينما تصطفّ إيران وسوريا وحزب الله «في الجهة الأخرى من هذا الخط الفاصل»، أضافت أن إيران وسوريا قد اتخذا قرارهما «وهو يقضي بزعزعة الاستقرار».

عمومًا، أدّت الاستراتيجية التي اعتمدتها الولايات المتحدة إزاء سوريا، والمتمثلة برفض الحوار وبتهديدها بالمصير ذاته الذي لحق بالعراق، إلى تفاقم التوتر في المنطقة إلى درجة لا تُحتمل، وإلى حشر الرئيس السوري الشاب في الزاوية.

من جهة أخرى، ومنذ ما قبل مقتل الحريري، وفي إطار حشد جهودها الحربية، خلقت إدارة الرئيس بوش في الولايات المتحدة بيئة سياسية معَدَّة للانفجار بخصوص تطبيق قرار الأمم المتحدة رقم 1559. وشكّل توقيت صدور القرار 1559 جزءًا من الاستراتيجية الأميركية الهادفة لزيادة الضغط على سوريا وعزلها. أمّا الدعوة التي تضمّنها القرار بانسحاب كافة القوات الأجنبية الباقية في لبنان ونزع سلاح جميع الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية وحلّها، فقد استهدفت، من بين ما استهدفت، سوريا وحزب الله على وجه الخصوص.

بسبب هذه الضغوط الدولية الكبيرة، وبهدف دعم مكانته السياسية، سعى بشّار الأسد بإصرار واضح إلى تمديد ولاية الرئيس إميل لحود في لبنان بطريقة غير دستورية. فقد كان اصطفاف لحود إلى جانب المعسكر السوري مضمونًا، بالإضافة إلى أن بقاءه في السلطة سيضمن

استمرار حرية تحرّك حزب الله، الذي يشكّل جزءًا لا يتجزّأ من نفوذ سوريا الإقليمي. وسط نيران هذه الصواعق الإقليمية، وجد الحريري نفسه.

بطبيعة الحال، أسهم النفور الشخصي المتبادل بين الحريري ولحود في زيادة هذه الضغوط الإقليمية، ما أدّى الى تراجع كبير في عمل أجهزة الاستخبارات المحلية في لبنان التي سيطر عليها السوريون. تفاقمت حدة المواجهة بين رئيس الجمهورية المدعوم من سوريا ورئيس الوزراء الذي دعا علنًا الى التعاون مع الغرب. وبالنتيجة، بات المناخ محفوفًا بالمخاطر بالنسبة الى الرئيس الحريري شخصيًّا، وسادت البلاد أجواء عامة من الفساد الذي كان الحريري نفسه قد عزّزه، ما أسهم في تشويه الصورة أكثر فأكثر. فقد كان معظم الضباط السوريين العاملين في لبنان مدرجين على قائمة الرواتب التي يسدّدها دوريًّا.

أسهم تقاطع جميع هذه العوامل، ومن ضمنها عملية الاستقطاب الإقليمية التي خلّفها قرار الأمم المتحدة وتصلّب الحريري حول مسألة التمديد لولاية الرئيس لحود، والفساد المستشري داخل الجهاز الأمني الخاضع للسيطرة السورية، في التقويم العام القائل بأن السوريين هم من يقفون وراء عملية اغتيال الحريري؛ حتّى المجتمع السنّي الذي كان إلى حينه يدعم الوجود السوري في لبنان، بات يتّهم السوريين ويحمّلهم مسؤولية الجريمة.

صباح اغتيال الحريري، انفجرت عبوة زنتها حوالى ألف كيلوغرام من مادة الـ«تي أن تي» لدى مرور موكبه أمام فندق سان جورج في قلب بيروت، وتردّدت أصداء الخبر في كافة أنحاء العالم. في ذلك اليوم، لاقى 22 شخصًا حتفهم، معظمهم محروقين. ووُجد الحريري ممدّدًا على الطريق خارج سيارته المضادّة للرصاص، متفحمًّا حدّ صعوبة التعرّف إليه. ثمة طرقات أربعة كان بإمكانه سلوكها، ومن الممكن أن تكون

جميعها زُرعَت بالمتفجرات، فقد بدا أنّ ثمّة نيّة هائلة ومُتّفَقًا عليها للتخلّص منه وإطلاق أحداثٍ غيّرت وجه لبنان.

على مدى سنوات، نسج الرئيس الحريري صداقة قوية مع الرئيس الفرنسي جاك شيراك، وقد أظهر شيراك دعمه للرئيس الحريري طوال مسيرة هذا الأخير السياسية. وكثرت الشائعات القائلة بأن الرئيس الحريري أسهم في تمويل حملات الرئيس شيراك من خلال شراء شركات فرنسية متعثّرة أو مساعدتها على تأمين عقود مُربحة في المملكة العربية السعودية. وقد ربطت بين الشخصين علاقات شخصية متينة. ويحكى أنّه بعد اغتيال الحريري، حين زار الرئيس شيراك بيروت لتقديم التعازي، قطع وعدًا خاصًا لعائلة الحريري بمعاقبة القتلة. وفي ذلك اليوم، طرح فكرة إنشاء محكمة دولية تقع تحت سلطة مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة وتُكلَّف بالتحقيق في الجريمة. دعم الرئيس جورج بوش طلب إنشاء المحكمة التي باتت بطبيعة الحال أداة أخرى تستفيد منها الولايات المتحدة ضدّ خصومها، في إطار جهود الحرب في العراق والمنطقة. وقد دفع الجدل حول المحكمة الدولية عدّة مرات لبنان إلى شفير حرب أهلية أخرى كما أحدث شرخًا في البلاد وبين المواطنين إلى درجة استحال معها تشكيل حكومة تحظى بالإجماع لأنّ السياسيين كانوا لا يختلفون على مبرّرات تأليف المحكمة وما توصّلت إليه فحسب بل حتّى على تمويلها.

سرعان ما أصبحت المحكمة منصّة سياسية أكثر منها بعثة قانونية، وباتت تحرّكاتها منوطة بطموحات الدول الأجنبية بقدر ما كانت منوطة بالصراع الداخلي على السلطة. كانت مهمّة المحكمة تقضي بالتحقيق المحايد في عملية الاغتيال. ولكن، بعد مرور نصف عقد، اتهمت المحكمة سوريا بشكل خاطئ ثم اعتقلت الجنرالات الأربعة

عن غير وجه حق، لتعود وتطلق سراحهم بسبب النقص في الدلائل والبراهين. أمّا آخر الاتهامات التي أطلقتها المحكمة فطالت حزب الله، ودفعت باتجاه محاكمة غيابية. في النهاية، أدّت جميع تلك الاتهامات المختلفة إلى تقويض مصداقية المحكمة وجعلتها عرضة لتلاعب سياسي دولي خطير.

إلى يومنا هذا، لا وجود لأيّ دليل حسّي ملموس يشير على نحو قاطع إلى تورّط سوريا في عملية اغتيال الحريري، كذلك لا يزال الاتهام الموجّه إلى حزب الله غير واضح المعالم، وهو يتعارض تعارضًا مباشرًا مع علاقة الحريري الشخصية بالسيّد حسن نصر الله، الأمين العام لحزب الله. فمن المعروف أن العلاقة بينهما كانت مبنية على الاحترام المتبادل وتطوّرت لتصبح علاقة شخصية، إذ كانا يتبادلان الزيارات الدورية غير الرسمية.

كتب سيمور هيرش، في المقال المذكور سابقًا، شارحًا أنّه خلال عام 2006-2007، نقلت الولايات المتحدة ثقل استراتيجية الدفاع القومي الخاص بها من العراق باتجاه إيران، بعدما أدركت التهديد الذي يخلقه تعاظم النفوذ الإيراني في العراق الذي أصابه الضعف. وفي السياق نفسه، شعر السفير السعودي في واشنطن، الأمير بندر بن سلطان، الذي تربطه علاقات متينة بنائب الرئيس الأميركي ديك تشيني، بخطر تزايد النفوذ الإيراني والشيعة عمومًا في المنطقة. ولطالما خشي السعوديون من أن يميل ميزان القوى لمصلحة إيران، لا على مستوى المنطقة فحسب بل أيضًا داخل المملكة؛ فمن المعروف أن السعودية تضم أقلّية شيعية مهمّة في المنطقة الشرقية، وهي المنطقة التي تضمّ حقول النفط الرئيسية. ثم تفاقمت حدّة تلك الخشية لدى إطاحة صدّام حسين وإعدامه، لأنّ الجيش العراقي كان الوحيد القادر على احتواء إيران، قبل أن تحلّه الولايات المتحدة.

ويشرح هيرش كيف باشر السعوديون باستعمال نفوذهم المالي الهائل لدعم وتمويل الإخوان المسلمين والسلفيين، الذين يعتبرون الشيعة كفّارًا.

منذ عام 1979، تاريخ حصار مكّة الذي قام به متطرفون سعوديون، وهو حدث حرص السعوديون على محوه من كتب التاريخ، أصبحت العائلة المالكة السعودية راعيًا للسنّة المتطرفين الذين اعترضوا على الفساد والانحلال المتفشي في صفوف عدد لا يُحصى من الأمراء، وفي الوقت ذاته، مرمًى لها. لذلك، راهنت العائلة المالكة على استمرار دعم المدارس الدينية والجمعيات الخيرية المرتبطة بالمتطرفين لضمان عدم إطاحتها، وصدّرت معظم هذه الحركات الأصولية الى خارج المملكة كوسيلة لإعادة توجيه تعصّبهم نحو أهداف أخرى.

ويوضح هيرش أن القاعدة ظهرت لأول مرّة في ثمانينيات القرن الماضي ومطلع التسعينيات حين عرضت الحكومة السعودية أن تموّل وكالة الاستخبارات الأميركية في الحرب التي شنّتها، بالوكالة، ضدّ الاتحاد السوفياتي في أفغانستان. هكذا، أُرسل مئات من الشباب السعوديين إلى المناطق الحدودية لباكستان حيث أنشأوا مدارس دينية وقواعد للتدريب. من ضمن هؤلاء الناشطين أسامة بن لادن ورفاقه الذين أسّسوا تنظيم القاعدة عام 1988.

وبتأثير من الأمير بندر، نجح السعوديون في إقناع إدارة بوش بأن التهديد الأكبر هو إيران، وأن المتطرفين السنّة هم في الواقع عدو أقلّ شأنًا. بدأ تشيني بالعمل مباشرة مع الدول السنّية للتصدي لتنامي النفوذ الشيعي في المنطقة. تمّ الاتفاق على أن تقوم الحكومة السعودية، بمباركة واشنطن، بتأمين التمويل والمساعدة اللوجستية لإضعاف حكومة الرئيس السوري بشّار الأسد الذي يُعتبر حامي حزب الله والقناة الرئيسية لأسلحته.

وُزّعت المساعدات المالية السعودية في لبنان من خلال حكومة فؤاد السنيورة لدعم قدرة السنّة على التصدي للنفوذ الشيعي. وتحوّلت بعض هذه الأموال إلى مجموعات متطرفة ناشئة تربطها صلات عقائدية بتنظيم القاعدة، ومن بين هذه المجموعات «فتح الإسلام» التي تمركزت في مخيم نهر البارد للاجئين الفلسطينيين، شمال لبنان.

وأفاد هيرش بوضوح أنّه «في العام 2005، وفقًا لتقرير صادر عن «مجموعة الأزمات الدولية»، التي تتخذ من الولايات المتحدة مقرًّا لها، دفع سعد الحريري، رئيس الغالبية السنّية في البرلمان اللبناني ونجل المغدور رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري، والذي ورث أكثر من أربعة مليارات دولار بعد اغتيال والده، دفع 48 ألف دولار كفالة للإفراج عن أربعة أعضاء في مجموعة إسلامية متشدّدة من الضنّية، كانوا قد اعتُقلوا سابقًا بسبب محاولة إقامة دويلة إسلامية شمال لبنان. وأشارت «مجموعة الأزمات» إلى أن العديد من أعضاء هذه المجموعة تلقوا تدريبات عسكرية في مخيمات القاعدة في أفغانستان».

في أعقاب اغتيال رفيق الحريري، تعاون نجله سعد كلّيًّا في مجال تطبيق جدول أعمال بندر وتشيني، وحمى مصالح الحركات السلفية في لبنان للتصدي لصعود حزب الله.

علمًا بأنه خلال فترة اغتيال الرئيس رفيق الحريري لم يكن جدول الأعمال السياسي الأميركي السعودي قد وُضع بعد حيز التنفيذ. كان الرئيس رفيق الحريري مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالعائلة المالكة السعودية وإدارة بوش، وكان يُعتبر من القادة الذين يدعمونهم بالكامل. وبالنتيجة، من الممكن أن تكون بعض الحركات الأصولية، ومن ضمنها القاعدة، اعتبرت أن الرئيس الحريري دمية أميركية وأداة إسرائيلية في الشرق الأوسط.

تولّى أحد المحقّقين البارزين الذين تعاونوا مع المحكمة دراسة وفحص وغربلة مئات الساعات من أشرطة الفيديو المأخوذة من كاميرات المراقبة التابعة لمصرف «إتش أس بي سي» والمثبّتة في مبنى المصرف المحاذي لموقع الجريمة. وقد نجح في تحديد الشاحنة التي استُعملت في الانفجار ونقل صورتها وهي تسير باتجاه الموقع قبل حدوث الانفجار بوقت قليل. هذا الدليل بحد ذاته يشير إلى أن العملية كانت مهمّة انتحارية، وليست عملية اغتيال عن بعد بحسب ما تقدّمت به لجنة التحقيق الدولية قائلة إن المتفجرات زُرعت في الشارع أثناء البناء، وهي فرضية تورّط الحكومة اللبنانية في عملية الاغتيال، وبُنيَ عليها توقيف الضباط الأربعة الأبرياء. فالشاحنة الانتحارية تغيّر المعادلة جذريًّا.

بعد اغتيال الرئيس الحريري، سألتُ اللواء جميل السيّد، أحد الجنرالات الأربعة الذين اعتُقلوا على نحو باطل لمدة أربع سنوات، في إطار التحقيقات حول عملية الاغتيال، سألته عن رأيه في من قتل الرئيس رفيق الحريري، وقال لي بكلام جازم إنه يعتقد أنّها القاعدة.

اليوم، بالنظر إلى تقدّم سير المحاكمة لناحية الافتقار إلى الأدلة الملموسة ضدّ أيّ طرف من الأطراف الذين أشارت إليهم كمرتكبين لهذه الجريمة، فضلًا عن التوقيت السياسي لهذه الاتهامات والصعود الثابت للسلفية الجهادية في المنطقة كلها، من الإنصاف التشكيك في المسألة برمّتها. ومصادرة الإخوان المسلمين للربيع العربي في البلدان التي طالها، خير دليل على ذلك. فتلك الحركة، رغم أنّها كانت بمثابة خلايا نائمة، كانت تتغذى منذ عقود بالمال السعودي، وكأنها كانت تُحضَّر لتسلّم الدفّة سياسيًّا ما إن تسنح الفرصة.

في لبنان، فور مقتل الحريري ولفترة وجيزة، توحّدت الأمّة كما هي الحال دائمًا في أوقات الحزن، وانطلقت ثورة الأرز. يوم 14 آذار، تجمّع

مئات الآلاف من المواطنين في ساحة الشهداء في وسط بيروت مطالبين بانسحاب القوات السورية. أوحت التظاهرة ببروز جيل جديد من اللبنانيين الشباب الذين تخطّوا الحدود الإقطاعية للقيادات التقليدية. كان تجمّع عفوي وسلمي لآلاف من المواطنين من جميع الطوائف والطبقات الاجتماعية يردّدون هتافات تدعو إلى خروج السوريين من لبنان.

الشرارة التي انطلقت من حركة شبابية نصبت خيمًا في ساحة «الشهداء» (حيث يقع مدفن الحريري)، رافعة شعار الانتفاضة الموحدّة والسلمية التي تتجاوز الانقسامات المذهبية، ومعبّرة عن فيضٍ شعبيٍ من المشاعر المناهضة للسوريين، شكّلت ضغطًا هائلًا دفعهم إلى الانسحاب. وحين تحقّق هذا المطلب، بسبب التأييد الأميركي والفرنسي والسعودي، شهد لبنان لحظة تاريخية فريدة من الحسّ الوطني المتجدّد. جرى تحوّل فوري في السلطة لمصلحة الزعامة السنّية، ووجد حزب الله نفسه في موقف دفاعي وهو يرى حليفه السوري القوي مُجبرًا على التراجع.

لم تدم نشوة الانسحاب السوري طويلًا؛ فقد شهدت الفترة التي أعقبت خروج السوريين من لبنان عددًا كبيرًا من الاغتيالات بالسيارات المفخّخة التي استهدفت أفرادًا من النخبة السياسية في البلاد.

شهدت الحقبة الممتدة بين عامي 2005 و2006 ثمانية اغتيالات. مجدّدًا اجتاحت البلاد موجة من الجرائم المرعبة التي كنت أتابعها من الخارج والتي أزهقت أرواحًا كثيرة من ضمنها روح جبران التويني، رئيس تحرير صحيفة «النهار» الشاب الذي نجا في العام 1990 من الاغتيال مع والدي. كذلك قضى بيار، نجل رئيس الجمهورية السابق أمين الجميّل، في جريمة مروّعة عندما نصب له مسلحون يحملون بنادق أوتوماتيكية كمينًا وهو يستقلّ سيارته.

نشأت حركة 14 آذار بهدف التصدي لحركة 8 آذار التي انبثقت عن تظاهرة نظّمها حزب الله في وسط بيروت التجاري لعرض عضلاته والتعبير عن شكره للوجود السوري في لبنان قبل الانسحاب. اليوم، باتت الحركتان السياسيتان تقسمان البلاد جذريًّا على طول محـور شيعي/سنّي يفصل بين من هم مع النظام السوري ومن هم ضدّه.

وعلى الرغم من الوعود الأولية التي حملتها موجة الحرية والاستقلال للأمّة، سرعان ما خطف الزعماء التقليديون حركة 14 آذار التي تحوّلت إلى مجرد منظمة سياسية أخرى ترتبط باسم الحريري ويترأسها نجله سعد الذي يحمل جدول أعماله الخاص في معمعة السياسة اللبنانية، بينما يسيطر عليها تيار المستقبل وتموّلها مجموعة من الزعماء التقليديين، ومن ضمنهم عمّي دوري شمعون وغيره.

بعد وقت قصير من انسحاب القوات السورية، عاد الجنرال ميشال عـون من منفاه الاختياري في فرنسا حيث كان يعيش منذ سنوات عديدة. فجأة، برز زعيم يتمتّع بجاذبية وتأثير كبيرين للغاية في بلد عانى الى حينه من فراغ في الزعامة المسيحية. وتزامن الزخم الشعبي لعودة الجنرال عون إلى لبنان مع اقتراب موعد الانتخابات البرلمانية المُزمَع إجراؤها بعد أقلّ من شهر. بالتالي، شكّل وجوده تهديدًا لقيادة حركة 14 آذار/مارس. رفض الحريري وجنبلاط تعديل القانون الانتخابي الذي كان معتمدًا خلال حقبة الاحتلال السوري والذي صُمّم بهدف تهميش الناخبين المسيحيين عن طريق دمج معظمهم في مناطق ذات غالبية مسلمة. فبهذه الطريقة، يتم التحكم بكتل كبيرة من التمثيل المسيحي الذي سيكون مدينًا لهم لوصوله إلى الندوة النيابية. رأى عون التهديد الذي يتعرّض له المجتمع المسيحي، خصوصًا في ظلّ «التحالف الرباعي»، ذلك الميثاق الانتخابي الـذي عقده الحريري

وجنبلاط مع حزب الله وحركة أمل التي يرأسها رئيس مجلس النواب نبيه بري، والذي سمح لمحور الحريري/جنبلاط بالفوز بمعظم مقاعد المجلس النيابي البالغ عددها 128 مقعدًا، على الرغم من استحواذ كتلة الإصلاح والتغيير التي يرأسها الجنرال عون على ثلثي الأصوات المسيحية.

ولكن، تبيّن أن التحالف الرباعي لم يتواءم مع المطالب المفروضة من جانب تحالف واشنطن وباريس والرياض؛ فالأميركيون والفرنسيون والسعوديون كانوا مهتمين فقط بدفع الحكومة، التي كان يرأسها آنذاك رئيس الوزراء فؤاد السنيورة، إلى انتزاع تنازلات من الرئيس السوري بشار الأسد تتعلق بحزب الله.

أمام عجزه عن احتواء صعود الجنرال عون ونهضة المجتمع المسيحي، رأى سعد الحريري وحلفاؤه أن الحلّ الوحيد لهذه المعضلة هو شق المجتمع المسيحي، ولذا، كان أوّل قانون أصدره الحريري والمجلس النيابي المُنتخب حديثًا في العام 2006 هو إطلاق سراح سمير جعجع بعد 12 سنة من الاعتقال، في إطار حكمٍ بالسجن المؤبّد. كنت في الولايات المتحدة حين بلغني الخبر.

جرى التفاوض حول الصفقة في باريس بين زوجة جعجع وسعد الحريري والسعوديين. تزامنًا مع إطلاق جعجع، منح سعد الحريري العفو لحوالى 21 متطرفًا من القاعدة من أولئك الذين اعتُقلوا بعد قيامهم بهجمات إرهابية على الجيش اللبناني ومدنيين في العام 2005، ومن ضمنهم سبعة ناشطين يُشتبه في أنهم تآمروا لتفجير سفارتي إيطاليا وأوكرانيا في بيروت. كان ذلك بندًا أساسيًّا من صفقة العفو عن جعجع في القانون الخاص الذي أقرّه مجلس النواب اللبناني في 18 تموز/يوليو 2005.

في الواقع، مهّد إطلاق سراح جعجع الطريق لشق صفوف المسيحيين مجدّدًا. وحتى يومنا هذا، لا يزال جعجع مصطفًا إلى جانب الحريري بصفته الصوت المسيحي في حركة 14 آذار، الداعمة للمتطرفين السلفيين في لبنان، وتحديدًا لشخص أحمد الأسير، والتي تراهن اليوم على انهيار النظام السوري وصعود القوى السنّية في سوريا وفقًا للخطط السعودية والقطرية.

على المستوى الشخصي، لم يبدُ لي إطلاق سراح جعجع، منطقيًّا أبدًا. ثم إنّ أحدًا لم يستشرني، لا أنا ولا أختي، قبل أن تصدر الدولة اللبنانية قرار العفو عنه. وما زاد من عبثية الموقف هو أن والد سعد، أي رفيق الحريري، هو الذي سعى في البدء إلى محاكمة جعجع وإدانته وسجنه، ولكنّ الطموحات الإقليمية كانت مختلفة في تلك الأيام ولم يكن النموذج الجهادي قد انتشر بعد.

من وجهة النظر الدولية الغربية، كانت الموافقة على إطلاق سراح جعجع مجرد خطوة أخرى في لعبة الشطرنج السياسية المحلية. كان زعيمًا مسيحيًّا متطرفًا من الممكن أن يقف بمواجهة حزب الله. وجاء توقيت إطلاق سراحه في 18 تموز/يوليو 2005، قبل سنة واحدة من العدوان الإسرائيلي على لبنان الذي كان قد خُطط له منذ وقت طويل والذي انطلق في 12 تموز/يوليو 2006.

في أعقاب الحملة العسكرية الإسرائيلية على لبنان والقرار الأحادي الجانب الآخر القاضي بتبنّي المحكمة الدولية، سحب الأمين العام لحزب الله السيّد حسن نصر الله، الوزراء الشيعة من الحكومة، وانضمّ إلى عون ضمن جبهة معارضة موحّدة.

بدا التحالف بمثابة تقاطع طبيعي للمصالح بين المسيحيين والشيعة في لبنان، فالطائفتان عانتا من الاختلاسات المنتظمة التي

أنهكت خزينة الدولة في ظل حكومات الحريري، كذلك تساور الطرفين مخاوف قديمة من جنوح العالم العربي السنّي نحو التطرّف، كما يتشاركان في الخوف من عواقب توطين حوالى 300 أو 400 ألف لاجئ فلسطيني، معظمهم من المسلمين السنّة، يعيشون في لبنان. فضلًا عن التهديد الذي يشكّله عليهما معًا صعود المجموعات الجهادية السلفية السنّية في لبنان. أمّا على المستوى العقائدي، فقد كانا على الموجة نفسها لأنّ حزب الله والتيار الوطني الحر تبنّيا برامج سياسية علمانية حول قضايا تتعلق بفساد الدولة والمحسوبيات الطائفية.

ومع ذلك، جاء تحالف عون وحزب الله بمثابة مفاجأة بالنسبة لدائرته الانتخابية التي وقفت إلى جانبه سنوات طويلة في رفض سوريا. وفي أفضل الأحوال، كان من الصعب أن يفهم المرء كيف يمكن لتلك الشراكة أن تُعقَد. على الرغم من ذلك، اصطفّ نصف المجتمع المسيحي معه ومع حزب الله.

أمّا نجاح ميشال عون في إقناع دائرته الانتخابية بدعمه في خطته فكان مراهنة ضخمة، ومأثرة تدلّ على توطّد زعامته، شاء المرء أو أبى. في ما يبدو، وجد عزمه على تحرير شريحة من المجتمع المسيحي من أوليغارشية الحريري، صداه لدى من اصطف إلى جانبه من المسيحيين.

منح التحالف الجديد بين عون والشيعة المسيحيين صوتًا مختلفًا ومستقلًا، وأمّن في نهاية المطاف ضمانة لمسيحيي لبنان وسط التحوّل الديمغرافي في البلاد واتساع الفجوة بين السنّة والشيعة، ذلك الاتساع الذي بات يهدّد بإشعال حرب جديدة في المنطقة. في الواقع، كانت التباينات السياسية المحلية قد ذابت في خضم الخطوط العريضة التي رسمتها الإملاءات الدولية وفي ظل التهديد الإيراني القائم لإسرائيل.

وكان الانقسام الكبير بين المعسكرين، الموالي لسوريا المتمثّل بحركة 8 آذار، والمعادي لها الـذي يتمثّل بحركة 14 آذار، قد أدّى ظاهريًّا الى بروز تحالفات غريبة بين المسيحيين المتطرّفين وما يسمّى المحافظين السنّة من جهة، وبين المسيحيين المحافظين وما يُسمّى المسلمين المتطرفين من جهة أخرى.

خلال الانتخابات النيابية التي جرت عام 2009، موّلت السعودية الحملات الانتخابية التي قادها مرشّحو حركة 14 آذار ويُقال إن إيران أمّنت تمويلًا لفريق 8 آذار وإن بنسبة أقلّ. وعدا عن تعزيز ظاهرة شراء الأصوات المتفشية، ساعد التمويل السعودي التحالف على نقل آلاف اللبنانيين المناصرين والمقيمين في الخارج وتأمين مجيئهم مجانًا للتصويت يوم الانتخابات، ما رجّح كفة الميزان بشكل ملحوظ لمصلحته.

مجدّدًا، وقفتُ أتفرّج على الأمّة الممزَّقة بفعل خوضها لحروب الآخرين. ومجددًا كنت أقع ضحية الوصايات الخارجية. الإفراج عن جعجع كان خير دليل على ذلك، حيث تمّ تقويض العدالة في سبيل المكاسب السياسية.

على المستوى الشخصي، لم تساورني الأوهام قط، لطالما عرفت أن الإفراج عن جعجع هو احتمال وارد في أي وقت بسبب الطبيعة المتقلّبة للسياسة اللبنانية، إلّا أنّه شكّل منعطفًا بالنسبة لي، وليس مجرّد ضرب آخر من ضروب الخيانة. فقد منحني إدراكًا نهائيًّا ومحرِّرًا لطبيعة السياسة غير المسؤولة وغير الأخلاقية والانتهازية في هذا البلد. مجدّدًا، وقفت أتأمّل مؤشّر النفعية وهو يتأرجح بحسب ما يفرضه المناخ السياسي، ذلك المناخ الذي يرعى اليوم إطلاق سراحه، بالضبط كما سبق له أن رعى محاسبته وسجنه. أمّا العذاب الكبير الذي تسبّب به جعجع طوال سنوات، فلم يكن له أيّ دور في قرار الإفراج عنه.

مرة أخرى، تفوّقت نزويّة السياسة ولم يكن بوسعي سوى أن أستسلم لعبثية تقلّبات الحياة، وأن أتأمّل بذهول انحراف مفاهيم العدالة والظلم في لبنان وتحوّلها الى معايير نسبية.

على المستوى العائلي، استمر عمّي في تجاهلي خلال تلك الفترة، حتّى إنه لم يتصّل بي لدى الإفراج عن جعجع، لا بل إنه ظهر في إحدى المقابلات مع الصحافة للدفاع عن جعجع والإصرار على براءته من تهمة اغتيال والدي. مجدّدًا، ألقى باللائمة على السوريين، ولكنّ تصريحاته لم يكن لها أيّ سندٍ في الأدلة التي كانت قد جُمعت ونُشرت خلال المحاكمة الجنائية التي أُجريت على امتداد سنة كاملة والتي أدارها أشخاص يتمتعون بالذكاء والموضوعية اللازمين. فهي لم تكن مبنية على أي وقائع واضحة أو غير قابلة للدحض.

ولكن، برغم ذلك، أضرّ ذلك التصريح بحدّ ذاته بذكرى والدي وتضحيته بحياته لأنّ القوات اللبنانية استثمرته على أكمل وجه حين استخدمته عشوائيًّا لتسويق براءة جعجع، قبل أن تستغلّ تلك العلاقة الجديدة مع دوري لمصلحتها في المجتمع المسيحي.

كان ذلك من أصعب المواقف التي كان على أنصار عائلتي المخلصين تحمّلها، فقد أثار تصرف دوري غضبهم وكانوا يتصلون بي باستمرار للتعبير عن ذلك. كان دوري يتباهى بتحالفه مع جعجع خلال المسيرات المشتركة التي كانت تُقام بمناسبة ذكرى شهداء الحرب الأهلية في لبنان، وكان عناصر القوات اللبنانية يرفعون صورة والدي الراحل الذي قتله زعيمهم، حتّى إن زوجة جعجع كانت تحضر قدّاس ذكرى وفاته!

في العام 2008، اتصلت بابن عمّي كميل لأبلغه بأنني أودّ حضور قدّاس تلك السنة فأجابني أنّه سيستشير والده بهذا الخصوص... اتصل بي بعدها ليقول لي إن والده لا يمانع حضوري شرط أن «أجيد التصرّف»

كما قال، أي بعبارة أخرى، ما دمت لن أثير أيّ بلبلة، حتّى لا أحرجه أمام حلفائه من القوات اللبنانية الذين سيحضرون المناسبة.

صُدمت من ردّة فعله القاسية وقررت عدم حضور القدّاس. عوضًا عن ذلك، نشرت بيانًا صحافيًّا أُندّد فيه بالقضية برمّتها ومن ضمنها تحالف عمّي مع قاتل أخيه. وكانت تلك هي الخطوة التي قطعت آخر صلة تربطني به والقشة التي قصمت ظهر البعير في علاقتنا.

وقد أثار البيان الصحافي ضجّة عارمة، وورد فيه:

«بيان بمناسبة ذكرى اغتيال داني شمعون - 21 تشرين الأول 1990

بقلم ترايسي شمعون – تشرين الأول 2008

«يؤلمني أن أكتب بهذه المناسبة المُحزنة ولكنني أشعر بأن عليّ أن أعتذر نوعًا ما عن التشويه الذي لحق بذكرى مقتل والدي داني شمعون من قبل أولئك الذين لا يدركون مدى خطورة أعمالهم. كما أود أن أنقل تحياتي إلى أصدقائي الأعزاء، من أبناء عائلة كرامي وعائلة فرنجية الذين عانوا بسبب خسارات شخصية في ظروف مماثلة.

مضى 18 عامًا على الاغتيال الوحشي الذي أودى بحياة داني في إطار هجوم منظّم لم يطله هو فحسب، بل أودى أيضًا بحياة زوجته إنغريد وولديه البريئين طارق وجوليان. وكأنّ ذلك حدث البارحة. طوال تلك السنوات، لم تتبدّل الأمور نحو الأفضل للأسف.

أمضيت سنتين من حياتي وأنا أشارك في فعاليات محاكمة اغتيال عائلتي حيث أُدين سمير جعجع بمقتل داني. سنتان قاسيتان تخلّلتهما تعقيدات على جميع المستويات، ومن ضمنها للأسف، المستوى العائلي. دوري، شقيق داني، لم يحضر جلسات المحاكمة. ربما كانت لديه مصلحة سياسية في عدم تنفير جزء معيّن من المجتمع المسيحي. خلال تلك العملية القضائية المطوّلة، خصّصت وقتًا من حياتي تفرّغت

خلاله لاستكشاف جميع الزوايا ومناقشة المسألة مع جميع المعنيين بهدف الوقوف على الحقيقة المحيطة باغتيال عائلتي. ومن بين المجموعة التي استشرتها رئيس الوزراء الراحل رفيق الحريري. كان من أشدّ المدافعين عن فكرة محاكمة سمير جعجع وإدانته ودعم الحكم دعمًا كاملًا. من دون أدنى شكّ، إنّ ذلك الرجل كان يدرك تمامًا ما يقوم به، لذلك أجدني مذهولة اليوم أمام التحالفات الأخيرة التي تسود البلاد.

اليوم، يتمّ تجاهل الحقيقة التي أفضت إليها تلك المحاكمة بشكل فاضح، ما يدفعني الى الكلام علنًا وإدانة أولئك الذين يصرون على تبرئة سمير جعجع الذي سبق أن أُدين بالإجماع بكافة التُهم التي وُجّهَت إليه في إطار محاكمة قادها أعلى مرجع قضائي في البلاد يضمّ قضاة يُشهَد لهم بالمناقبية والأخلاق ويمثّل كلٌ منهم طائفته بشرف ونزاهة.

يُعتبر الخرق الفاضح لهذا الحكم بمثابة إهانة لجميع من سعوا جاهدين لتقديم المجرمين الى العدالة ولكلّ من أحبّوا داني، وهو بمثابة خيانة لجوهر حياته التي اتسمت بالسلوك السياسي الرفيع والضمير الحيّ. فواقع الإفراج الاعتباطي عن سمير جعجع لا يعفيه من الجرائم التي ثبَتَ أنّه مذنب باقترافها.

منذ حوالى خمسة أعوام، طلبت مني مجموعة من أعضاء حزب الوطنيين الأحرار البارزين أن أعود الى لبنان. أمضيت أشهرًا عديدة وأنا أتشاور معهم محاولةً استيعاب من شعروا بأنّ القيادة التي تولاها دوري، شقيق داني قد أبعدتهم. منذئذٍ، نظّم هؤلاء أنفسهم في ما يُسمّى «النمور» و«أصدقاء داني شمعون»، وتعرّضوا ظلمًا وطغيانًا للاضطهاد واتُّهموا بخيانة الحزب فيما هم، في الواقع، كانوا فقط أوفياء لذكرى والدي وإرثه، وهو ما عرّضهم للتهديد والنبذ.

على المستوى الشخصي، منذ خمس سنوات، وُضِعتُ أمام خيارٍ صعب: أن أقف بمواجهة عمّي دوري دفاعًا عن والدي وعن نضال حياته، أو أن أقف على الحياد. ومن أجل عائلتي واحترامًا لذكرى جدّي كميل وجدتي زلفا، قرّرت التراجع والانسحاب مما كان يمكن أن يسبّب صراعًا عائليًّا مؤلمًا. لم أشأ أن أعيد إنتاج نمطٍ من النزاع العائلي التقليدي في بلدنا البائس والمتوارث على مدى عقود. أمام حزن الأصدقاء الأوفياء في لبنان، التزمت المنفى الطوعي مفسحة المجال أمام دوري ليستمر. شعرت بأن ذلك هو ما يجب أن أقوم به، احترامًا لكونه النجل الأكبر للرئيس كميل شمعون.

ومع ذلك، لم يخدم غيابي أيّ غرض سوى تسويق أكاذيب التاريخ الرجعية من دون أي رادع. إلّا أن ضراوة السلوك والهجمات الكلامية التي أطلقها دوري ضدّ ميشال عون، الحليف المقرّب من العائلة، ودفاعه العلني غير المبرّر عن سمير جعجع وتحالفه معه، كلها أمور تدفعني اليوم الى التنديد علنًا بهذه الأعمال.

هل فقد بلدنا ذاكرته الجماعية؟ من غير المقبول أن يتاجر سمير جعجع بدماء الشهداء لتعزيز مسيرته السياسية، وأن يستخف بصورة داني وإرثه أثناء هذه العملية من خلال عرض المراجع والصور الخاصة بداني في مؤتمراته السياسية الأخيرة. يحزنني أن أرى بلدي ينزلق مجدّدًا ليقع فريسة الصراع العبثي على السلطة الذي يمزّق حياة جميع المواطنين الأبرياء. يبدو لي من التحريض الذي يمارسه السياسيون بعضهم ضدّ بعض أن أخطاء الماضي لا تزال ترسم معالم الحاضر.

في تشرين الأول، من المقرّر أن يقيم دوري وحلفاؤه غير المرغوب فيهم قدّاسًا، لا على نيّة روح داني فحسب بل على نيّة جميع الشهداء، ليستغلّوا مجدّدًا حزن الآخرين في تحقيق مكاسب سياسية.

إنّ قلبي ينزف من أجل عائلات أولئك الذين قتلوا خلال سنوات القتال الرهيبة، وأنا طبعًا أقف الى جانبهم ولكنّ قلبي ينزف أكثر من أجل الحقيقة الكامنة خلف تضحياتهم والتي تتعرض للانتهاك والتدنيس من خلال الأكاذيب.

لذلك، واحترامًا لذكرى داني وإنغريد وأخويَّ، أطلب من أولئك الذين يحبّون داني فعليًّا والذين لا يزالون أوفياء لرسالة النزاهة والشجاعة التي حملها في مواجهة الظلم، أطلب منهم أن يظهروا محبّتهم من خلال عدم المشاركة في هذا القدّاس. حضور القدّاس سيكون أشبه بالمشاركة في النفاق وبدعم من يستمر بتشويه الحقيقة.

إنني أعرف ما طمح إليه والدي الراحل وما كافح من أجله بشجاعة ولماذا قُتل. أعرف أنّه أحب لبنان وصادق جميع سكانه، مسلمين ومسيحيين ودروزًا. بنظره، وبنظري أيضًا، جميعنا متساوون، إخوة وأخوات، في كنف أمّة واحدة. يشرّفني أن أكون ابنته وأن أذكره في ذلك اليوم. لترقد روحه بسلام. صلاتي الحارّة تتعلّق اليوم بعدم تعرّض موته وموت جميع الشهداء لأيّ تشويه بسبب الأعمال الطائشة التي يقوم بها البعض.

ترايسي شمعون

15 تشرين الأول 2008 »

فكّرت مليًّا بعواقب كلماتي قبل أن أرسل البيان الصحافي. ولكن، في النهاية، كل ما كنت أخاطر بخسارته هو عائلتي، التي كنت خسرتها أصلًا. فلا أحد منهم كان إلى جانبي، لا بعد اغتيال والدي ولا خلال المحاكمة ولا في أيّ وقت من الأوقات.

في كلتا الحالتين، كان الثمن باهظًا: إمّا السكوت عن الهوان أو الكلام علنًا وتحمّل غضب المعنيين. وبالفعل، ثار غضب عمّي وعدد من أفراد عائلتي. لكنّهم لم يكونوا قد تركوا لي الخيار. حبي لوالدي هو ما حثّني للدفاع عنه في حياته وفي موته.

مضت سنوات عديدة قبل أن يغفر لي أبناء عمّي، لكن ردّة فعلي لم تكن يومًا موجّهة ضدّهم بل كانت تستهدف عمّي الذي لم يُدرك مدى الضرر الذي ألحقته تصرّفاته بمن حوله وبالمقربين منه.

هكذا، وجدتُني بعد مرور سنوات على اغتيال والـدي، لا أزال أخوض حروبه.

عند تلك المرحلة، كنت منعزلة تمامًا. في العام 2009 الذي لم أزر خلاله لبنان، كان عدد الأشخاص الذين يهتمون لأمري محدودًا جدًّا. كانت الحصيلة قاسية للغاية، أن أجد نفسي منبوذة مرة أخرى في بلدي، ولكنني فضّلت تلك الحالة على السكوت عن الأكاذيب والخداع. كنت أعرف أنّه الثمن الذي يتعيّن عليّ دفعه لأنّي أأبى أن أكون إلّا صادقة مع نفسي.

لم يكن خيار العودة إلى لبنان سهلًا لأنّني لم أكن أعرف ما ينتظرني. دام غيابي خمس سنوات قُتل خلالها الحريري وانسحبت القوات السورية من لبنان وغزا الإسرائيليون لبنان وانسحبوا بعد أن تسبّبوا بأضرار فادحة في الأرواح والبنى التحتية مرة أخرى. أمّا سمير جعجع، الذي أمضى سنتين وهو يحدّق بالأرض خلال محاكمته بتهمة القتل، فبات يجول متباهيًا كقائد مبجّل متناسيًا ماضيه الدموي. بالنسبة لي، كان لبنان لا يزال مسرحًا للغدر.

ولأسباب أمنية، رأى أحد أصدقائي الأعزاء أنّه لا ينبغي أن أبقى في شقتي حيث أفتقر للحماية. فبعد صدور البيان الصحافي، كان عدد من

أنصار عمّي قد اقتحموا عنوة منزل الحارس الشخصي الذي كان يرافقني وأجبروه على فتح الرسائل التي كان يرسلها لي من خلال الفايسبوك ثم ضربوه وسرقوا جهاز الكمبيوتر الخاص به وهدّدوا زوجته وابنه بسبب ولائه لي.

لذا، وخلافًا لزياراتي السابقة، كان من المقرّر أن أكون متوارية عن الأنظار قدر ما أستطيع خلال تلك الزيارة. كان من الغريب بالنسبة لي أن أعود في ظل هذه الظروف. كنت من دون عائلة ومن دون منزل ولم يكن بوسعي حتّى أن أبلّغ أصدقائي بوجودي في البلد.

يقع الفندق الذي نزلت فيه في «غراوند زيرو»، أي حيث قُتل الحريري. من نافذة غرفتي، كنت أرى الدمار الذي أحدثه الانفجار في واجهة المبنى المجاور، ما جعلني أستحضر ذكرياتي الأليمة المتعلقة بالتاريخ الدموي الخاص بي في هذا البلد. فالفندق يقع في المنطقة «الغربية» حيث دارت أشد المعارك ضراوة وحسمًا. لم أكن قد زرت تلك المنطقة منذ طفولتي المبكرة قبل الحرب. بدا لي الوضع محزنًا ويدعو إلى السخرية، لأنّ من غير الطبيعي أن أشعر بأنّ المكان أكثر أمانًا بالنسبة إليّ من الجهة الأخرى. كذلك، أربكتني فكرة الإقامة في الفندق بحد ذاتها، شعرت بأنّ من غير المعقول ألا أتمكن من الإقامة في منزلي. مجدّدًا، رأيتني مدفوعة دفعًا خارج حدود ما هو طبيعي... خلال الليلة الأولى، وقفت وحيدة في غرفة الفندق بمواجهة شعورٍ غريبٍ بالظلم. والدي، البطل النبيل، فارقته الحياة، بينما يجول قتلته أحرارًا على هواهم.

وبدل الاستسلام لهذا الحزن الشديد، تمالكت نفسي وقررت الخروج لشراء بعض الفاكهة والماء. دخلت الى متجر كبير حيث كنت الشقراء الوحيدة ومن القلائل اللواتي لا يضعن غطاءً على رؤوسهن.

اكتشفت الشعور بأن يكون شكل المرء أميركيًا. وفيما كنت أبتسم لهؤلاء النساء كنت أتساءل عمّا يجول في خاطرهن فعليًا إزاء الأميركيين. كنت في منطقة ذات أغلبية مسلمة، ولم أكن أتمنى سوى السلام. تمنيت لو أن بإمكان القادة الغاضبين من كافة أنحاء الشرق الأوسط الذين زرعوا هذا الكم من الشقاق، أن يدركوا أن الناس يريدون أن يعيشوا حياة عادية حيث يمكنهم شراء طعامهم وتربية عائلاتهم والاستمتاع بعملهم ورعاية أحبائهم.

عدت الى الفندق. ولأول مرة، استمتعت فعلًا بوجودي في ما بدا لي أنّه لبنان القديم. على اعتبار أنني كنت أتتبّع خطوات شبابي في جميع الأحياء التي لم تكن قد وطئتها قدماي منذ سنوات، ومن ضمنها شارع محاذٍ للحمراء حيث كنت أرتاد المطاعم وصالات السينما، وشارع فردان حيث دخلت إلى المدرسة لأول مرة، المدرسة الإنجيلية للشابات، ونادي السان جورج لليخوت حيث تعلمت التزلج على الماء، وفندق فينيسيا حيث كانت والدتي تقيم للسيدات عروض أزياء في إطار مآدب غداء في الطابق العلوي. جميع هذه الأماكن شكّلت بانوراما لأيام شبابي التي عرفت خلالها طعم الفرح والبراءة.

لدى عودتي إلى الفندق، خرجت الى الشرفة وجلت بنظري في البحر الأبيض المتوسط. وقفت محدّقة بالغسق، وكانت الشمس قد ذابت في البحر الزهري اللون، بينما يخيّم نسيمٌ صامت على الناس وهم يتنزهون على طول الكورنيش، وتنبعث من المقاهي الصغيرة على الشاطئ رائحة السمك المقليّ. كانت أشجار النخيل تتمايل بكسل موحيةً بسرابٍ صحراوي غامض. شعرت بإيقاع الأصوات في الشارع: باعة ينادون على بضائعهم، وأبواق سيارات فقد سائقوها الصبر، تمتزج جميعها لتؤلف جوقة من الموسيقى المدينية. نقلتني تلك المشاهد إلى

ماضٍ زاخر باللقاءات والأحاديث التي تكاد تنتمي للخيال. انتشلتني من سبات حياتي التي عصفت بها رياح سوء الحظ.

وسط كلّ تلك المشاعر المتضاربة التي انتابتني، والمشوبة بالحزن والاغتراب، أدركت مدى جمال بلدي، لبنان. أدركت أنني، بطريقة ما، عدت إلى ماضيَّ السحري، وغمرني السرور وكأنّي بُعِثتُ من جديد، لا كضحيةٍ لبيروت بل كطفلة لها، وأنا أراها للمرة الأولى من دون عبء إرثي المظلم.

هناك دومًا شعورٌ ما
يثير جلبة ما
في الداخل
يدفعنا للوم الآخَرين على أيّ شيء
رغم مشاعرنا الدفينة الطيبة
يسلخنا عن الحبّ
ويلقينا في الفراق
بينما نكون نبحث عن تبرير أنفسنا
حين أُسكتُ ذلك الهذر النفسي
أحفظ منه فقط ما أصطفي
أفصل الذات المزيّفة الوضيعة
عن الكنز الألوهي الفطري
لطبيعة شاسعة لا حدود لها
لا يمكن للصغائر أن تشوبها
عندها أتذكّر أنّه منذ البدء
نسيت أن أبحث داخل قلبي
حيث تمّحي المسافة بيني وبيني
وينتهي صراعي

الباقي ليس سوى خيالاتي
تشوّه تشكيل معنوياتي
تنسيني أنّه كي أسلّمَ للحياة نفسي
عليّ أولًا أن أهزم نفسي
وأن أصبحَ إنسانًا
لا مكان لديه للأحكام

مقطع من «الأحكام».

10

مع مرور الوقت، بدأتُ أشعر بأنني أقرب إلى حلم والدي عن لبنان، وبدأت أفكّر بالعودة والاستعداد لخوض الانتخابات النيابية لعام 2013. نداء من الصميم عجزت عن وصفه أو تبريره. كان قرارًا لم يعد بمقدوري تأجيله وقد لقي تشجيعًا حارًا من الناس الذين ازداد إلحاحهم عليّ ودعوتهم لي لأن أعود إلى لبنان وأتسلّم ما اضطُرّ والدي إلى التخلي عنه.

في بعض الأحيان، كان التناقض بين بقائي على قيد الحياة والموت العنيف الذي أصاب عائلتي أشدَّ وقعًا عليَّ من الأسى الذي عانيته بسبب فقدانها، وما زاد في حدة ذلك الشعور بالذنب نظرة أنصار عائلتي الذين رأوا فيّ بديل والدي، لم يفوّتوا أيّ مناسبة من دون أن يبدوا رغبتهم في أن أحمل رايته، وقد تضاعف إلحاحهم بسبب الخسائر التي مُنُوا بها باسم والدي واسم عائلتي. كان ذلك عبئًا ثقيلًا حملته بسرور.

على أي حال، أدركت مع الوقت أنني لست والدي ولا جدّي. كان مسار حياتي فريدًا على طريقته . صودف أنني أبصرت النور في منطقة تلاقي الحضارات، وأُجبرت على اختبار أفضل وأسوأ ما في البشرية، وعلى مواجهة خسارة فادحة، واكتساب ما أتمنى أن يكون يحمل بعض

الحكمة. تلك الرحلة خلال حياتي غير الاعتيادية دفعتني باستمرار لأكون أكثر إدراكًا لخياراتي وأعمالي.

في الجوهر، سعيت في هذه الحياة الى الانعتاق من قيود ماضيّ، وإلى النجاح، من خلال هذه العملية، في خلق ذات جديدة مختلفة، متحرّرة من القيود التقليدية التي تفرضها هويّتي. لذا، كان لا بدّ من أن تكون فكرة العودة إلى لبنان نابعة من اليقين بأنني أنا من ترجع وليس والدي ولا جدّي.

فقد توصّلت إلى فهم أنّ المعركة الحقيقية التي يجدر على المرء خوضها هي المعركة مع الذات ضدّ جميع أشكال الهوية المبنية على الـ«أنا»، والـ«أنا» هنا تعني الانعكاس الخارجي عن الصورة التي نرسمها عن أنفسنا. فالقصص التي نعرفها عن أنفسنا هي ما يحدّدنا، وهي ما يحدّنا أيضًا، إذ إنّها تخلق قيودًا نعتبرها تعريفًا للصورة التي نعتقد أنّها تخصّنا، متجاهلين حقيقة وجودنا المشترك.

وتصبح هذه التعريفات الخاصة متأصلة لدرجة أنّنا نصبح مستعدين لقتل الآخرين دفاعًا عنها. وغالبًا ما يولد التطرف، الذي ينمّي مشاعر الكراهية، من هذا النوع من التماهي. وفي نهاية المطاف، تؤدي هذه الكراهية إلى تشويه للذات وإنكار كل ما هو مقدّس في داخلنا. الكراهية هي نقيض الرحمة والمغفرة.

فيما نتقدّم خلال زمن التحولات الزاخر بالقلق وعدم اليقين، سنحتاج الى تحويل عقليتنا من عقلية قائمة على الخوف إلى أخرى تقوم على التعاطف والثقة. في هذه العقلية الجديدة، لا يعود الغفران مشروطًا، ولا يعود يتعيّن على طرف أن يعترف بأنه أخطأ حتّى يتباهى الآخرون بمقدرتهم على المغفرة. فذلك مجرد شكل آخر من أشكال تحديد الهوية المبني على الأنا.

أمّا الغفران الحقيقي، فينبع من طيّ الصفحة والانتقال إلى فهم راسخ للعلاقات في ما بيننا. تعلّم المسامحة بعضنا لبعض. وفي الجوهر، عندما نغفر للآخر، نحن نغفر لأنفسنا. هذا هو أساس الرحمة – أن نرى أنفسنا في الآخر.

اليوم، وأنا أخطّ هذه السطور، أكتب انطلاقًا من الرغبة في تكريم حقيقة مأساة عائلتي والانطلاق منها لبدء مسيرة المغفرة. ذلك هو ما يدفعني اليوم لإلقاء الضوء على عملية الاغتيال، فالنوايا التي تحرّكني لا تنبع من الرغبة في الانتقام أو الغضب.

إنّ إنكار المآسي التي شهدناها طيلة السنوات الـ16 من الحرب الأهلية في لبنان لن يقدّم شيئًا في بلسمة جراح الأمّة، فالمآسي والآلام جزء من مصيرنا الإنساني. أمّا كيف نختار أن نردّ على المعاناة، فتلك مسألة أخرى؛ فإما أن نتخذ من الألم نقطة انطلاق لعملية انبعاث جديد، أو نستعمله لتبرير إشعال المزيد من حلقات الألم والبغض.

إن وضع حدّ للمعاناة يتطلب تكاملًا بين الحقيقة وبين فهم المعاناة على جميع المستويات، جسدية كانت أو عقلية أو روحية، وذلك أمر غير بديهي الحدوث، بل يتطلّب اليقظة، ووضع آليات مدروسة، خاصة واجتماعية، من شأنها أن تخلق مساحة ذلك النوع من الخلاص.

في حالة لبنان، قد يتّخذ ذلك شكل مجموعات الدعم الاجتماعي، والتطهير الفني للعواطف، وبناء المجتمع من خلال المشاريع التعاونية، والخدمات الوطنية التذكارية، التي تكرّم ضحايا الحرب باعتبارهم شهداء لبنانيين. هذه الجهود يجب أن تكون جزءًا من عملية تطهير نفسي وطنية لكافة الطوائف المشاركة. إنّ الوعي لهفوات الماضي وأخطائه هو خطوة ضرورية للشفاء، كما أنّ من شأن التوعية أن تساعد في تنبيه جيل الشباب إلى المخاطر والعواقب المترتبة على خياراتهم

الخطيرة، وأن تمنح الأمّة برمّتها فرصة تجاوز وهم الشعور بالتضحية والعزل الذي يخلقه الألم.

بالنسبة لي، أشعر أنّ الحقيقة كانت جزءًا لا يتجزأ من عملية شفائي، فالمرء لا يمكن أن يغفر إذا عجز عن تحديد مصدر الألم. بعبارة أخرى، لا يمكننا أن نتجاوز جريمة حتّى نقتنع بأن الغطاء رُفع عنها وظهرت حقيقتها. أعتقد أنّ الحقيقة هي دائمًا المنارة التي تضيء درب النمو وتحقيق الذات، ولا يجوز أن يُسمح لمروّجي الشعارات وكتّاب التاريخ الانتهازيين بإعادة كتابة الحقيقة.

إنّ جنسنا البشري يتطوّر عبر التاريخ، ونحن نسعى جاهدين للخروج من وحشية الماضي ونتبنّى ممارسات حضارية. لكنّ هذه الرحلة تنطوي على عملية تعلّم تراكمي مبنيٍّ على النقل الصادق للقصص التي تشكّل أساس الإرشاد للأجيال القادمة. مع ذلك، تظلّ الحقيقة واحدًا من أكثر المفاهيم المتقلّبة، إذ إنّها تتأثّر بميول المراقب ورؤاه، لأنّ ميول المراقب ورؤاه تتلاعب بها، ما يجعل منها موضوعًا متنازعًا عليه بشدّة. في حالتي مثلًا، أدركت أنّ عملية اغتيال عائلتي في لبنان قد تعرّضت بكاملها للتحريف التاريخي. وفي هذا الصدد، كان من واجبي أن أكون الحارس الأمين المدافع عن الحقيقة التي أحاطت بتلك الأحداث والتي عشتها. كذلك، من واجبي أن أطلع الآخرين عليها لوضع الأمور في نصابها الصحيح ولتكريم ذكرى عائلتي الشهيدة.

في مقال نشرته مجلة «تايم»، بتاريخ الاثنين 20 آب/أغسطس 1979، بمناسبة افتتاح متحف ذكرى محرقة يهود أوروبا (الهولوكوست) في الولايات المتحدة، نقلت المجلة عن الفيلسوف إيلي ويسيل قوله: «لماذا لا نترك الماضي الذي يفوق تحمّلنا ينحسر ويذوب في كتب التاريخ؟ لأنّه، ببساطة، لا يمكننا أن نفعل هذا ونستمر باعتبار أنفسنا من البشر».

حمل ذلك المقال العنوان التالي: «لا تنسَ أبدًا، لا تغفر أبدًا». لسوء الحظ طُبّق ذلك الشعار كما هو في جميع أنحاء الشرق الأوسط، وأعتقد أنّه كان وحده مسؤولًا عن استمرار معاناة الشعب اليهودي والشعب الفلسطيني والشعب اللبناني والشرق الأوسط بصفة عامة، وكذلك ربما بقية العالم، نتيجة للعديد من الأعمال الإرهابية التي طالته، والحروب التي أثارها الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. عندما يقترن رفض النسيان مع رفض المغفرة، يصبح الوضع أرضًا خصبة لتبرير الصراعات التي لا نهاية لها، والحروب والإبادات الجماعية من جميع الأطراف. في المقابل، يقول غاندي: «المغفرة لا تعني النسيان».

وتتم رحلة المغفرة عبر كل شخص على حدة، ومن خلال قناعة ذاتية بالحاجة إلى الخروج من المعاناة نحو الحرية. وقد تمحور جزء كبير من رحلتي الشخصية حول تجاوز الحزن وتعزيز المغفرة. خلال مشواري ذاك، تخطّى مفهومي عن المغفرة تعريفات المعتقدات اليهودية المسيحية التي تنسب إلى المغفرة أخلاقيات خاصة. في هذا السياق، تصبح المغفرة من الخير وعدم المغفرة من الشّر.

الإيمان المسيحي نفسه يرتكز على فكرة المغفرة، فبإمكانك ارتكاب «خطيئة» ثم التوجّه إلى الاعتراف حتّى يُغفر ذنبك إذا ما أبديت فعل التوبة المناسب. ولكن ما يعجز هذا النوع من التكفير عن معالجته هو مسألة الوعي الذاتي والمساءلة الذاتية. وللتوصّل إلى ذلك، علينا التحلي بفهم أكبر لسياق وجودنا الخاص، لا بدّ من رؤية الرابط بين حياة كلّ منّا وبين الظروف التي تمرّ بها.

وذلك رابط لا يمكننا رؤيته إلّا إذا نظرنا إلى مسألة المغفرة من زاوية أنّنا موجودون في رحلة الحياة هذه للتعلم. في بعض التقاليد، يُشار إلى الوجود على أنّه صف الروضة بالنسبة للروح. فمهما كانت تجاربك فإنها

تصبح جزءًا من رحلة تطوّرية أكثر عمقًا باتجاه السلام الداخلي، وهو أمر يحدث من خلال لملمة أجزاء نفسك التي صدّعها الألم والمعاناة، وإعادة دمجها فيك.

طوال حياتنا، نصادف فرصًا للتطور، وعادة ما تكون دروس التحوّل صعبة وبمثابة تحديات بالنسبة لنا. ولكن، حين نعي أنّنا ماضون في عملية تطوّر، نفهم أيضًا أنّ هذه العقبات هي جزء لا يتجزأ من طريقنا نحو فهم أنفسنا. وفي هذا السياق، يعني ذلك، للمفارقة، أنّ الصراعات التي نختبرها والعلاقات التي تجرحنا أو تضرّنا تشكّل بدورها فرصًا تتاح لنا لمراكمة المزيد من الوعي الذاتي، ومن هنا القول التنسّكي المأثور «اعرف نفسك».

بهذا المعنى، يمكن اعتبار الخصوم أو الأعداء أفضل المعلمين، فهم يتيحون لك اختبار الجانب المظلم من طبيعتك، الذي غالبًا ما يتجسّد غضبًا أو اتهامًا أو كراهية. إن الظروف والأفراد الذين تتنازع معهم يمنحونك فرصة أن تفهم بعمقٍ أكثر ردود فعلك، وأن تحوّلها في النهاية، وذلك هو الأمثل، إلى مظاهر عن السلام، أو قبول الآخر أو الحبّ. عندما ندرك أنّ كل واحد فينا هو بمثابة معلّم للآخر، يصبح بإمكاننا أن نرى مدى الترابط الذي يجمعنا به حتّى لو كان هو سبب معاناتنا. إنّ وعينا لتشابك هذه الروابط، بما تشكّله من أساس لتفاعلاتنا، يتيح لنا التحرّر، عن رحمة، ممّن أخطأ في حقنا.

إنّ ذلك التحرّر يمثّل الخطوة الأولى نحو عملية الخروج من الألم الذي إن لم نتحرّر منه، نظلّ عالقين في دوامةٍ من المعاناة. وهو يسمو بالمغفرة التي تنبع، في هذه الحالة، من إدراكنا للطبيعة الحقيقية لرسالتنا في الحياة. على المستوى الشخصي لا يمكن للمغفرة إلّا أن تكون خيارًا مبنيًّا على وعينا لرحلة التنوير التي نخوضها.

في ما يتعلق بقاتل عائلتي، أرى أنّه مهما كانت الأسباب التي دفعته لاقتراف هذه الجريمة، فهو كان مضلّلًا الى حدّ كبير. من الناحية الروحانية الصرفة، تنبع الحاجة إلى انتزاع حياة أحد، وتبرير ذلك الفعل للذات، من انحراف عميق في الذات التي تحرّكها الأنا، وهو انحراف يؤدّي بالشخص الى تنصيب نفسه فوق الاعتبارات الأخلاقية العادية، بينما تتغذّى إرادة القتل لديه من الغطرسة وجنون العظمة.

في ذلك الوقت، كانت تسيّرنا جميعًا في لبنان عقلية قاسية لا ترحم. كنا مجبرين على العيش في بيئة وحشية تسودها روح الانتقام التي شوّهت العديد من الخيارات والأعمال. بالتالي، لم يكن جعجع أفضل أو أسوأ من عدد كبير منا، عدا أنّه منح نفسه امتيازًا وحقًا بالتصرف والتعبير عن أدنى غرائزه على حساب غيره.

ولكن، مع الوقت، دفعني سمير جعجع، من خلال أعماله، على بشاعتها، إلى النضوج وتخطي فهمي الضيّق لتأثيرات الكراهية والغضب التي تسبّب الشلل والوهن. وبالنتيجة، لم أعد أشعر بالغضب أو الكراهية تجاهه.

كذلك، أدركت أنّ النتائج المترتبة على أعمال جعجع تشمل نطاقًا أوسع بكثير من نطاق عائلتي، وأن ديونه المعنوية والمادية تمتدّ لتضمّ الأمّة ككل وعددًا كبيرًا من الناس الذين أثّر على حياتهم سلبيًّا وبشكل مأساوي. كذلك، يرضيني أن يكون جعجع قد حوكم على أفعاله بما فيه خير البشرية. أمّا ما عدا ذلك، فليبق بينه وبين ضميره ومفهومه عن الله. من جهتي، أدركت أنّ استمرار البغض في قلبي لن يسهم إلّا في أذيتي، وأنا لست مسؤولة عن العِبَر التي يجب أن يستقيها بنفسه بل ما يعنيني هو العبر التي تخصّني فقط. أمّا كيف يختار أن يعيش حياته في المستقبل، فذلك شأنه الذي فيه هلاكه أو خلاصه.

على المستوى المجتمعي، كان ثمن إنكار الحقيقة لوقائع هذه الجريمة وغيرها هو غياب المساءلة والوعي الذاتي الذي يحفّز النمو الداخلي والتحوّل.

المسألة لا تتعلق بالمغفرة، ولكنها مسألة النظام المدني مقابل الفوضى. في معظم الأحيان، يكون العفو السياسي والعفو العام مجرد مناورات تهدف إلى كسب الشعبية، أو تجميل الحقيقة، أو أحيانًا تحقيق أهداف معيّنة.

ولكن عندما يتعلق الأمر ببناء دولة قوية تحترم نفسها ومواطنيها، تصبح الشفافية والمساءلة من المعايير الأساسية الضرورية لتثبيت الثقة بشرعية الدولة وممثليها، وبمعزل عن الالتزام الدقيق بهذين العنصرين، من الصعب أن تكون هناك ثقة بالقيادة، فالعدالة هي شرط أساسي للمغفرة على الصعيد الاجتماعي، ومن المستحيل تجاوز الكراهية ووضع معايير جديدة للتعايش في المستقبل إلّا على أساس العدالة.

لنكن واضحين تمامًا، ليس للمصالحة الشخصية التي عقدتها بيني وبين الصدمة التي أوقعها جعجع على حياتي أيّ تأثير على مدى قبولي بخياراته وطموحاته السياسية. فهي لا تعني بأيّ شكل من الأشكال أنني أتبنّى معتقداته السياسية، فأنا أعتبرها طائفية وانقسامية وتشجّع على التفرقة، لا بل يمكنني القول إنّها تنبع من الإقصاء والخوف. ويبدو أنّ الحافز الذي يحرّك جعجع يستلهم من رؤية يهودية مسيحية حيث الغاية تبرّر الوسيلة، وبالتالي فإن عقيدته تُرسي دعائم الحرب لا السلام.

في الماضي، وجدت هذه النظرة الضيقة للأمّة على أساس التفرقة العرقية صداها في البراغماتية الانعزالية الخاصة بالإسرائيليين، أمّا اليوم، فمن المفارقة أن تستلهم من صعود الأصولية السنية في لبنان؛ ما يجعلنا نفهم السبب وراء أن يكون سمير جعجع من أشدّ المدافعين عن

حركة 14 آذار نفسها التي تسهم في تغذية التطرّف الإسلامي في لبنان، ذلك أنّ التطرّف يعاكس التطرّف الموازي له حجمًا والمضاد له اتجاهًا، وبالتالي، يبرّر وجوده.

فالتطرّف الذي يتّخذ الشكل السلفي أو غيره يصبح «سبب وجود» جعجع. هذه الأصولية تمثّل نافذة لترويج ماركته الخاصة من التطرّف، ومن شأنها أن تشكّل أساس تكتيكاته السياسية الطائفية، وأن تسمح له بالاحتفاظ بالسيطرة الأيديولوجية على جزء من المجتمع المسيحي من خلال ترويج الخوف.

أمّا الجيل الجديد الذي يوجّه نحوه جهوده الترويجية، فهو لم يعرف قطّ مأساة الحرب وبالتالي هو غير قادر على فهم كلفة هذا التطرّف الديني، فهذا التطرّف نفسه هو الذي سمح لإحدى الحروب الأهلية الأكثر وحشية في التاريخ أن تدوم طيلة 16 عامًا، أُزهق خلالها عدد كبير من الأرواح وأُخضعت أمّة قُتل قادتها ونُفوا وسُجنوا.

وها أنا أتساءل: ألم نستخلص العِبَر بعد؟ التطرّف، والتطهير العرقي، والانعزالية ليست ولا يمكن أبدًا أن تكون هي الحلّ في لبنان. لا بل على العكس، علينا أن ندرك أنّ ثمّة ترابطًا فعليًّا بيننا وأنّ جميع مصائرنا مترابطة. لا مكان للاختباء، ولا حتّى في كانتونات طائفية غير واقعية.

في الحقيقة، لا يمكن للأمل أن يشقّ طريقه بيننا إلّا إذا نجحنا في تخطي قيود النظرة القديمة التي نكنّها بعضنا لبعض ومهّدنا الطريق لقرارات أكثر سلمية للصراع. أمّا إذا لم نقم بذلك، فسنكون نكرّر أخطاء الماضي وستكون نتيجة العِبر أكثر تدميرًا.

وفي هذا السياق، السؤال هو: هل سنتدارك الوضع في الوقت المناسب فننتفض ضدّ وهم الاختلاف ونتّحد أخيرًا لنعيَ إنسانيتنا

المشتركة؟ فبحسب أينشتاين: «علينا أن نعتنق طريقة جديدة تمامًا في التفكير حتّى تنجو البشرية».

عند هذه المرحلة من حياتي، ولكوني اختبرت رعب الحرب وعبثها على عدّة مستويات، لا يمكنني سوى أن أدعوَ للسلام. فرحلتنا الجماعية لا تتطلب عملية تعلّم فحسب بل عملية تكيّف أيضًا. وهذا ما يحدث في عدد كبير من أنحاء العالم في الوقت الحاضر. كبشر، نحن نقف عند نقطة تحوّل فريدة من نوعها تتطلّب منّا أن نتمكّن من النموّ انطلاقًا من أخطائنا. إنّها عملية مردودها يتناقص، فكلما أمعنّا في مراكمة أخطائنا وتجاهلنا إمكانية التغيير الجذري، سارعنا في الكشف عن إمكانية زوالنا. إن إدراكنا لأخطائنا لا يُعدُّ فشلًا، بل إنه بمثابة تطوّرٍ داخلي يتيح لنا تحقيق طفرة نحو المرحلة التالية. إن الاعتراف بالخطأ يمثّل خطوة أساسية على درب الشفاء والتطوّر.

إن أفكاري الخاصة حول السلام شخصية، ولكن، باعتقادي، لا بدّ من أن تكون إرادة السلام موجودة على المستوى الفردي حتّى تظهر على المستوى الجماعي. للأسف، حال العالم ليست كذلك. فثمة ظلام كبير يخيّم على العالم ولطالما كان ولا يزال هناك شهية للحرب. في عالمنا، لا يزال العنف هو الأسلوب المفضّل للتعامل في حلّ المشاكل السياسية.

في لبنان، تقوم الثقافة التي تربّيت على أساسها على تمجيد كلّ ما يأتي من الخارج على حساب ما هو في الداخل. وفي سياق متّصل، ثمة عقلية سائدة في لبنان تقوم على الاعتقاد بأنّ الثروة المادية فقط هي سرّ النجاح وأنّ استعراضها هو الهدف. أمّا الفساد، فهو منتشر والمال يبقى سيّد الموقف. وينقسم المجتمع بين مقتدرين وغير مقتدرين، ما يفاقم الإحساس بعدم الأمان والاعتماد على الآخر، حيث يجد المرء في بعض

الأحيان أنّ السبيل الوحيد للبقاء والتغلب على الصعوبات التي يواجهها هو من خلال الخضوع لنفوذ سياسي ثري طلبًا للحماية.

فالدولة لم تطرح نفسها ضامنًا للحقوق الفردية، وبدل أن تقوم بتعزيز الأحوال الشخصية للمواطن اللبناني، تراها تتعرّض هي نفسها للتقويض، باستمرار، لأنّها قائمة على ثقافة المحسوبية. ذلك هو السبب الرئيسي خلف سيطرة القيادة التقليدية في لبنان واصطفاف أيّ حركة جديدة تحت جناح «الحرس القديم». وقد شهدت الكثير من هذه الحالات خلال نشأتي. كان جدّي يَعول خمس عائلات على الأقلّ، بالإضافة إلى من كانوا يتردّدون إلى منزلنا يوميًّا لطلب الصدقات والخدمات. في الواقع، إنّ النشاط الأساسي للسياسيين في لبنان هو تلبية الطلبات وتقديم المساعدة.

إلّا أنّ ثمن هذه الوساطة هو الولاء الذليل للإقطاعية. لطالما كانت تلك هي بنية المشهد السياسي في لبنان. والسبيل الوحيد للتغلب على هذا التفويض الإقطاعي هو تمكين الدولة من خلال سنّ القوانين المدنية. وفي هذا السياق، لا بدّ من خلق مناخ من الشفافية والمساءلة للتغلب على الفساد، ومن منح الفرد الحقوق الإنسانية الأساسية وغير القابلة للتصرّف، في مجالَي التمثيل الذاتي وتقرير المصير.

بالإضافة إلى حقوق الإنسان الأساسية، تبدو حقوق المرأة في لبنان أيضًا في حالة مزرية للأسف، والعدد المحدود من النساء اللواتي يرتقين لتبوّؤ مناصب بارزة، يصلن بسبب أزواجهن أو أبيهنّ أو إخوانهن الذين قضوا أو قُتلوا أو سُجنوا. ليست هناك امرأة واحدة اليوم في منصب السلطة بفضل مؤهلاتها الشخصية.

من جهتي، إرث والدي وجدّي هو ما يتيح لي إمكانية النفاذ الى الساحة السياسية.

هناك العديد من المجالات التي يعاني فيها القانون من فجوات في ما يخصّ قضايا المرأة، وأبسطها مثلًا حقّها، أسوة بالرجل، في منح جنسيتها اللبنانية لأولادها.

من وجهة النظر الاقتصادية، لا بدّ من منح المرأة اللبنانية تقديمات اجتماعية متساوية، وأن تعامل على قدم المساواة مع الرجل في مسألتَي الأجر والترقية. وفي حال الأمومة، لا بدّ أن تُمنَح إجازة أمومة كافية وضمان استعادة عملها عند العودة. عند عقد الزواج، يجب أن تملك حقوقًا متساوية، وعند فسخه لا بدّ من أن تتمتع بالحماية المناسبة من الظلم السائد حاليًا بموجب القانون في ما يتعلق بالتبنّي والوصاية على الأولاد.

هناك مجالات كثيرة في لبنان بحاجة ماسة إلى الإصلاح؛ منها البيئة مثلًا، التي تعرّضت لتشويه صارخ بسبب المصالح الرأسمالية غير المنضبطة، حيث تعاني اليوم التلال الجميلة المحيطة بالعاصمة من تشوّهات المقالع والكسّارات. من جهة أخرى، كل مواطن في لبنان يملك سيارة بسبب غياب وسائل النقل العام والافتقار إلى الأرصفة التي تسمح للمشاة بالتنقّل، فضلًا عن التلوّث الناجم عن الغازات المنبعثة من السيارات والتي تدفن بيروت تحت غيمة من الدخان، والازدحامات الخانقة التي تشلّ المدينة.

كذلك، تكاد الأنظمة التي تتعلق باستخدام المبيدات الحشرية والمواد الكيميائية في المواد الغذائية تنعدم، ما يتسبّب بازدياد نسبة الإصابات السرطانية في البلاد؛ فحاليًّا، من بين كل سبع نساء، تُشخَّص واحدة مصابة بسرطان الثدي. ويعتبر عدد المدخنين لافتًا، وثمة عدم اكتراث عام بمسألة نوعية الهواء النقي وهو أمر خطير. عمومًا، هناك وعي محدود جدًّا في ما يخص العلاقة بين صحة البيئة وصحة الأفراد في المجتمع.

ومع ذلك، من المدهش أن نكتشف أنّ هناك قوانين تنظّم مختلف أنواع الممارسات، لكنّ المشكلة تكمن في تطبيق هذه القوانين واحترامها، فضلًا عن دعمها من قبل القيادات؛ ففي لبنان، غالبًا ما يكون القادة السياسيون أول من يستغلون مواقعهم لخرق هذه القوانين سعيًا وراء أهدافهم الخاصة.

ويظهر تجاهل الأنظمة والتشريعات واضحًا في مجال البناء تحديدًا؛ حيث تبدو العاصمة أشبه بمتاهة من المباني العشوائية، يرتفع كل منها وفقًا للأهواء والميول الشخصية لبانيها. عمليًّا، لا وجود للمساحات الخضراء في المدينة، ولا لمواقف السيارات، ولا للمنطق أو المعيشة السهلة. في السنوات العشر المقبلة، ومع التوسّع السكاني المتوقع، سيتحوّل لبنان كله إلى مدينة واحدة. ماذا سيحلّ بالطبيعة؟ وكيف سنعيش جميعًا في أدغال الإسمنت والبيئة المشوّهة التي تتمدّد يومًا بعد آخر؟

إنّ مسألة بقاء الأمّة مهدّد لا فقط بسبب الضغوط البيئية ولكن لأنّ جوهر الثقافة السياسية مبنيّ على إرثٍ من الجشع التجاري المستشري منذ حقبة رفيق الحريري؛ فالسنوات العديدة من الإنفاق العشوائي للأموال السعودية قد أوجدت في جهاز الوظائف العامة عقلية يتحكّم المال بها تحكّمًا مطلقًا.

كلّ ذلك أدّى إلى تفشّي الفساد من جهة وإلى حالةٍ من اليأس والاستسلام الشعبي، من جهة أخرى. على الصعيد الاقتصادي، هناك هوة واسعة بين الازدهار المالي الذي تتمتع به قلّة محدودة في مقابل الفقر الذي يطال الكثيرين. الطبقة الوسطى اختفت في لبنان. تلاشت بسبب عدم وجود فرص العمل وغياب أيّ خطة اقتصادية مستدامة للنمو والتنمية. أمّا الشباب اللبناني، فلم يعد أمامهم سوى السفر إلى

الخارج للعثور على عمل يجنون منه دخلًا مناسبًا. ففي لبنان، يبلغ الحدّ الأدنى للأجور حوالى 400 دولار في الشهر.

هـذه الحقائق التي لا تُحتمَل، والعديد غيرها، هي ما يواجهه اللبنانيون كل يوم. ويومًا بعد يوم، يتملّكهم الاستسلام واليأس من احتمال وجود مستقبل أفضل.

كان مؤسّسو لبنان قد وضعوا دستورًا اعتُبر ثوريًّا في حينه، إذ سعى إلى توفير خلفية منصفة لتمثيلٍ عادل للمجموعات الطائفية المختلفة في إطار دولة مدنية، إلّا أنّهم لم ينجحوا تمامًا؛ في الحقيقة، هم فشلوا في إنشاء دولة مدنية. بالتالي، فشلوا في خلق «مواطن لبناني»، لأنّهم عجزوا عن إقامة دولة تحكمها القوانين المدنية بدلًا من القوانين الدينية. اليوم، تبدو تجليات ذلك الفشل واضحة تمامًا، كان يتعيّن عليهم الحفاظ على الوحدة الطائفية للتكوين الثقافي أثناء إنشاء دولة قومية علمانية. ومن غير المعروف إن كان ذلك مرشّحًا للتحقق في ظل وجود التطرف الديني الذي نشهده اليوم. ومع ذلك، لا بدّ من وضع آليات للفصل بين السلطة التشريعية للحكومة وبين الإملاءات الدينية. وربما تتمثّل إحدى هذه الوسائل بإنشاء مجلس شيوخ يكون طائفيًّا بطبيعته ويعمل كرقيب، مهمته الحفاظ على التوازن الديني. فوجود مجلس كهذا من شأنه أن يحرّر البرلمان من حالة القصور والارتياب التي تحدّد واقعه كفرع تشريعي للحكومة يقوده المنطق الطائفي.

لبنان ليس دولة دينية مثل إسرائيل أو باكستان أو حتّى المملكة العربية السعودية، فكل دولة من هذه الدول الثلاث تمنح أحد الأديان امتيازًا بالنسبة لغيره بموجب الدستور. منذ البداية، شكّل لبنان بوتقة تنصهر فيها مختلف الأديان، ويمكن لكل دين فيها أن يعبّر عن نفسه بحرية. ففي لبنان، ترى فتيات يرتدين ملابس منحسرة إلى جانب غيرهن

من المحجبات وهنّ يعملن جنبًا إلى جنب؛ فالتسامح صفة متأصّلة بين أبناء الشعب اللبناني، ولكنها تتعرّض للتشويه على أيدي السياسيين المتعطشين للسلطة.

بسبب التوازن الهش لنسيجه الاجتماعي، بات لبنان أشبه بسفينة تتقاذفها الأمواج في بحر هائج من الميول الدولية. وقد آن لنا أن نخلق حسًّا جديدًا بالهوية المدنية يمكننا، في إطاره، الترويج لأفكار الاحترام والشرف التي يجب أن يحظى بها جميع الأفراد وعلى قدم المساواة بموجب الدستور.

لا بدّ للبنانيين من أن يولدوا من جديد كمواطنين ليجدوا لأنفسهم مكانًا في إطار أمّة بدلًا من أن يستمرّوا بالعيش في «غيتو» طائفي. عندما قرأت الدستور اللبناني، شعرت بصدمة؛ ففي مقدمة الأحكام الأساسية، بحسب ما ورد في القانون الدستوري الصادر في 21 تشرين الأول/أكتوبر 1990، ثمة بند يمثّل برأيي خللًا رئيسيًّا في تخطيط البناء الخاص بالأمّة، وهو ينص على ما يلي: «إلغاء الطائفية السياسية هدف وطني أساسي يقتضي العمل على تحقيقه وفق خطة مرحلية»؛ لا يمكن للدساتير أن تحدّد أهدافًا لأنّ هذه الأخيرة تخضع لأهواء القدر. يجب أن تكون الدساتير حاسمة وواضحة ودقيقة في كل الأوقات. بهذا المنطق، يُعتبر البند المذكور بمثابة نيّة ضعيفة وليس تفويضًا. يجب أن تؤدّي الدولة دور الضامن بالنسبة للمواطنين. وبالتالي، ثمة حاجة إلى إعلان واضح في الدستور للتشديد على الفصل التام بين الدين والدولة. هناك مقاطع أخرى في الدستور تعكس تنازلًا عن حقوق المواطنين إذ تحيلهم، في ما يتعلق بها، إلى أدبيّات إرثهم الطائفي. ففي حالة حقوق المرأة، على سبيل المثال، من المستحيل اليوم إحداث أيّ تغيير في هذا المجال لأنّ الموضوع يخضع لقانون الأسرة الذي يدخل ضمن اختصاص المحاكم الدينية.

حتّى ينعم لبنان بفرصة البقاء والعيش بسلام في المستقبل، بات من المهمّ، أكثر من أي وقت مضى، أن يعاد إحياء وعي المواطنين وإيمانهم بضرورة تماهيهم مع وطنٍ موحَّد. وفي هذا السياق، يجب تشجيع المواطنين على التحدث بلغة الاعتدال والشمول، ولا بد من أن تصبح الحلول السياسية جزءًا لا يتجزأ من عملية تضع مصلحة لبنان في أعلى سلّم الأولويات وتقدّمها على مصلحة أيّ مجموعة. حتّى ذلك الحين، لن يكون هنالك حلّ في الأفق، وسيستمر الاستقطاب دائرًا في البلاد حول مشاكل طائفية غير قابلة للحل على ما يبدو. إلّا أنّها غير قابلة للحل فقط لأنّ مختلف الأطراف ينظرون إليها من الحدود الضيقة لقلقهم ومخاوفهم الآنية. أمّا إذا أعدنا، كمواطنين، توجيه نقطة التركيز نحو البلد ككل، عندها ستتبلور الحلول بما يتوافق مع المصالح العليا للأمّة ولجميع المعنيين. لا بدّ من أخلاقيات جديدة تقود الشعب وتحثّه على تأمّل الصورة الأشمل، وعلى عدم الانجرار خلف المكائد السياسية واضطرابات الماضي التي شرذمت أمتنا وطوّقتها خلال عقدين من الحرب تلاها عقدان من المآزق السياسية والطائفية.

بالإضافة إلى ذلك، لا بدّ من فضح أولئك الذين يثيرون النزاعات، لأنّهم عملاء الفساد الذين يقدمون المصالح والأجندات الخارجية على المصالح الوطنية؛ فقد حان الوقت ليختار اللبنانيون عدم خوض حروب دول أخرى على أرض لبنان.

وفي هذا السياق، بات الوقت مناسبًا للدعوة إلى إقرار إجماع وطني حول عدم التدخل وتنفيذ تعاليم الحياد المدني. وذلك يعني أنّنا مُلزَمون، بصفتنا مواطنين لبنانيين، بوضع مصالح الأمّة في الصدارة واختيار النأي بالنفس في مواجهة الصراعات السياسية الخارجية التي لا يمكننا السيطرة عليها. وقد اخترت تحديدًا تعبير «الحياد المدني» لا حياد الدولة الذي تترتب عليه تبعات أكبر بكثير على المستوى الدولي،

لأنّ الحياد المدني هو خيار شخصي يستتبع قيامنا بما هو الأفضل للبنان انطلاقًا من صفتنا كمواطنين، بغضّ النظر عمّن نؤيّد ومن لا نؤيّد. فالأمر يتعلق بوضعنا الخيارات الشخصية والمعتقدات جانبًا لنجد وسيلة تمكّننا من التواصل والتعامل بعضنا مع بعض من دون أن تعرّض نسيجنا الاجتماعي للخطر. وسيلة تمنعنا من الضلوع في مواجهات مسلحة في ما بيننا. وسيلة تمكّننا من الارتقاء فوق أيّ حوار أو أيّ حركة سياسية تقسيمية تهدّد وحدة لبنان وسلامته كدولة.

لبنان أمّة تسكن مكانًا بين الأمل واليأس. بلدٌ ساحر وآسرٌ بفتنته، يذهلك ويوقعك في شباكه، يغويك ويجتاحك، لأنّه متطرّف في جوهره؛ فهو يكتسح الحواس، باثًّا الحياة في أيٍّ كان بحكم الطاقة التي تفيض منه. هو القديم الجديد، القبيح والجميل، البطولي والمأساوي في آنٍ معًا. لبنان هو أرض التناقض الذي لا يقاوَم، وهو ما يتجسّد في شعبه، وحتى في جغرافيته المصابة بالفصام بين قممها البيضاء ورمال شواطئها الساخنة. في لبنان، لا مكان للاعتدال.

بدل محاولاتنا المستمرة لاختزال كل تلك التناقضات في قاسم مشترك، علينا أن نحتفي باختلافنا وأن نفرح بتناقضاتنا. دعونا ننسى قتل بعضنا بعضًا لأنّنا مختلفون، ونتبنّى تلك التعددية التي تميّزنا؛ فالسبيل الوحيد لدفع هذه الأمّة إلى حيّز الوجود هو الإقرار بالتباساتها وإعلانها نموذجًا للتعايش والتسامح في العالم. وإلا، فهي مشروعٌ فاشل يشكّل حالة شاذة في الزّمن وفي التاريخ. في الصميم، نحن جميعًا نعرف ذلك، ولهذا السبب وخلافًا للتوقعات، يستمر أشخاصٌ مثلي ومثل آخرين، في مواصلة النضال من أجل تحقيق هذه الرؤية حول أمّة متنوعة وموحّدة، ومتعددة الثقافات، أمّة نشأت على قيَم مستقاة من الشرق والغرب معًا وتحمل رسالة مميّزة إلى العالم.

على المستوى الشخصي، عدت إلى نقطة البداية وأنا مستعدة لإعادة الالتزام بهذه الرؤية، تمامًا كما فعل جدّي على ما أعتقد عندما حارب من أجل استقلال البلاد عن الفرنسيين، وكما فعل والدي عندما حارب من أجل الأمّة لتخليصها من المكائد المبنية على المصالح المختلفة في إطار الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. اليوم، نناضل مجدّدًا من أجل هذه الأمّة، ليس بمواجهة العناصر الخارجية التي تحمل أجندات عقائدية متطرفة فحسب، بل بمواجهة أنفسنا أيضًا، بمواجهة أسوأ ما لدينا من ميول وبمواجهة عجزنا عن الاعتناء بهبة رائعة. اليوم، من واجبنا أن نحمي وحدة هذه الأمّة وسيادتها.

عظيمة هي
قوى الظلام والكراهية
سنون عديدة مضت
ولا تزال الرغبة في الهيمنة كبيرة
كيف نقاتل الشرّ
من دون أن نتحوّل الى أشرار؟
كيف تؤجج النار من دون شعلة في يدك ؟
تقول «لا» للعنف
لا للثأر
وتُسكت شياطين القلب
شياطين الكراهية والغضب
لتصبح المراقب
سيطر على تهوّر أعمالك
على حمّى كلماتك
اندفاعاتك الأوّلية
وردود فعلك المبدئية
فكّر بالآخرين
تأمّل آلامهم وضيقهم
عانق بهجتهم وتبرّأ من الأنا المدمّرة

لتدرك في صميم نفسك
أنك لست ولن تكون
أفكارك انفعالاتك وجسدك
بل أنت روح لا حدود لها
تسرح على درب لا غاية له
سوى أن تتّحد
مع نفسك ومع الحياة
حتّى الانعتاق

مقطع من «مسار من دون هدف».

11

خلال السنوات الأخيرة، تأرجح لبنان بين حالتي النشوء والطوارئ، وفي بعض الجوانب، مالت الدفّة أكثر باتجاه الطوارئ. على الصعيد السياسي يبدو الأمر كأن شيئًا لم يتغيَّر؛ ويجري تحريض الفئات ذاتها من المواطنين بعضهم ضدّ بعض، بينما تنعكس الانقسامات الإقليمية في لبنان على لسان مختلف أطراف النزاع الذين يشعرون بضرورة تبنّي كل نضال سياسي دولي وكأنّه يعود لهم، ما أدّى إلى انحراف الأمّة تمامًا عن السكة الصحيحة. فالأنظار السياسية تتجه دائمًا إلى الخارج، نحو المقياس الإقليمي. وقد أدّى ذلك إلى حالة جعلت التعافي الداخلي للأمّة رهنًا بأهواء الحكومات المتعاقبة غير المستقرة التي تتشكّل وتُقاطَع بسبب التأثيرات والتوجيهات الدولية.

أدى القتال في سوريا، على خلفية الانقسام الإقليمي الخطير بين السنة والشيعة، الى تفاقم التوترات السياسية في لبنان. وبينما تقف سوريا بمواجهة أزمتها وقد دخلت على ما يبدو في حرب أهلية طويلة الأمد، تلتزم القوى الأجنبية بتمويل التسلّح في هذه الحرب، تمامًا كما تصرّفت في لبنان على امتداد سنوات الصراع. وسرعان ما ستهدّد

تداعيات العنف في سوريا لبنان، إذ قد يتسبّب تمدّد رقعة العنف بانهيار كامل على مستوى الثوابت الدينية بين المجموعات المتربّصة بعضها ببعض، ما من شأنه مفاقمة هشاشة الوضع الطائفي في لبنان.

وبالنتيجة، التحق أولئك الذين يرغبون في تقسيم لبنان بقافلة الحمّى الدينية الانفصالية، وهم يستعيدون شبح التقسيم، أحد الأسباب الأساسية التي أشعلت الحرب الأهلية. ولطالما كانت هذه العقيدة الانفصالية جزءًا لا يتجزأ من أجندة سياسية أوسع تتعلق بالشرق الأوسط وتقوم على الحاجة الى تقسيم العالم العربي على أسس قبلية وأخلاقية وفقًا للقول المأثور القديم «فرّق تسُد».

على عادتهم، ينتظر اللبنانيون ويراقبون ما يحدث حولهم، والى أيّ جهة سيميل ميزان القوى، المعسكر السنّي أم الشيعي، ومن سيحصل بالنتيجة على قوة التأثير في الشرق الأوسط، المعسكر السعودي والسلفي، أم المعسكر الإيراني وحزب الله. في هذه المعادلة، فقد مسيحيّو لبنان القرار لأنّهم فقدوا استقلاليتهم، وتحالفوا مع جانب أو آخر بدل أداء دور الوسيط والمراقب لكلا الجانبين.

ومن المنصف القول إنه حتّى اليوم، لا وجود لعملية سلام في الشرق الأوسط؛ إذ يتطلب تحقيق هذا السلام تغيير أجواء انعدام الثقة من خلال تعديل وتخطي المعتقدات السائدة القائمة على الإيمان باحتكار الحق واعتناق الموقف الدفاعي والرغبة في الانتقام.

أكنّا نتحدّث عن إيران، أم العراق، أم السعودية، أم إسرائيل، أم حزب الله، أم حماس، أم سوريا، أم الشيعة، أم السنّة، أم الموارنة، أم الدروز، الدافع هو نفسه، تحرّكه كراهية الآخر، والحفاظ على النفس، تبرير الذات وتبرير المصالح الخاصة التي ترتكز على مفهوم سياسي ضيق، ما يخلق دورات متراكمة من العنف المتجدّد دائمًا.

ما من شكّ لديّ في أنّ النهاية الطبيعية للمواقف السياسية الحالية القائمة على الاستبعاد والإقصاء المتبادل قد تكون كارثية إذا طُرحَت، وحين تُطرح، الخيارات النووية، فهذه ستطال كافة أنحاء العالم لأنّنا، مهما اعتقدنا أنّنا بأمان، لا أحد ينجو من هذا النوع من العنف.

فمن الواضح أنّ التحالفات القديمة تتفكّك وأنظمة السلالات الحاكمة تنهار تحت ضغط إرادة الشعب ومطالباته بالإصلاح والعدالة الاجتماعية. شبكة التواصل العالمية منحت كل شخص منبرًا للكلام وباتت أجهزة الدولة الجبّارة في ضخامتها عاجزة عن إسكات هذه الأصوات. فصوت الفرد لم يعد ضائعًا بل أصبح مدعومًا في كنف مجموعة من أصواتٍ مشابهة لأفراد آخرين يلتقون معه على طريقة تفكير واحدة، ومن المعلوم أنّ التمردات العربية انطلقت من مساحة إلكترونية مشتركة للحوار.

في الشرق الأوسط، لن يتحقّق أيّ سلام من دون وضع حلّ للصراع العربي الإسرائيلي. وفي هذا الحلّ، لا بدّ من أن يندرج عنصر أساسي يتمثّل بمعاهدة للحدّ من انتشار الأسلحة النووية تشمل إسرائيل وتنصّ على نزع سلاح كافة دول الشرق الأوسط بالتساوي؛ فالاستمرار باعتماد ازدواجية المعايير على مستويَي القضية الفلسطينية، والمسألة النووية، ينذر بكارثة من شأنها إشعال فتيل حرب عالمية ثالثة ستضع العالم برمّته على شفير الهاوية. ذلك لن يأتي إلّا على حساب شيء، لنأمل أن يكون ذلك الشيء هو الغباء الإنساني لا الإنسانية بحد ذاتها.

لا مكان للسلام ما دامت عقلية الحق والباطل والانتقام والاتهام هي السائدة. فالسلام يتطلّب من جميع الأطراف وعيًا دقيقًا لمخاوف الأعداء وليس حسًا مبالغًا به لما يستحقّونه أنفسهم. وبانتظار أن تصبح الاختلافات الدقيقة للسياسة المحلية جزءًا لا يتجزّأ من مخطّطٍ للسلام،

ستستمرّ الخطوط العريضة في طمس الهواجس الحقيقية على المستوى الإنساني البحت.

في الوقت الحاضر، يُعتبر التواصل بيننا الأمل الوحيد لمحو النظرة العالمية القديمة المرتكزة على الاستغلال، والتي يتعيّن استبدالها بنظرة جديدة مبنية على التعاون. وحتى نتوصّل إلى تطبيق ذلك الشرط على كافة مستويات المجتمع، من السياسي إلى الاجتماعي والاقتصادي وحتى العسكري، لن نفلح سوى بتكرار التاريخ بحماقة.

لا بدّ لنا من تخطّي التعميمات ومن تفادي الخطط المَبنيَّة على تشويه صورة الآخر خدمةً للمصالح الذاتية، فالانقسامات البسيطة لم تعد موجودة. في الواقع، إن العالم الذي نعرفه يعيد تشكيل ذاته. في كل مكان وفي كل دولة في كافة أرجاء العالم، تزداد الانقسامات بين الناس الذين يفتحون أعينهم على معاناة الآخرين وأولئك الذين يسعون إلى استغلال الآخرين من أجل أجندتهم الخاصة. وهنا تكمن المعركة الحقيقية التي تتخطى نطاق الحدود الوطنية والديانات وتتعلق بالمواجهة بين الملتزمين بخدمة حقوق الإنسان من جهة، والملتزمين بالتلاعب بالوضع الإنساني للسيطرة عليه من جهة أخرى، وتشمل هذه الفئة الأخيرة المتعصبين دينيًّا والمجموعات المتطرفة الذين تغمرهم أطماع الهيمنة الشاملة.

ويشهد عالم اليوم تضافر الجهود الآيلة للتوصّل إلى إجماع على فكرة تمثّل قضية عادلة. وعلى غرار أي فلسفة شمولية، فهي تفتقر إلى صقل التفاصيل إذ تتمحور حول فكرة «كل شيء أو لا شيء»؛ فإمّا أن تكون معها أو ضدّها.

على امتداد عقود متتالية، كانت المسألة الإسرائيلية الفلسطينية العنصر الوحيد المتحكّم في رسم السياسة الخارجية للولايات المتحدة في الشرق الأوسط، ما أدّى إلى استثمار وتعزيز ذلك التصنيف الشمولي

الذي يُستخدم اليوم لتعميق حدة الاستقطاب في العالم. ويخدم مبدأ «التوافق» إسرائيل كما يلقى دعم الولايات المتحدة الأميركية، أمّا كل ما يخالف ذلك، ويدعم القضية الفلسطينية، فهو «مناهض». المعادلة بسيطة جدًّا فإمّا أن تكون مع التوافق أو ضدّه. بعبارة أخرى، في الشرق الأوسط، إمّا أن يكون المرء مع إسرائيل أو ضدّ إسرائيل.

وكما أنّ المواطن الأميركي العادي عاجز اليوم عن التمييز بين الطوائف الإسلامية، كذلك فإن الرجل أو المرأة في أيّ شارع من أي دولة عربية عاجز عن التمييز بين إسرائيل والولايات المتحدة. في الشرق الأوسط، تفتقر الصورة إلى الوضوح والتمييز.

وقد خلقت هذه النظرة المنتشرة في أنحاء العالم، بالنسبة للغرب، صورة اختزالية عن الإسلام، بحيث جرى الخلط بين مختلف المجموعات عبر زجّها في رزمة واحدة، ما أسهم في نقل صورة تبسيطيّة ومُربكة بالنسبة للمواطن الغربي.

فعلى سبيل المثال، كانت الغالبية العظمى من مرتكبي هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر من التابعية السعودية ومن الجهاديين السنّة. ومع ذلك، عندما يتصوّر أيّ غربي اليوم شخصية إرهابي، يرى عنصرًا من حزب الله، الذي يضمّ المسلمين الشيعة. وزيادة في التعقيد، يُعتبَر الشيعة كفّارًا وأعداءً للجهاديين السنّة، ومنهم المنتسبون إلى «القاعدة» وغيرها من الجهات الأكثر تطرفًا. ومن جهتهم، يطلق الشيعة فتاوى ضدّ هؤلاء العناصر ويدرجونهم على قوائم القتل إلى جانب أميركا وإسرائيل! ليس القصد هنا أن نقول إنّ حزب الله، في الثمانينيات، أي خلال الحرب، لم يكن مسؤولًا عن صنف محدّد من الإرهاب خاص به وتضمّن خطف رهائن أميركيين والتفجير الذي استهدف مشاة البحرية الأميركية على ما يبدو. إلّا أنّه ليس بالإمكان اليوم أن نضع الجميع، ببساطة، في سلة واحدة.

ومع ذلك، تبقى القضية الفلسطينية الرابط المشترك الوحيد الذي يحظى بإجماع كافة العناصر المسلحة المتحاربة، سواء كانت حماس أو حزب الله أو تنظيم القاعدة. لهذا السبب، من المهمّ أيضًا لإسرائيل من الناحية الاستراتيجية أن يتورط العرب في حرب مذهبية سنّية/شيعية محتملة بعضهم بين بعض، وهو بالضبط ما يحدث اليوم، فالخطر بالنسبة للإسرائيليين يكمن في اتحاد هذه القوى الإسلامية الرابضة على حدودها من جميع الجهات.

في إطار الجهود المبذولة لدعم الديمقراطية، تجد الولايات المتحدة نفسها في مواقع خطرة على مستوى مواقفها. ففي سوريا، على سبيل المثال، ومن خلال دعم المعارضة، تضع الولايات المتحدة الأميركية نفسها في بعض الحالات إلى جانب القاعدة وغيرها من الجماعات الواردة على قائمة الإرهاب الخاصة بوزارة الخارجية الأميركية.

بعدما شهدت هيلاري كلينتون، وزيرة الخارجية الأميركية، المسار السلبي الذي سلكه الربيع العربي وعملية الاستيلاء على القرار التي قامت بها جماعة الإخوان المسلمين في مختلف البلدان التي طالها، اعترفت أخيرًا بأن هوية الأعضاء المشاركين في الانتفاضة السورية تمثّل عاملًا مريبًا ولا يمكن الاعتماد عليه خصوصًا بعد اكتشاف مشاركة عناصر من تنظيم القاعدة فيها. وفي مقابلة مع وكالة «بي بي سي» أقرّت كلينتون: «ثمة مجموعات خطيرة جدًّا من الجهات الفاعلة في المنطقة؛ تنظيم القاعدة، وحماس، وأولئك الذين هم على قائمتنا الإرهابية، تدعم أو تزعم أنّها تدعم المعارضة [في سوريا]. هؤلاء الإرهابيون متهمون بالقيام بهجمات دامية أدّت إلى مقتل كلّ من المسؤولين في النظام السوري والمدنيين الأبرياء».

هكذا، يبدو العالم مقلوبًا رأسًا على عقب...

الخاتمة

في العام 2009، مررتُ بالقرب من أحد أهمّ المعالم التي بُنيت في مرحلة ما بعد الحرب في لبنان، مسجد محمد الأمين، الذي يُعتبَر تحفة من تحف العمارة الدينية. كان جوهرة التاج بالنسبة إلى الرئيس الحريري، الذي اعتبره مشروعه الخاص، وشارك شخصيًّا في عملية وضع الحجر الأساس له في العام 2003.

يغطي المسجد مساحة 10700 متر مربّع موزعة على أربعة طوابق، وفي الزوايا الأربع تنتصب عاليًا في السماء مآذن يبلغ ارتفاعها 72 مترًا، حتّى القبة نفسها يبلغ ارتفاعها 42 مترًا فوق الأرض المخصَّصة للصلاة، وهي باللون الأزرق اللازوردي مع لمسات من الذهب ووميض يستلهم من البحر الأبيض المتوسط على امتداد الشاطئ الصخري القريب، وهو من أكثر المعالم فخامةً وهيبةً التي شُيّدت في البلاد.

اليوم، هو المكان الذي دُفن فيه رفيق الحريري، ومجرّد النظر إلى قبره وسط ذلك الصرح الضخم يذكّرني بعبثية العظمة وبطيش الأحلام التي يبنيها الناس حولها، لأنّه مهما بلغت عظمة الصروح التي يبنونها لأنفسهم أو لله، ينتهون رفاتًا تحت التراب.

وبرأيي، لا جدوى من امتلاك أو من تمجيد أي شيء عدا الحياة نفسها، فبعد سنوات من تحمّل فظائع الحرب ومن اختبار فشل الخطاب القائم حولها لتحقيق السلام، أدركت في صميم نفسي أنّ الطريقة الوحيدة لمنع الحرب هي بتجسيد السلام. وبهذا المعنى أرى ثلاث ركائز أساسية للسلام، وهي: الحقيقة، والرحمة، واللاعنف.

تنشأ الحقيقة من خلال وعينا المشترك لعرضية حيواتنا، عندما تتكشّف لنا تلك الحقيقة، ثم تنبع الرحمة من إدراكنا لتشارك مصائرنا، وللصّلات التي تربط حيواتنا وخبراتنا بعضها ببعض. وتمنحنا الرحمة، القدرة على رؤية أنفسنا في الآخر وفي جميع أشكال الخلق؛ عندما يختبر المرء الرحمة، لا يعود بوسعه أن يمارس العنف هكذا، بكل بساطة. يصبح السلام هو الطريق، الطريق الوحيد.

السلم والحرب وجهان لعملة واحدة بما هما خياران متزامنان ومطروحان في أيّ وقت من الأوقات. المهمّ هو ما نختاره بفعاليّة. فنحن نشكّل كتلة المتغّيرات التي من شأنها أن تؤثر على نتيجة عيشنا المشترَك لأنّنا نحن من نخلق واقعنا.

في نهاية المطاف، لا بدّ من القيام ببعض التسويات، وعلينا أن نعي أهمية إرادة التعايش التي علينا أن نتحلّى بها، كما يتعيّن علينا أن نغيّر الخطاب السائد من «نحن وهم» إلى «جميعنا»، وأن نعتمد سياسة التأكيد لا النفي. علينا أن نقول «نعم» بعضنا لبعض، «نعم» للتعددية التي نتميّز بها.

كلّما رأينا أنّنا أفضل من الآخر، وكلما وجدنا مبرّرًا لسوء معاملتنا للآخر، وكلما اعتبرنا أنّنا وحدنا أحقّ من الآخر، نكون بصدد إدامة الحرب، لا السلام.

وتفعل معتقداتنا المتصلّبة والطائفية، وأحكامنا المسبقة، فعل السيوف التي تقطع أحلامنا ورغباتنا المشتركة. الانفتاح على الآخر وتقبّله، والعمل من موقع ثقة لا انطلاقًا من الخوف، والانتباه لهواجس الآخرين وتبنّي مطالبهم كما لو كانت مطالبنا، والتحلي بشجاعة التغيير، كلّ هذه الشروط تشكّل الطريق الوحيد لتجنّب استمرار الميول المدمّرة ذاتها التي حكمت لبنان منذ البداية.

من جهة أخرى، ربّما فات الأوان لكلّ ذلك. ولكن إن تسنّت لأحدنا يومًا فرصة اختيار سلام حقيقي، سلام من القلب، وإن أُتيحَت لنا فرصة الإشادة لا إلقاء اللوم، فرصة التفكير بالآخرين وعدم تجاهلهم، فرصة توحيدهم لا تشتيتهم، فرصة التحدّث بلغة الصداقة لا بلغة العداوة، أقول أن نغتنم الفرصة ونقوم بكل ذلك، أقول أن ننسى الأعداء، فهم نحن ولكن باسم مختلف.

لن نتمكّن من العيش على المدى الطويل ونحن نسلك المسار الحالي. لا بدّ من تقديم التنازلات. وإما أن تكلّفنا تلك التنازلات حياتنا أو قيودنا؛ لا بدّ لنا من تصوّر شكلٍ جديدٍ من وجودنا نكون فيه الشعلة التي تضيء درب الأجيال القادمة في الوطن. من غير المهمّ إلى أيّ دين ننتمي، أو أيّ إله نعبد، ما يهمّ فقط هو أن نرى نفسنا في الآخر وأن نتجاوز إطلاق الأحكام والاتهامات نحو المزيد من التعاطف والتعايش.

من المفترض أنّنا ننتمي إلى جنس ذكي. إلّا أنّنا غالبًا ما استخدمنا ذكاءنا لصنع أسلحة الدمار الشامل واستراتيجيات الاستغلال. عوضًا عن ذلك، علينا أن نسخّر ذلك الذكاء لخدمة مصير جديد وأن نتخلى عن جنوننا النابع من الخوف. علينا أن نكون مسؤولين عن خلق مستقبل مقبول على المدى الطويل، وذلك من خلال اعتماد اللاعنف والتسامح

كمرشدين لنا؛ وأخيرًا يجب أن نخرج من كابوس الحرب التي سرقت أحباءنا منذ بداية تاريخنا القصير والعنيف.

في العام 2011، قمتُ بتنظيم قدّاس في دير القمر، في المقبرة، لتكريم ذكرى والـدي، وشهدَت المناسبة حضورًا حاشدًا، حيث وقف الجميع عند قبره بصمت واحترام. نظرتُ يومها من حولي ولم أشعر إلّا بالحب.

أدركت أنّ ما خلّفه والدي هو ذكرى رجل صادقٍ، قدّم الآخرين على نفسه، وعاش ومات من أجل حبّه للبنان. إرث والـدي هو تلك الرؤية القوية لدرجة أنّها لا تـزال حيّة حتّى بعد مـرور أكثر من عقدين على رحيله، والتي غرسها في صدر كل واحد منا. تلك الرؤية التي تتخطى القبر لتصل إلى قلوب جميع أولئك الذين شاركوه حلم بناء أمّة جميلة تعيش بسلام.

وبفضل نشأتي في ظل والـدي، حظيت بشرف استيعاب معنى كلمة «الأحرار» بعمق، وخاصة في السياق اللبناني، فهي تشير الى رؤية مترابطة تتخطى الخصوصيات الفردية، وهي أساس للتسامح وقبول الآخر ومعتقداته وممارساته؛ إنّها فلسفة اندماج وإنسانية مشتركة.

منذ بداية حياته السياسية تبنّى جدّي، كميل، تلك الرؤية الليبرالية وقد حارب والـدي ومات في سبيلها. ما كان ليقبل الطائفية أو الأمّة المنقسمة، كان يحب جميع أصدقائه وأقرانه من المواطنين، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين، وكان مُرحّبًا به أينما حلّ في البلاد: أكان ذلك في تلال الدروز أم في بيوت الشيعة في وادي البقاع، قبل اندلاع الحرب. كان الجميع مستعدّين للتضحية بحياتهم من أجله فقد كانوا يحبّونه إلى حدّ كبير. كان من ذلك النوع من الرجال، أحبّه الجميع وغُمرنا بالهدايا والبركات. كان يحكم على أيٍّ كان بحسب نزاهته وحسن خلقه فقط.

اليوم، أرى نفسي أكتب عن الليبرالية بالروح نفسها، لا بوصفها حكمة سياسية وسطية، ولكن بوصفها تعبّر عن الرغبة في قبول واعتناق التنوّع الذي يحدّد كل واحد منا وفي تعزيز التسامح. ويُعتبَر الإيمان بضرورة الاحتفاء بتنوّعنا أساسيًّا للحفاظ على لبنان بوضعه الحالي، أي بوصفه مزيجًا من الكائنات التي تسعى للتعايش على الرغم من الاختلافات والصعوبات الثقافية القائمة بينها.

مؤخرًا، كنت أبحث عن شقة، واصطُحبت إلى أماكن مختلفة في منطقتي بعبدا ومار تقلا على اعتبار أنهما المكانان الأكثر أمانًا بسبب محاذاتهما لمراكز الجيش اللبناني... فقلت لنفسي، ليس من مكان آمن؛ فوالدي قُتلَ في بعبدا وقُتل إيلي حبيقة في مار تقلا، فمن عساني أخدع؟

بعدما قمت بجولة على ثماني شقق، بقيت شقة واحدة كان يتعيّن عليّ زيارتها في بعبدا. أثناء توجّهي إلى المكان، شعرت بإحساس غريب ومُقلق. وحالما دخلت الشقة أدركت السبب؛ فمن الشرفة كان بالإمكان رؤية الشقة التي قُتل فيها والدي وعائلتي. تلك الشقة أصبحت منزلي، والمنظر التي تطلّ عليه منظري.

عندها فهمت أنني بلغت نهاية المطاف. ها أنا أعود إلى وطني لبنان، في السراء والضراء. طوال رحلتي شعرت بخشوع كبير أمام حكمة جدّي وشخصيته، وعاطفة والدي وإخلاصه. وأعتبر أنّ هدية والدي للبنان كانت التضحية بالذات والحبّ الأبدي غير المشروط لبلاده، ويشرّفني أن أكون ابنته.

أريد أن أعبّر عن خالص الشكر للأصدقاء الذين ساندوني أثناء كتابة هذا الكتاب، وأودّ توجيه شكر خاص إلى صديقتي لينا وجورج دمبكلي وأنطوان أبو جودة على المساعدة التي قدّموها في جوانب عدّة من العمل.

كذلك، أودّ توجيه تحيّة خاصة الى الصديق العزيز المرحوم فادي ملحة، الذي توفّاه الله للأسف، ففقدت معه الإرشاد المخلص الذي كان يقدّمه لي.

وبشكل خاص، أودّ أن أوجّه كلمة تقدير الى زوجي فْرِد، أفضل صديق وأبرز محرّر.

كما أشكر فريق العمل في دار «هاشيت أنطوان»، وخصوصًا باسكال قهوجي ورنا حايك.

أمّا أختي تمارا وابني ليكس، فأترك لهما هذه الكلمات التي سترشدهما إلى طريق العودة الى إرثهما حتّى يتمكّنا من المضيّ قدمًا في حياتهما الخاصة من خلال معرفة جذورهما.

ثمَن السّلم — بشجاعةِ روحٍ عقدت الصلحَ مع نفسها ومع محيطِها، تواجهُ الكاتبة والسياسيّة ترايسي شمعون، في «ثمَن السّلم»، أوجاعَ الماضي واستحقاقاتِ الحاضر.

هنا لبنانيّة لا تتبرّأ من الماضي الدامي للوطن، ولا من مأساتِها الشخصيّة، بل تعود وتحفر فيهما. تقول ما لها وما عليها، لتجدَ في النهاية كنزَ التخفّفِ من عبءِ الإرثِ الموجِع.

يشكّل نصّ شمعون، الأدبي-السياسي، رسالة تسامحٍ ودعوةً إلى الانفتاح والسلام والمغفرة، رغم ما يتخلّله من آلام الخيانة والفقد والاغتراب.

بهذا المعنى، تصبحُ الكتابة وسيلةً للتطهّر والخلاص، وتتحوّلُ الأحداثُ من حقائقَ تحكُم سلوكَنا وطبيعتَنا إلى عناوين، تنسحب إلى الخلفيّة، فتخلقُ مساحةً للتأمّل.

بعد تلك الرحلة التنقيبيّة، داخل النفس وفي أزقّة الواقع السياسي المحلّي والعالمي، تؤكّد الكاتبة أنّ الحرب التي ذاق لبنان لوعتَها بسبب هشاشته الطائفيّة، ليست هي الحلّ، وتدعو اللبنانيّين إلى عدم الانجرار في دوّامة التطرّف الديني والأيديولوجي التي تهدّد المنطقة.

«ثمَن السّلم» ليس سيرةً ذاتية بل سيرة شعب كامل، تقدّم ترايسي شمعون من خلالِها رؤيتَها السياسيّة وخلاصةَ تجربتِها الإنسانيّة في قالَبٍ سرديّ مؤثّر.

«السلام هو المتأصّل فينا، أمّا الحربُ فهي خيار.»

ترايسي شمعون — ناشطة في مجال الدعوة للسلام وفاعلة في السياسة اللبنانية حيث ترأس حزب «الديمقراطيّون الأحرار» الذي أسّسته عام 2012، وتعتزم الترشّح لخوض الانتخابات النيابيّة المقبلة. هي حفيدة الرئيس اللبناني الأسبق كميل شمعون وابنة داني شمعون، الرئيس السابق لـ«حزب الوطنيّين الأحرار» وقائد «النمور»، الذي قُتل بوحشيّة هو وعائلته خلال الحرب الأهليّة اللبنانيّة.

ISBN 978-9953-26-880-4
9 789953 268804
نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت أنطوان